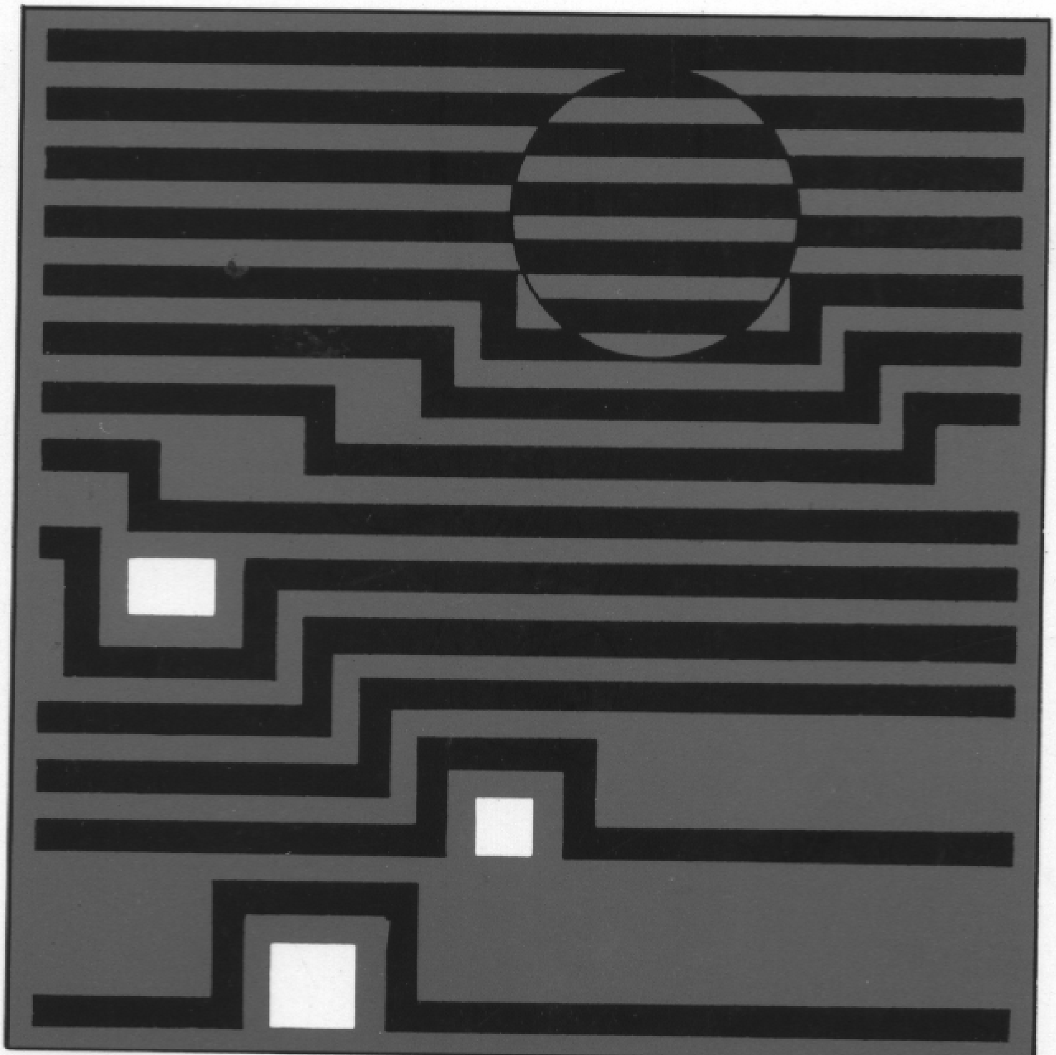
الطاهر بن جلون

ليلة القدر

ترجمة: محمد الشركي - مراجعة: محمد بنيس



رواية

دار توبقال للنشر
Seuil سراس للنشر

دِيبَـاجَـةٌ

ما يهمُّ هو الحقيقة.

لـديَّ الآن وقـد صرتُ عجـوزاً، كـلُّ السّكينـة لكي أعيش. سـأتكلّم، سـأُدْلي بـالكلمـات والزّمن. إنّني أحِسُّنِي مثقلةً بعض الشيء. وهذا لا يعود إلى وطأة السّنين، بل إلى وطأة كلّ ما لم يُقَلْ، كلّ ما كتمتُه وأخفيتُه. لا أعلم بأن ذاكرةً مملوءة بأنواع الصّمت وبالنظرات المتقطّعـة يمكن أن تصير كيساً من الرّمْل يعْسُر معه السَّيْرُ.

قضيت وقتاً طويلاً للوصول إليكم. أيُّها الأخيار ! لاتزال السّـاحـة دائريـة. كمـا الحمق. ولا شيء تَغَيَّر. لا السّماءُ ولا الناس.

إنّني سعيدة بكوني أخيراً هنـا. أنتم خلاصي، ونورُ عينيَّ. إنّ تجـاعيـدي جميلـة وكثيرة. فما بدا منها على الجبين هي آثارُ ومِحَنُ الحقيقة. هي انسجام الزّمن. وما بدَا منها على ظـاهر اليَدَيْن هي خطوط القدرِ. أُنظُروا إليها كيف تتقاطعُ، كيف تشير إلى مَسَـالِك الحظ، راسمةً نجمةً بعد سقوطها في ماء إحدى البُحَيْرات.

هنا تكمن قصّة حياتي، فكلُّ تجعيدةٍ قَرْنٌ، طريقٌ عبر ليلـةٍ شتويـةٍ، عينُ مـاء صـافيـة، صبـاحٌ من الضبـاب، لقـاءٌ في غـابـةٍ، قطيعـةٌ، مقبرةٌ، شمسٌ مُحْرِقـةٌ... هنـا، على ظـاهر اليـد اليُسرى، هذه التّجعيدةُ نُدْبَـةٌ؛ فقـد توقَّفَ الموتُ ذات يومٍ ومَـدَّ لي نوعـاً من العصـا الطويلـة. رُبَّمـا لكي يُنْقِـذني ؟ وقـد رددتُـه بـإدارة ظهري لـه. كـلُّ شيء بسيـطٌ شريطـة ألا نشرع في تحويل مجرى النّهر. قصتي ليست عظيمةً ولا تراجيدية. هي ببساطة غريبـةٌ. تغلّبتُ على كلّ

أنواع العنف لكي أستحقَّ العاطفة وأستحق أن أصير لُغْزاً. طالما مشيتُ في الصحراء؛ ذرَعْتُ الليلَ وأَلِفْتُ الألم. خَبَرتُ «الشراسة الصافية للأيام الهنية»، هذه الأيام التي يبدو فيها كلُّ شيء وديعاً.

أيُّها الأخيار ! ما سأُسِرُّه لكم يشبه الحقيقة. لقد كذبتُ. أحببتُ وخُنْتُ. عبرتُ البلاد والقرون. وغالباً ما نَفيتُ نفسي، وحيدةً بين الوَحيدِين. أدركتُ الشيخوخَةَ غِبَّ نهارٍ خريفي، وإذِ ارتَدَّ الوجهُ إلى الطّفولة، أودُّ قول هذه البراءة التي حُرِمْتُ منها. تذكَّروا ! كنتُ طفلةً مضطربةَ الهُوية ومترنّحتها. بِنْتاً كنتُ مُقَنَّعةً بمشيئةِ أبٍ أحسَّ بنفسه ناقص الرّجولة ومُهَاناً لأنّه لم يُرْزَقْ ولداً. وكما تعلمون، كنتُ أنا هذا الإبْن الذي كان به يحلمُ. والبقية، يعرفها بعضكم؛ والآخرون سمعوا نُتفاً منها هنا وهناك. إن الذين جازفوا بحكاية حياة طفل الرّمَال والرّيح هذه لاقَوا بعض المتاعب : فبعضهم أُصيبوا بفقدان الذّاكرة؛ وأشرف آخرون على الهلاك. لقد قُصَّتْ عليكم بعض القصص. وما هي حقّاً بقصصي. فحتّى عندما كنتُ مختبئةً ومنزويةً، كانت الأنباء تنتهي إليّ. ولم أكن مندهشة ولا منزعجة. كنتُ أعلم أنّني، باختفائي، أترك ورائيَ ما يُغَذّي أغربَ الحكايات. لكن بما أنّ حياتي ليست حكايةً، حرصتُ على أنْ أُصَحّح الوقائع وأُفْشِيَ لكم السّرَّ المصون تحت حجر أسودَ في دارٍ عالية الجدران داخل دَرْبٍ مُغْلقٍ بسبعة أبواب.

1

حَالَـةُ الأَمْكِنَـة

اختفى الرّاوي من جديد، بعد اعترافه. لا أحد حاول استبقاءه أو مناقشته. كان قد نهض، جامعاً مخطوطَه الأصفر المغسول بالقمر. ومن غير التفات، غاص في الحشد.

كان الذين استمعوا إليه منذهلين. لقد احتاروا في شأن هذا الرجل الرّاوي الشهير الذي أحبّه أهل المدينة. كان يبدأ قِصّةً ثم يتركها، ويعود لا ليواصلها بل ليقول لهم بأنّه ما كان ينبغي حكايتها، لأنّ النَّحْسَ حَلَّ به.

هناك من لم يعودوا به معجبين. أخذ الارتياب يخامرهم. لم يكونوا لِيُحِبُّوا هذه الأشكال من صمت يؤلفه الغياب والانتظار. لم تعد لديهم ثقةٌ في هذا الرَّجُل الذي كانوا يشربون أقواله في سالف الزّمن. لقد كانوا مقتنعين بأنّه فَقَدَ الذّاكرة وأنّه لا يَجْرُؤُ على الاعتراف بذلك. إنّه بالتأكيد رَاوٍ بلا ذَاكرة، ولكن ليس معنى هذا أنه بِلاَ خيال. والدّليلُ على ذلك، أنّه قَدِم من الصّحراء، مسودّ الوجه بالشمس، مشقوق الشّفَتَيْن بالعطش والحرارة، صلب اليَدَيْن من جرّاء نَقْلِ الأحجار، مبحوحَ الصَّوتِ كأنَّ عاصفةً من الرَّمل والحصى البلّوري هبَّت على حنجرته، مرفوعَ البصر إلى مدى عالٍ وبعيد. كان يتحدّثُ إلى شخصٍ مّا، محجوب، ولكن يبدو أنه مُتَربِّعٌ على عرشٍ مرفوعٍ فوق السُّحُب. كان يتوجّه إليه كما لو كان يُشْهِدُه. كان الجمهور يتابع حركاته ونظرته. ولم يكن يرى شيئاً. وحتّى لا يسمعوا الرّاوي كان البعض يتخيل شيخاً على جَمَلٍ يومئُ بيده.

بِجُملٍ غير مفهومة كان يغمغم. ذلك لم يكن مفاجئاً. فغالباً ما كان يحشو حَكْيَهُ بكلمات لغةٍ مجهولة. كان يُجيدُ ذلك إلى درجة أنّ النّاس كانوا يفهمون ما يودّ قوله. حتّى

أنهم كانوا ينفجرون ضحكاً. لكن في هذه المرة، لم تكن هناك سوى هذه الجُمَل النّاقصة، المبتورة، المليئة بالحصى واللّعاب. كان لسانُه يتقلّب ثم ينعقد. وكان الرّاوي يخجل لذلك. فقد تبيّن له جيداً بأنه يفقد، لا العقل - لأنه لم يكن ضالّته - بل جمهوره. لقد نهض شخصان ومضيّا دون أن ينبسا ببنت شفة. وما لبث أن تبعهما رجُلان مستاءان ومتذمّران. كان ذلك بمثابة سوء الطّالع. إذ لم يحدث أبداً أنْ غادر أحدٌ حلقةَ بُوشْعَيب. لم يحدث أبداً أنْ مضى أحد غير راضٍ. لقد نزل بصرُه من المدى العالي البعيد، وبأسىً أخذ يتابع المنصرفين؛ إذ لم يكن ليفهم سببَ الانصراف ولا سببَ الكفّ عن الاستماع إليه. لم يعد أحد به يثقُ. وهذا ما لم يكن بمستطاعه قبوله. فعندما يكون المرء قد سبق له أن كان هو الرّاوي، سيّدَ الساحة الكبيرة بلا منازع، ضيفَ الملوك والأُمراء، وعندما يكون قد كوّنَ جيلاً من الشعراء الجوّالين وعاش سنةً بمكّة، فإنه لايسعى إلى استبقاء الّذين يغادرون الحلقة أو إلى استرجاعهم. كلاّ، إن بوشعيب لا يتذلّل؛ إنه لا يخالف الكرامة والإباء. قال لنفسه «ليمضِ هؤلاء النّاس إن شاؤوا، لم يعد لأساي قرار؛ لقد تحوّل إلى كيسٍ من الأحجار سأحمله حتّى القبر !».

كنتُ هناك، ملفوفة في جلبابي القديم؛ أُراقِبُه وألزم الصّمت. وماذا كان عسايَ أن أقول لكي أُعَبّر له عن محبّتي ؟ أيّة حركةٍ كان عليّ أن أقوم بها دون أن أفضح السّرّ الذي كان يصونه وكنتُ له تجسيداً ؟ كنتُ أعرفُ الكثير من الأُمور، ولم يكن حضوري في ذلك المكان وليد الصّدفة. كنتُ عائدةً من بعيد. التقتْ نظراتُنا. كانت عيناه تلمعان بذلك الذّكاء الذي يثيره الخوفُ. كانت نظرةً مذعورةً، مملوكةً بما لا يُحَدَّد. كانت مُعَلَّقَةً. لقد تعرّف فيَّ على شبح فترةٍ منكوبة. بيديه المشدودتين خلف ظهره، كان يطوف على نحوٍ دائري. وأنا كنتُ هَادِئَةً؛ أنتظرُ بصبر الحكماء. لقد عادت عيناه تنحطّان عليّ بقلقٍ متزايد. تُرى هل تعرّف علي، هو الذي لم يسبق له أن رآني ؟ منحني وَجْهاً وملاَمِحَ ومِزاجاً. كان ذلك في فترة نسْج الرواية. كنتُ مخلوقته المتمرّدة، المتعذّرة الإمساك. وكان الحُمْقُ قد أحدثَ ثقوباً في ذاكرته. الحمق أو التضليل.

مع الزّمن، والتقلبات التي عِشتُ، لم يَعُدْ لِشيءٍ أن يُدْهِشني أو يصدمني. كنتُ قد وصلتُ في الليلة السّابقة إلى مراكش، مصمّمة على لقاء الرّاوي الذي دمَّرَتْهُ قِصّتي. وبالحدس، علمتُ مكان حلقته وتعرّفتُ على جمهوره. انتظرتُه كما يُنْتَظَرُ صديقٌ خانَ أو حبيبٌ أذْنبَ. كنتُ قضيتُ الليل في غرفةٍ واقعةٍ فوق سوق الحبوب. هناك كانت رائحة الغبار وبُول البغال.

استيقظتُ عند الشروق واغتسلتُ في سقاية المسجد. لاشيءَ تغيّر. كل شيء كان في مكانه. كانت المحطّة الطرقية لاتزال في قتامة شبيهة بقتامة فرنِ الخبز. وكان المقهى لا يزال بلا أبواب. حتّى النادل، ذو الحلاقة الرّديئة، المرتدي لنوعٍ من السّموكين المكْوي ألْف مرّة، المُلَمَّع ببُقَع الدُّهن، ذو الشّعر المدهون، والعقدة الفراشية الموضوعة بشكل سيّء، زَعَمَ هو الآخر أنه تعرّف عليّ. كانت مناداة الزُّبناء بأسمائهم الشخصية أحدَ أساليبه. لم يكن ليرتاب أبداً. قَدِمَ نَحوي، وكما لو كنّا نتعارف منذ سنواتٍ قال لي :

ـ قهوة بالقرفة، ساخنة جداً، ورغيف ذُرَة، يا أُمي فَضِيلَة، كالعادة...

وانصرف. لم أتمكّنْ حتّى من أن أقول له : «لا أُدْعَى فَضِيلَة؛ أكره القرفة في القهوة، وأُفضّل خبز الشّعير على رغيف ذُرَتك...».

أفطرتُ بجوار سائق شاحنةٍ من الشّاوية أكل رأْسَ خروفٍ مطبوخاً بالبخار، وشرب برّاداً كاملاً من الشاي بالنعناع والشّيبة، ثم تجشّأ عدّة مرّاتٍ شاكراً الله ومرّاكش على كونهما قدّما له وجبةً صباحيةً بتلك الجودة. نظرَ إليّ كما لو كان يودّ إشراكي في ارتياحه. ابتسمتُ وأنا أطرد بيدي دخّان الكيفِ الذي كان ينفخه في وجهي. وعندما رأى إحدى الفتيات تمرّ أمامنا على درّاجة مُوبِليت، ملّس على شاربه بسيماء من يقول بأنه بَعْدَ مِثْلِ هذا الفطور سيكون من شأن إحدى الصبايا، ومن الأفضل أن تكون عذراء، أن ترفع سعادته إلى أوْجِها.

بعد أن نظّفَ أسنانه، أعطى البقايا لمجموعةٍ من الأطفال المتسوّلين... الذين انسحبوا إلى إحدى الزّوايا والتهموا ما فَضَلَ فيها. ثم ركب شاحنته، ودار نصف دورةٍ وعاد أمام المقهى :

ـ إلى الأُسبوع القادم، يا شَارْلُو ! هتف باتّجاه النّادل.

عند انصرافي، سألتُ النّادل عمّن يكون هذا الشخص.

ـ شخصٌ وَقِح ! يعتقد بأنه مسموح له بكلّ شيء. فهو يَدْعُوني شَارْلو بسبب لباسي الذي يكبرني كثيراً، وهو يوسخ المائدة ويبصق على الأرض. وفوق ذلك يعتبر نفسه وسيماً وجذّاباً. كلّ هذا لأنّ سائحةً ألمانيّةً ركبت معه ذات يومٍ في شاحنته. وقد قاما بفواحِشَ ظَلَّ يتبجّحُ بها طوال السّنة. منذ ذلك الوقت، وهو يتوقّفُ في الذّهاب كما في الإياب لِيَلْتَهِمَ رأس خروفه. وكما ترين يا أُمّي فَضِيلَة، من الأفضل ألاّ يُغادِرَ مثلُ هذا الأبله شاحنته أبداً...

كانت السّاحة خالية. ثم كخشبةِ المسرح أخذت تمتلئ شيئاً فشيئاً. كان أوّلَ من حلّ فيها الصحراويُّون، باعةُ جميع المساحيق : كالتوابل والحنّاء والنعناع البرّي والجير والرّمل ومنتوجات سحرية أُخرى مطحونة ومُصَفّاة. ثم تلاهُم الكُتُبيُّون، فعرضوا مخطوطاتِهم الصّفراءَ وأحرقوا البخور.

وبَعْدَ ذلك قَدِمَ الذين لا يبيعون شيئاً. كانوا يجلسون على الأَرض متربّعين وينتظرون. كان الرّواةُ آخر من يحلّ. وكانت لكلّ واحد منهم طريقته.

بَدأ رجُلٌ متقدّمٌ في العمر، ضامِرٌ ونحيل، بحلّ عِمامته؛ نفضها فتساقط منها رَمْلٌ ناعم. كان هذا الرّجل قادماً من الجنوب. على حقيبةٍ صغيرةٍ من الخشب جلس، ووحيداً، من غير أيّ مستمِع، أخذ يحكي. كنتُ أراه من بعيد يتكلّم ويومئ كما لو كانت الحلقة مكتملة ومملوءةً عن آخرها. اقتربتُ منه فوصلتُ وهو في وَسَطِ جُمْلةٍ : «... مذاق الزّمن الملْحُوس من طرف رهطٍ من الكلاب. اِلتفتْتُ، فماذا رأيتُ ؟ قولوا أيها الأوفياء، خَمّنوا، أيها الطّيبون، من كان أمامي، جليلاً فوق فَرَسِه المُوشاة بالفِضّة، مُنيفاً في كلّ المِحَن، أنُوفاً ووسيماً. للزمن مذاق عديم الطعم. والخبز بائتٌ. واللحم فاسِدٌ. وزبدة الناقة زَنِخَةٌ... زَنِخَةٌ كهذه الأيام أيها الأصدقاء المارّون... تقول الحياة وإذا بالنّسر الوحيد يبرز...». كنتُ زبُونتَـه الوحيدة. توقّفَ عن الكلام، قَدِمَ نحوي وقال لي بلهجة المُسَارّة :

- إنْ كنتِ تبحثين عن شخصٍ مّا فإن بوسعي مساعدتك. غير أنّني قد أكون ذاك الذي تودّين لقياه. إن قصّتي أخاذة. وإنّ الوقت لباكرٌ جداً على حكايتها. إذن فهل أنتِ تبحثين عن إبْنٍ أو عن زوج ؟ إذا كان إبْناً فقد يكون في الهند أو في الصّين. وإذا كان زوجاً، فالأمر أسهل. إنّه شيخٌ دون ريب، والشيوخ يتسكّعون في المسجد أو المقهى. لكنّني أراكِ غير مبالية بهذا ولا بذاك. صمتك يقول لي. ماذا يقول لي ؟ آه ! إنّكِ تصونين في قلبكِ سِرّاً ولا ينبغي مضايقتك أكثر. أنتِ من سُلالة الأشراف. ولا تصلحين للمماحكات. أيتها الصّديقة، رافقتكِ السلامة ودعيني أغلق حلقتي...

انصرفتُ دون أن ألْتَفِت، منجذبة بالحركات الكثيرة والرّشيقة لشابٍّ كان يفرغ صندوقاً. كان يُخرِجُ منه أشياء متنافرة ويعلّقُ عليها، بهدف إعادة تركيب حياة، ماض، حِقْبَةٍ، وهو يقول :

ـ لدينا هنا نُتَف من مَصِير حياة. إن هذا الصندوق دارٌ. وقد آوتْ حيوات عديدة. فهذه العصا لا يمكن أن تكون شاهدةً على الزّمن. لا عمر لها ومتحدّرة من غريق بلا ذكريات. كانت دليلاً للشيوخ والعُمْي. ثقيلة ولا غموض فيها. أُنظروا الآن إلى هذه السّاعة. إن الأرقام الرّومانية باهتة. وقد توقّفَ العقربُ الصغير عند منتصف النّهار أو منتصف الليل. والكبير يدور بمفرده. الميناءُ أصفر. تُرَى هل كانت في حوزة تاجر أَمْ غازٍ أم عالِم ؟ وهذه الأحذيةُ غيرُ المتجانسة ؟ إنها إنجليزية. قادت صاحبها في أمكنةٍ لا وَحَل فيها ولا غُبار. وهذا الصّنبور من النُّحاس المُفَضَّض. إنّه آتٍ فيما يبدو من دارٍ فخْمَة. الصّندوقُ أبْكَمُ. وليس هناك من يستنطقه غيري. عجباً، ها هي صورة فُوتُغرافية. لقد فعل الزّمن فِعْله. إنها صورةٌ عائلية موقّعَة بـ«لآزَارْ 1922». الأب ـ أو لربّما الجَدّ ـ هو الواقف في الوسط. سِتْرته الطويلة أنيقة. وقد وضع يديه على عكّازةٍ من الفِضّة. ينظر إلى المُصَوِّر. إنّ المرأة ممحوّةٌ إلى حدٍّ بعيد. لا نراها جيّداً. فستانها طويل. وثمّة طفل صغير، بعقدةٍ فَراشيةٍ في ياقة قميص عتيق، جالس عند قَدَمَيِ الأم. هناك كلبٌ بجواره. إنه مُرْهَق. وثمّة امرأةٌ شَابّةٌ واقفة، متنحّية بعض الشيء. جميلة. وعاشقة. تفكّر في حبيبها. إنه غائب، في فرنسا أو في جُزُر الأنتيي. أُحِبّ تخيُّل هذه القصّة بين هذه المرأة الشّابة وعشيقها. إنهم يقطنون بِكَلِيز. والأبُ مُرَاقِبٌ مدنيٌّ في الإدارة الاستعمارية. يتردّدُ على الكَلاوي باشا المدينة، الشهير. إنّ هذا بادٍ على وجهه. هناك شيء مكتوبٌ على ظهر الصورة. «أُمسية سعيدة... أبريل 1922». أنظروا الآن إلى هذه المسبحة... من المرجان، من العنبر، من الفضّة... لقد كانت في حوزة أحد الأئمّة. وربما كانت المرأة تتقلّدها كعِقد... بعض القطع النّقدية... ريال مثقوب... سنتيم... فرنك مغربي... بعض الأوراق البنكية التي لم تعد لها قيمة... طاقم أسنان... فرشاة.. قدح خزفي... ألبوم بطاقات بريدية... أتوقّف عن إخراج هذه الأشياء... لقد وضعنا منها في الصندوق ما يكفي لإرباككم.. إنّني آخِذٌ للقطع النّقْدية خاصّةً !

أخرجتُ من جيبي خاتماً وألقيتُ به في الصندوق. تفحصّه الرّاوي ثم أعاده إليّ :

ـ احتفظي بخاتمك ! إنه حلية نادرةٌ، فهو آت من إسطنبول. ثم إنني قرأتُ فيه شيئاً أفضّل جهله. هذا خاتم ثمين، مُعبّأ، ومُثْقل بذكريات وأسفار. لماذا تريدين التخلّص منه ؟ هل سُقِيَ بمصيبةٍ ما ؟ كلا، إن كنت تريدين إعطاء شيء ما، فافتحي حافظة نقودك، وإلا فلا تعْطي شيئاً. من الأفضل أن تمضي لحال سبيلك !

دون أن أنبس ببنت شفة، غادرتُ الحلقة على مرأى من الأنظار القلقة. لقد كان يحدث لي من حين لآخر أن ألتقي في طريقي بأشخاص يقومون بردّ فعل عنيفٍ على حضوري، على موقفٍ أو على حركة. حينئذٍ كنتُ أقولُ لنفسي بأنّنا من نفس المعدن دون ريب، وأنّ نفس الألياف نسجتْ حساسياتِنَا. كنت أمضي في صمت واثِقَةً من أنّ أعيننا ستلتقي من جديد بنفس الحماس.

بينما كنتُ أعاود التّفكير في تلك العائلة من المعمّرين الفرنسيين التي خَرَجَتْ قِطعاً متناثرةً من الصندوق، رأيتُ امرأةً تدور حول نفسها لكي تحلّ الحَايك الأبيضَ الهائل الذي كان لها بمثابة جلباب. لقد كان لهذه الطريقة في السُّفور، التي تمّت في ما يشبه الرقص، مَلْمَحٌ شبقيٌّ. أحسستُ بذلك فوراً عند ملاحظتي لحركةِ الوَركَيْن الحاذقة، الموزونة بالكاد. كانت لا تزالُ شابّةً، بل جميلة جداً. عينان كبيرتان في شكل بُنْدُقَتَيْن، بشرة سمراء وكامدة، ساقان مشيقتان وثمة سيماء من المكر على ابتسامتها. ماذا تُراها جاءت تفعل في هذه السّاحة المُخصَّصَة للرّجال ولبعض المتسوّلات العجائز ؟ كنا جميعاً نتساءل، عندما وَضَعَتْ في جهاز ترانزيستور شريطَ كاسيت سُجِّلتْ عليه موسيقى بَربريّة، وخطَتْ بِضْع خطواتٍ راقِصة، ثُمّ أخرجتْ ميكروفوناً بالبطاريات وقالت لنا :

ـ أنا من الجنوب قادمة، من الغسق قادمة، من الجبل انحدرت، مشيتُ راجِلَةً، نِمْتُ في الآبار، عبرتُ الليالي والرّمال، قادمة من مَوْسِمٍ خارج الزّمن، مُدَوَّنة في كتاب، وأنا هذا الكتاب الذي لم يُفْتَحْ أبداً، ولم يُقْرَأْ أبداً، كتَبه الأجداد، فالمجد لهم، همُ الأجداد الذين أرسلوني لأقول لكم، لأُنَبّهكم، لأقول لكم وأُعيد، لا تقتربوا مِنّي أكثر مما ينبغي. دعوا النّسيم يقرأ الأحرف الأولى للكتاب. أنتم لا تسمعون شيئاً. اصتوا واصغوا إليّ : كان فيما مضى شَعْبٌ من البَدْو، له القوافِل والشعراء، شعب صلبٌ وشهْمٌ يتغذّى على لبن النّاقة والتّمور؛ يقوده الضّلال ويبتكر آلهته... وخوفاً من الفضيحة والعار، كان بعض أفراده يتخلّصُونَ من بناتهم؛ فكانوا يزوّجونهن في الطّفولة أو يَئِدونهن. لقد أُعِدَّ لهؤلاء جحيمٌ أبدي. وبهم شَهَّر الإسلام في قوله تعالى : **وممّن حوْلكم من الأعرابِ مُنفِقُونَ ومِنْ أهل المدِينةِ مَرَدُوا عَلَى النّفَاقِ لا تعلمُهُمْ نحنُ نعلمُهُمْ سنعذّبُهُم مرّتيْن ثم يُردُّونَ إلى عذابٍ عظيم.**

إن أنَا كنتُ أتكلّم اليوم بالآيات والحِكَم، فلأنّني طالما سمعتُ أقوالاً لم تكن نابعةً من القلب، أقوالاً لم يتَضَمَّنْها كتابٌ بل كانت آتيةً من ظلمات الضلال...

ظهرت على الحشد حركات خفيفة من الاندهاش وعدم الفهم. كان البعض يدمدمون، وآخرون يهزّون الأكتاف. وارتفع صوتٌ قائلاً :

ـ لقد جئنا لنسمع الموسيقى ونراك ترقصين... لسنا هنا في المسجد...

تَدَخَّلَ شابٌ جذّاب قائلاً :

ـ أنا سعيد بالإنصاتِ إليك ياسيدتي. لا تحفلي بردود الفعل هذه؛ فهي صادرة عن أبناء عم البَدْو !

وقال شابٌ آخر :

ـ الحكاية حكاية، وليست موعظة ! ثُمَّ منذ متى كانت النّساء اللائي لم يتقدّم بهن العُمُر بَعْدُ تتجرأن على السُّفور على هذا النَّحْو ؟ أليس لكِ أبٌ أو أخٌ أو زَوْجٌ لكي يمنعك من الإزْعاج ؟

وبما أنّها كانت تتوقّع هذا النوع من التّعليقات، توجَّهَتْ للمتدخّلِ الأخير بلهجةٍ متملّقة وساخرة :

ـ تُرى هل تكون أنت هو هذا الأخ الذي لم يكن لي، أو الزّوج الذي دَمَّرَتْهُ العاطفة إلى حدّ نسيان جسده المرتعش بين سيقان لَحِيمَةٍ ومُشْعَّرة ؟ هل تكون ذلك الرّجل الذي يُراكِمُ الصُّوَر المُحرَّمة ليُخْرِجَها في الوحدة الباردة ويدعكها بخشونة تحت جسده ؟ آه ! قد تكون الأبَ المفقودَ، المُخْتَطَفَ بالحمّى والعار، بهذا الشعور باللعنة الذي نفَاكَ في رِمال الجنوب ؟

انْحنتْ ضاحكةً، وأخذت طرفاً من حَايِكِها، شَدَّتْهُ إلى خصرها ثُمَّ طلبت من الشاب أن يُمْسِكَ بالطّرف الآخر. وأخذتْ تدور ببطء وهي تكاد تحرك قَدَمَيْهَا حتّى التفَّتْ بأكملها :

ـ شكراً ! الله يهديك ! عيناك جميلتان؛ إحلق هذا الشّارب؛ فالرّجولة في مكان آخر، ليست في الجسد، رُبَّما في النَّفس ! وداعاً... لدي كُتُبٌ أُخرى ينبغي فتحها...

نظرتْ إليَّ منذهلةً ثم قالت لي :

ـ من أيْنَ جِئْتِ، أنتِ الّتي لا تقولين شيئاً ؟

ثم مَضَتْ واختفتْ من غير أن تنتظر مِنّي جواباً.

ودِدْتُ لو حكيتُ لها قصّة حياتي. كانت ستجعل منها كتاباً تتجوّل به من قرية لقرية. إنني أتخيلها جيّداً وهي تفتح أبواب قصتي واحداً تلو الآخَر محتفظةً لنفسها بالسّر الأخير.

كنتُ قد غفوت في الشمس، فأيقظتْني ريحٌ باردةٌ محمّلة بالغبار. تساءلتُ إن أنا كنتُ حلمتُ بتلك المرأة الشّابّة أم أنني رأيتها حقّاً وسمعتُها. كنتُ محاطة بجمهورٍ متنوّعٍ ومُنْتَبِهٍ من المستمعين. لقد اعتقد النّاسُ بأنّني كنت ألعب، أتظاهر بالنّوم، أو بأنّني كنتُ أُفكّر، منصرفةً إلى البحث عن نُتَفِ قِصّةٍ مّا، وقد صَعُبَ عليّ أنْ أنهض وأُغادر السّاحة. عندما فتحتُ عينيّ صمتوا وأصاخوا السّمع. فصمّمْتُ على أن أقول لهم بِضْع كلماتٍ حتّى لا تكون خيبتهم كاملة.

ـ أيها الأصدقاء! لقد طال اللّيل خلف جفوني. ونَظّفَ مؤخراً رأْسي الذي هَدّهُ الكثير من الإرهاق. أسفار، طرقات، سماوات بلا نجوم، أنهار فائضة، ركام من الرّمْل، لقاءاتٌ بلا جدوى، منازل باردة، وجوه رطبة، مسيرة طويلة... إنّني هنا منذ البارحة، مدفوعةً بالرّيح، واعيةً بوصولي إلى الباب الأخير، الباب الذي لم يفتحه أحد، الباب المُخَصّص للأرواح السّاقطة، الباب الذي لا يُسَمّى، لأنّهُ يُفْضِي إلى الصّمت، في تلك الدار التي تسقط فيها الكلمات كملاطٍ بين الأحجار. تخيّلوا مسكناً كلّ حجرٍ فيه بمثابة يومٍ سعيدٍ أو مشؤوم، وبين الأحجار تجمّد البِلّور، وكلّ حبّة رمل هي فكرةٌ ولربما حتى علامة موسيقية. إنّ الرّوح التي تدخل هذه الدّار عاريةٌ. فلا يمكنها أن تكذب أو تتنكّر. تسكنها الحقيقة. وكلّ كلامٍ خاطئٍ، عَمْداً أو سَهْواً، هو سِنٌّ تسقط. لا زلتُ أحتفظ بكلّ أسناني لأنّني في عتبة هذه الدّار. وإذا تكلّمتُ معكم فسأكون حذِرةً. سأكون بالدّاخل. وسترونَني. سأظهر مثلما أنا هي أمامكم : جسداً ملفوفاً في هذه الجلاّبة التي تحميني. قد لا ترون الدّار. على أيّة حال ليس في البداية. لكنكم سَتُقْبَلُون بها تدريجياً بقدر ما تفتح مغاليق السّر، حتّى العري المحجوب. أيها الأصدقاء، إنني مَدِينة لكم بهذه القِصّة. فقد وصلتُ في اللحظة التي سقط فيها الرّاوي المكلّف بحكايتها في إحدى الفتحات، ضحيةَ عمائه الخاص. لقد ترك نفسه يعلق بالخيوط التي نسجتها العنكبوت النّائمة. فتح أبواباً في أسوارٍ وتركها. واختفى وسط النّهر، تاركاً حياتي مُعَلّقةً. فأسلمْتُ جسدي لماء النّهر. وعديدة هي التيارات التي جرفتْني. لقد قاومتُ. وصارعتُ. ومن حين لآخر كان الماءُ يُلْقِي بي إلى إحدى الضّفاف ثم يستردّني عند أوّل فيضان. لم يكن لديّ الوقت لكي أُفكّر أو أتصرّف. وفي الأخير استسلمتُ. كان جسدي

يتطهَّرُ ويتغيَّرُ. إنني اليوم أتكلّم معكم من زمنٍ بعيدٍ. لكنّني أتذكّر كلَّ شيء بدقّةٍ مُدْهِشَة. وإذا كنت لا أزال أستعمل بعض الصُّوَر فلأنّنا لا نتعارفُ بَعْدُ. سترون، إن الكلمات تسقط بِداري مثل قطراتٍ من الحامض. أعرف هذا بعض الشيء : لأن جِلْدي شاهِدٌ على ذلك. لكنّنا لَسْنَا هنا بَعْدُ. ستنفتح بعض الأبواب، ولربّما بدون ترتيب، لكنّ ما سأطلبه منكم هو أن تتبعوني ولا تفقدوا صبركُمْ. إنّ الزَّمَنَ هو ما نَحْنُ عليه. حاضِرٌ على وجهنا، في أشكال صمتنا، وفي انتظارنا. لنكُنْ مستحقّين لزمن الصَّبْر والأيّام التي لا يحدث فيها شيء.

2

ليلـةُ القَـدْر

كان ذلك خلال تلك الليلة المقدّسة، ليلة السّابع والعشرين من شهر رمضان، ليلة نزول القرآن، الليلة التي تُكْتَبُ فيها أقدار الكائنات، حين استدعاني أبي، المحتضر وقتذاك، إلى جوار سريره وحَرّرني. لقد أعتقني مثلما كان يتم إعتاق العبيد في السّابق. كنا وحيدَيْن، وكان الباب مغلقاً بالمزلاج. كان يتكلّم معي بصوتٍ خفيض. فقد كان الموت حاضِراً، وكان يطوف في تلك الغرفة التي يكاد ضوء شمعةٍ ينيرها. وبقدر ما كان اللّيل يتقدّم، كان الموتُ يقترب، مُنْضِباً تدريجياً ماءَ وجهه. كما لو أنّ يداً كانت تمرّ على جبينه وتغسله من آثار الحياة. كان مغموراً بالسكينة فاستمر يحادثني حتّى مطلع الفجر. كنّا نسمع المآذن المنادية للصلاة وتلاوة القرآن. كانت اللّيلةُ موقوفةً على الأطفال. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم ملائكة أو طيور الجنة بلا حدود.. كانوا يلعبون في الأزقّةِ، وكانت صيحاتهم تختلط بصيحات المؤذّن الذي كان يستعمل ميكروفوناً لكي يسمعه اللّه على نحوٍ أفضل. ابتسم أبي كما لو كان يقول بأن ذلك المؤذّن لم يكن سوى رجل بئيس يتلو القرآن دون أن يفهم منه شيئاً.

كنتُ جالسةً على مِخدّةٍ أسْفل السّرير. وكان رأسي بجانب رأس أبي. وقد أنْصَتُّ إليه دون أن أقاطعه.

كان تَنَفُّسُه يُلامِس وجنتي. ولم تكن رائحتُه الكريهةُ تُضايقني. كان يتكلّم ببطءٍ :

- هل تعلمين بأنه لاينبغي في هذه اللّيلة أن يموت أيُّ طفل أو أن يتألّم. لأنّ هذه الليلة **خَيْرٌ من ألف شهر**. إنهم هنا لاستقبال الملائكة الذين أنزلهم الله **تَنَزّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذن ربِّهِم من كلّ أمر**. ليلة البراءة، لكن الأطفال لم يعودوا قطعاً أبرياء.

بل إنّهم أكثر من ذلك رهيبون. وإذا كانت الليلة ليلَتهم، فستكون أيضاً ليلَتنا، ليلَتنا نحن الإثْنَيْن. ستكون الأولى والأخيرة. إنّ الليلة السّابعة والعشرين من هذا الشهر مناسبة للحساب وربما للغفران. لكن بما أنّ الملائكة سيحضرون معنا لإحلال النّظام سأكون حذِراً. أريد إعادة الأمور إلى نصابها قبل أن يتدخّلوا فيها. إنّهم يعتقدون بأنهم صارمون تحت مظهر رقّتهم الطّاهرة. إحلال النظام هو بَدْءُ الإقرار بالمعصية، هذا الوهم الفظ الذي جلب اللّعنة على العائلة بأسرها. ناوليني قليلاً من الماء، فقد جفّ حَلْقي. أخبريني، كم عمرك ؟ لم أعد أعرف الحساب...

- عشرون سنة تقريباً...

- عشرون سنة من الكذب، والأدهى من ذلك أنني أنا الذي كنتُ أكذب، أمّا أنتِ فلا دَخل لك في الأمر، لا دَخْل لكِ أو تقريباً. وأخيراً فإنّ النّسيان لم يَعُدْ حتّى عاطِفَةً، فقد صار مَرَضاً. سامحيني، لكنني أوَدّ أن أقول لكِ ما لم أتجرّأ أبداً على الاعتراف به لأيٍّ كان، حتّى لأُمّك البئيسة، آه ! خصوصاً أُمّك، هذه المرأة الجدّية، التي لا فرح لها، وذات الخضوع المبالغ فيه، أي ضجر ! كانت دائماً مستعدّة لتنفيذ الأوامر، ولم تتمرّد أبَداً، أو ربّما كانت تتمرّد في العُزْلة والصمت. لقد تلقّتْ تربيتها من تقاليد ضرورة خدمة الزوجة لزوجها. وكنتُ أجِدُ هذا عادياً، طبيعياً. ربما كان تمرّدها يكمن في انتقامٍ غير مُعْلَنَ : كانت تحبل سنة تلو أخرى وتلد لي بنتاً إثر بنت؛ كانت تُغْرِقني بهذه الذريات التي لم أرغب فيها أبداً؛ وكنتُ أتحمّل؛ وأتخلّى عن الصلاة وكلّ ما يأتي منها. وعندما كان يحدث لي أن أذهب إلى المسجد، كنتُ عوضاً عن أداء إحدى الصلوات الخمس أعكف على إعداد خططٍ جدّ معقدة للخروج من ذلك الوضع الذي لم يكن يُسْعِد أحداً. أعترف اليوم بأنّه كانت لدي رغبات في القتل. وكان واقع حَمْلي لأفكار شريرة في مكانٍ مقدّس، مكان الفضيلة والسلام، يثيرني. كنتُ أستعرض كلّ إمكانيات جريمة كاملة. آه ! كنتُ شريراً لكن ضعيفاً. إلا أنّ الشر لا يطيق الضعف. الشر يستمد قُوّته من العزم الذي لا ينظر إلى الوراء، الذي لا يتردّد. غير أنّني كنتُ أرتاب. وفي الفترة التي انتشر فيها وباء التّيفود في البلاد حاولتُ تسهيل غزوه للدّار. فلم أكن أعطي لأُمّك وأخواتك التلقيحات والأدوية الأخرى التي كانت تُوَزَّعُ علينا. أمّا أنا فكنتُ أبتلعها؛ إذ كان عليّ أن أظلّ حيّاً لأدفِنهُنَّ وأغيّر حياتي. أيّ جبن، أي بؤس ! لقد أُبْعَدَتِ الصدفةُ والقدرُ

المرضَ عن الدّار. كان التّيفود يختار جيراننا القريبين من بيتنا ويتلافى دارنا مواصلاً عمله المُميت. آه يا ابنتي، أنا خَجِلٌ مما أقوله لكِ. لكن الحقيقة في هذه اللّيلة المقدّسة، تتجلّى فينا بموافقتنا وبدون عِلْمنا. وعليكِ أن تُنْصِتي إليّ حتّى لو كان هذا يؤلمك. لقد حلّ بالعائلة نوعٌ من اللعنة. كان إخوتي يكيدون ما وَسِعَهُم الكيْد. فقد كانوا يكنّون لي كراهيةً شبه مُقَنَّعة. كانت أقوالهم وصيغ مجاملتهم تُخْنِقُني. لم أعد أتحمّل نفاقهم. في العُمْق، عندما كنتُ أنزوي في المسجد، كان ذهني يفرز نفس الأفكار مثلهم. ومن المُرَجَّح أنني لو كنتُ مكانهم لكانت لي نفس الأفكار، نفس الرّغبات، ونفس أشكال الحَسَد. لكنهم لم يكونوا يحسدونني إلا على ثروتي، لا على بَناتي. صُبّي لي قليلاً من الشّاي، فالليلة ستكون طويلة. أسْدِلي السّتائر؛ قد ينخفض صوت هذا الغبي الذي ينهق. يجب أن يُعاش الدِّين في صَمْت وتأمل، وليس في هذه الجلبة التي تُكَدِّرُ صَفْوَ ملائكة القدر. هل تُقَدِّرين جسامة العمل الذي عليهم إنجازه في بضع ساعات ؟ التّنظيف ! إحلال النّظام ! إنهم على أية حال فعّالُون. أُحِسُّ بِأنَّهُمْ حاضِرون في هذه الحجرة. وأنا أساعدهم على التّنظيف. أوَدُّ أن أرحل نظيفاً، مغسولاً من كُلِّ هذا العار الذي حملتُهُ بداخلي طِوال شطر كبير من حياتي. عندما كنتُ شابّاً، كنتُ طَمُوحاً لأن أسافر، أكتشف العالم، أصير موسيقياً، وأن يكون لي إبْنٌ، أكون أنا أباه وصديقه، وأقصر نفسي عليه،فأعطيَه كلّ الحظوظ ليُحقق ما قُدِّرَ لَهُ... كنتُ قد اغتذيتُ بأمَلٍ مجنون،إلى حدّ الهوس. وما كان بإمكاني مشاطرة هذا الأمَل مع أحد. فلم تكن لدى أُمّكِ أيّة رغبة. كانت باهتة. باهتةً دائماً، وذابلة. تُرى هل كانت في يوم من الأيام سعيدة ؟ لا أزالُ أتساءلُ. ولم أكن أنا الرّجلَ القادر على منحها السّعادة، وعلى جعلها تضحك. كلاّ، كنتُ أنا نفسي باهتاً؛ كنتُ مُطَوّقاً بنوع من اللعنة. وقد قررتُ أن أقوم بردّ فِعْلٍ. مجيء إبْنٍ وحده كان بمقدوره منحيَ الفَرْحَةَ والحياة. وقد عملتُ فكرةُ إنجاب هذا الطِّفْل، ولو أنّها مُخالِفَةٌ للمشيئة الإلهية، على تغيير حياتي. لقد ظَلَلْتُ نفس الشخص إزاء أُمّكِ وأخواتك : ظَلَلْتُ لا مُبالياً ولا أرضخُ بسهولة. لكنّني كنتُ في وَضْعٍ أحسن مع نفسي. لم أعُدْ أذهب إلى المسجد لإعدادِ خُطَطِ للتّدْمير. كنتُ أُعِدُّ خُططاً أخرى، لكي أُؤَمِّنَ لك السَّرّاء، لكي أحلم بالتّفكير فيك. كنتُ أتخيلكِ كبيراً وجميلاً. لقد انْوَجَدْتِ بادئ الأمر في ذهني، وبعد ذلك، بمجيئك إلى العالم، غادرتِ بطن أُمّك دون أن تغادري ذهني. وقد مكثتِ به طيلة حياتك، حتّى الآونة الأخيرة. نعم كنتُ أتخَيلكِ كبيراً وجميلاً. لستِ كبيرةً ولا يزال جمالُكِ مُلْغِزاً... كم السّاعة الآن ؟

على كلّ شيء ويرى كلّ شيء، وأنتِ تقومين بكلّ حركةٍ بهلوانية لتتملّصي من حضوره. كنتِ تخشَيْنَه أو كنتِ تتصنّعين ذلك، لم أعد أعرف...

عند هذا التّشكك أغمضَ عينيه. كان وجهه المُنْحني قبالة وجهي. وكان نائماً. كنتُ أراقبُ أنفاسه. تنفّسه الضّعيف يكاد يحرّك بطّانية الصّوف الأبيض السّميك. كنتُ متربّصَةً، أنتظر الرّمق الأخير، النَّفَس الأخير الذي يُخْرِج الرّوح. وقد فكّرتُ في أنه ينبغي فَتْح النافذة قليلاً لتمكينها مِنَ المرور. وفي اللحظة التي كنتُ أتأهّب فيها للنّهوض، تعلّقَ بذراعيّ. لقد كان ضوء الشمعة يخبُو. وكان الصّبح يقتربُ وئيداً من السّماء. لقد أفَلَتِ النجوم بدون ريب. كنتُ أفكّر وَقْتَها في ما كان يحكيه لي. أيّ غُفرانٍ كان بإمكاني منحه إيّاه ؟ غفران القلب، أم العقل أم اللا مبالاة ؟ كان القلبُ قد غدا قاسياً جِدّاً؛ والنّزر اليسير من الإنسانية الذي كان متبقياً فيه كنتُ أحتفظ به كاحتياطيٍّ؛ والعقل كان يمنعني قَبْلاً من مغادرة سرير هذا الرّجل المتفاوض مع الموت؛ أمّا اللا مبالاة فهي لا تعطي شيئاً وتُعْطي كلّ شيء، ثمّ إنني لم أكن في هذه الحالة من إهمال الذّات. كنتُ مضطرّةً لسماع الأقوال الأخيرة لهذا الرّجل وحراسة نومه. أخشى أن أغفو وأستيقظ يداً في يدٍ مع الموت. في الخارج، كانت التراتيل القرآنية قد توقّفت. وكان الأطفال قد عادوا إلى منازلهم. كانت الصلوات قد انتهت. وليلة القَدْر تتهيّأ لإعادة مفاتيح المدينة للنّهار. كان الضوء المعتدل والنافذ ببطء يغمر الرّوابي، والشرفات، والمقابر. وقد دوّى المدفعُ المُعْلِنُ عن شروق الشّمس وبداية الصّيام. استيقظ أبي مذعوراً. ولم يعد على وجهه الخوف، بل الهلعُ. كانت ساعته قد حانت كما يُقال. لقد شهدتُ للمرّةِ الأولى فِعْل الموت. لم يكن يُغْفِل شيئاً، مارّاً وعائِداً فوق الجسد المُمَدّد. كُلّ كائنٍ يحاول المُقَاوَمة. كان أبي يستعطف بالنّظر؛ يطلب ساعةً أخرى، بضع دقائق أُخَر؛ وكان لا يزال لديه ما يقوله لي :

ـ لقد غفوتُ ورأيتُ صورة أخي؛ كان وجهه نصف مُصْفَرّ ونصف مُخْضَرّ؛ وكان يضحك، أعتقد أنّه كان يستهزئ بي؛ وزوجته واقفةً وراءه وتدفعه؛ وكان يُهَدّدني. كان بودّي أن أتلافى هذه الليلة محادثتك عن هذين الوحشَيْن، لكن يتوجّبُ تحذيركِ من ضراوتهما وشراستهما. إنّ دمهما يتغذّى على الحقد والخُبْث. إنّهما مخيفان. بخيلان وعديما المروءة،

منافقان، محتالان وعديما الكرامة. يقضيان حياتهما في جمع المال وإخفائه. وجميع الوسائل صالحة؛ لا يتراجعان أمام شيء. كان والدي يشعر بالخزي لهذا الإبن؛ وكان يقول لي : «لكن من أين وَرِثَ هذه النَّقيصة ؟». إنه عار العائلة. يُقَدِّم نفسه باعتباره فقيراً، وينتظر انفضاض السُّوق حتّى يشتري الخُضَر بأبخس الأثمان. يُساوم كلَّ شيء، يشتكي، ويبكي عندما يلزم الأمر. يقول للجميع بأنّني سبب شقائه، وأنّني أفقرته. لقد سمعتُه مرّة يقول لأحد الجيران : «لقد سرق أخي الأكبر حصّتي من الميراث؛ إنّه جشع وعديم الشّفقة؛ وحتّى إذا مات، لن يكون من حقّي أن أرِثَه. لقد أنجب مؤخّراً طِفْلاً. إنّني أفوّض أمري إلى الله، هو وحده الذي سينصِفُني هنا أو هناك !». هل تعلمين بأنّه كان يحدث لهما، في مناسباتٍ نادرة جِداً، أن يدعوانا للغذاء. كانت الزّوجة تطبخ بالكاد اللحمَ الذي كانَتْ تُغْرِقُه في ركامٍ من الخُضَر. وكان اللَّحْمُ من النتوء بحيث كان يَفْضَل بأكمله في الطّبق. وفي اليوم التّالي، كانَتْ تطبخه طَبْعاً لنفسيهما. لا أحد كان مُغَفَّلاً ! لا هي ولا هو كانا يسْتحِييَان. احذري، ابتعدي عنهما، إنّهما شرّيران...

بعد أن صمت هنيهة، عاد يتكلّمُ بسرعة. لم أكن أفهم كُلَّ شيء. كان يودّ الإفضاء بالأساسي، لكنّ بصره كان يزوغ، كان ينصرف إلى الجهة الأخرى، ثم يعود لينحطّ عليّ، وكانت يده لا تزال تشدّ على يدي :

ـ أطْلُبُ أن تغفري لي... وبعد ذلك، يمكن لبارئ روحي أن يأخذها حيث يشاء، إلى جنانه المُزْهِرة، وأنهاره الهادئة، أو أن يُلقي بها في فوهة بركان. لكن قبل ذلك، امنحيني نِعْمة النّسيان. هذا هو الغفران. أنتِ الآن حرّة. امضي لحال سبيلك، غادري هذه الدّار اللعينة، سافِري، عيشي !... عيشي ! ولا تَلْتَفِتي لرؤية النّكْبة التي سأُخَلِّفها. انْسَيْ وعيشي ما وَسِعَك العيش... انْسَيْ هذه المدينة. في هذه الليلة عَلِمْتُ بأن قدرك سيكون أفضل من قدر جميع نساء هذه البلاد. إنني صاح، ولا أختلق شيئاً. أرى وجهكِ مُكَلَّلاً بهالةِ نورٍ خارق. لقد وُلِدْتِ في هذه الليلة، السّابعة والعشرين... أنتِ امرأة... دعي جَمالك يقودُك. لم يعد هناك ما يبعث على الخشية. ليلة القَدْر تُسَمّيك زهرة، زهرة الزُّهور، نِعْمة، طفلة خلود، وأنتِ الزّمن المتوقّف في مُنْحَدر الصّمت... في ذروة النّار... بين الأشجار... في وجه السّماء الذي ينزل... يَنْحَني ويأْخُذُني... أنتِ التي أرى، يدك التي تمتدّ، آه ! يا ابنتي، إنّك تأخذينني معك...

لكن إلى أين تمضين بي ؟ إنّني مُرْهَقٌ جداً حتى ليصعب عليّ أن أرافقك... أُحِبُّ يدك التي تقتربُ من عينيّ... إنه الظلام، والبَرْد... أين أنتِ، وجهكِ... لم أَعُدْ أُبْصِر... إنّك تجْذِبِينَنِي... هل هو الثّلج، هذا الحقل الأبيض ؟ لم يعد أبيض... لم أَعُدْ أبصرُ شيئاً... وجهك ينقبضُ، أنتِ غاضبة... أنت مستعْجِلة... أهذا هو غفرانك ؟... يا زهـ...رة...

تسرَّبَ شعاع من الشّمْس إلى الغرفة. كان كلُّ شيء قد انتهى. سحبتُ يدي من يده بصعوبة. بسطتُ الغطاء على وجهه، وأطْفَأْتُ آخر الشّمعة.

3

يَـوْمٌ رَائِـعٌ جِـدّاً

أيها الأصدقاء، منـذ تلـك الليلـة التي كـانت ليلـة الاستثنـائيّ، اصطبغتِ الأيـامُ بـألوان جديدة، والتقطت الجدران أناشيدَ جديدة، ونَدَّتْ عن الحجارة أصداءُ كانت مكتومـةً منـذ أمـدٍ طويل، وغمر الشرفاتِ ضوءٌ ساطع جداً وأخلدت المقـابر للصمت. المقـابر أو الموتى. الموتى أو مُرتِّلو الآيـات القرآنيـة المحفوظـة بشكلٍ سيّء، المُرَتِّلـةِ بشكـلٍ سيّء، أو المُرَتِّلـة بيقين جسـدٍ جائعٍ يتمايلُ لكي يُوهِمَ بأنَّ الرّسالةَ في الطريق القويم. كلُّ شيء أخلد للهـدوء، أو بـالأحرى تغيُّر كل شيء.

كلّ شيء أخلد للهدوء، أو بالأحرى تغيَّرَ كلّ شيء. لقد كـان من الصّعب عليّ ألاّ أُطـابِقَ بين هذا الشيخ الذي غادر الحياة أخيراً وهذه الإنـارة التي تكـاد تتجـاوز الطّبيعي وقـد غمرت الكائنات والأشياء.

كيف لا يمكن الاعتقاد بأنّ ليلةَ القَـدْر ليلـةٌ رهيبـةٌ بـالنّسبـة للبعض، ومُحَرِّرَةٌ بـالنّسبـة للآخرين. إنّ الأحيـاء والموتى يلتقون في هـذه المحطّـة حيث يُغَطّي ضجيجُ هـؤلاء صلـوات أولئـك. أيهـا الأصـدقـاء ! مَنْ بِمُسْتطـاعِـهِ أن يميّـز في هـذه اللّيلـة الأشبـاحَ من المـلائكـة، القادِمين من الرّاحلين، وَرَثَةَ الزّمن من مُحْدَثِي نعمة الفضيلة ؟

مجهولة. في هذه الليلة كانت الإشاعة تقول بأنّ الجنّةَ مرصودةٌ للمُهَيَّئينَ للسَّفَر، وفي كلّ الأحوال للّذين يرضون بِمَنْحِ ما تبقّى من عمرهم من أيام أو أسابيع، بتقديمها قرباناً لهذه الليلة التي تغيبُ فيها النجوم، وتنفتح السّماء، وتدور الأرض أسرع قليلاً من المعتاد. إنّ الّذين كانوا يجيئون ويتمدّدون فوق العربات لم يكونوا يملكون سوى قليلٍ من الزّمن، بين يوم وسبعة أيام. وكان الآخرون يتمسّكون بالمال والوهم.

من النافذة الصغيرة، كنتُ أراقِب الموكبَ. لقد كان ينبغي مغادرة المدينة قبل شروق الشّمس. صباح ذلك اليوم السّابع والعشرين من الصيام كان يُشْبِه الصّباحات الأُخرى. فلم يكن ينبغي أن يَظْهَرَ أيُّ أثَرٍ للتّنْظيف الليلي. كنتُ أنظر إلى أبي، بجســـده الخفيف، المُفْرَغ من كُلّ قوت، وقد عاد للمادّة الخام؛ وكنتُ أقول لنفسي بأنّهُ بقليلٍ من الحظّ يمكن لروحه أن تكون في واحدةٍ من العربات الأخيرة. جلست على حافة السّرير متعبةً ولكن مرتاحةً، ثم انخرطتُ في البكاء، ليس عن أسى ولكن عن إرهـاق. كنتُ مُحَرَّرَةً ولم يكن للأمور أن تَتِمّ كما كنت آمُل.

بعد أن عُدْتُ امرأةً، أو على الأقلّ بعد أن اعترف بي الوالد كامرأة، كان لا يزال يتوجّبُ عليّ أن ألعب اللُّعْبة، ريثما تتم تسوية شؤون التركة والميراث. كانت الدّار خَرِبَةً. كما لو أنّ الجدران تعرضت لتشقُّقات جديدة في تلك الليلة. وبَغْتَةً ـ آه ! في بضع ساعات ـ تغيَّر كلّ شيء. أخذتْ أخواتي تتظاهرن بالنّواح. ومثّلتْ أمّي، المتدثّرة بالأبيض، دور الحزينة. وكان أعمامي مُنْهَمِكِين في تحضير الجنازة. وأنا، حبيسة الغرفة، كنتُ أنتظرُ.

كان يوماً مُشْمِساً من أيّام الرّبيع. الربيعُ عندنا غَيْرُ مكترث. فهو يُهيج الجهنميات،* ويُعمِّق ألوان الحقول، ويُضيف قليلاً من الزُّرْقَة إلى السَّماء، يُثْقِلُ الشَّجَر بالثمار، ويُشيح بوجهه عن النِّساء المُغْتَمَّات. وأنا كنتُ بالأحرى مُغْتَمَّة. لكنّي قرّرتُ في تلك السَّنة أن أطرد عن ذهني كلَّ ما كان يُعَذِّبني ويَسْكُبُ الحبر الأَسْوَد في أفكاري. كنتُ نادِراً ما أضحك ولم أكن أمزح أبداً.

* جنبات معترشة للتزيين من فصيلة الشّبّيات (م).

أيها الأصدقاء ! يمكنني أن أعترف لكمُ اليوم بهذا : لقد كان الأمْرُ قاسياً ! أن أكون مَرِحةً كان معناهُ تغييرَ الوجْهِ، تغييرَ الجَسَد، تعلُّمَ حركاتٍ جديدة والمشيَ برشاقة. لقد رسَّخَتِ الحرارةُ الغير العادية لذلك اليومِ قناعتي في أن الرّبيع لم يكن في الدّار؛ بل كان حولها. كانت تصِلُ إليّ من الدُّورِ والحدائق المجاورة روائح وعطور. وفي دارنا، كانت للحزن رائحة حرّيفة وخانقة. لقد كان البخور الذي كان يحرقه أعمامي من النوع الرّديء. ولم يكن العُود القَماريُّ في الواقع سوى نوعٍ من خشب ممزوج بعطور مشؤومة. لقد قام المُغَسّلون، المُسْتعجِلون كالعادة، بِغَسْل الميت بسرعة، ثم تجادلوا بعد ذلك مع عمّي الذي ساوَمَهمُ في أجرهم البئيس. وكان من المُخْجل والسُّخيف في نفس الوقت سماع تراتيل قرآنية تتخلّلها المساومات بين المُغسّلين الثلاثة وعمّي. كنتُ أضحك لأنّ الأمر صار هَزْلياً :

- تُغسِّلون الميت وتنظّفون جيوبَنا !

- هناك أمر مؤكّد : يوم تموت، لن يأتي أحدٌ منّا لغسلك، ستذهبُ بقذَارتِكَ، وحتّى إذا كُنْتَ ستدخل الجنّة فستُطْرَدُ في الباب لأنك ستكون نَتِناً ! هذا هو عقاب البخلاء... ثم إنّ الله لا يشملهم بعفوه.

امتقع عَمّي، وغمغم بدُعَاءٍ ثم أدّى للرجال الثلاثة الأجرَ الذي كانوا يطالبون به. كنتُ أراقبه من النافذة وأنا مبتهجة. لقد جذبتْ إحدى الأيدي عمّي إلى إحْدَى الزّوايا. كانت اليد اليابسة لزوجته، البارعة في البُخْل، والحقد، والدّسائس. إمرأة مُخيفة. سأكلّمكم عنها في يومٍ آخر، لأنّها تستحقُّ، هي الأخرى، أن نَبُثَّ في مصيرها. لقد توعّدَتْ زوجها لأنّه رضَخَ للمُغَسّلين.

خلال يوم أو يومين، كان لا يزال يتوجّبُ علي أن أُمَثّلَ الإبن المحجوب. مرتديةً الأبيض، نزلتُ لأتَرأس المأتم. كنتُ أضع نظّارة سوداء، وأغطّي رأسي بغطاء جلاّبتي. لم أنبس ببنت شَفَة. كان النّاسُ ينحنون عليَّ لكي يُحيّوني ويقدّموا لي تعازيهم. وكانوا يُقَبّلون كتفي خِلْسَةً. كنتُ أُرْهِبُ الجميع، وكان ذلك يُلائمني. وفي الجامع الكبير، عُيِّنْتُ طبعاً لأؤمَّ صلاة الجنازة. قمتُ بذلك بغبطةٍ داخلية، ومُتْعةٍ قريبةٍ من التستُّر. كانت إحدى النساء تأخذ تدريجياً بثأرها من مجتمعٍ رجاليٍّ بلا حزمٍ يُذْكَر. على أيّة حال، كان ذلك صحيحاً بالنسبة

لرجال عائلتي. وعندما كنتُ ساجدةً، لم أتمكّن من مَنْع نفسي من التفكير في الرّغبة الحيوانية التي كان جسدي - البارز بذلك الوضع - سيثيرها لدى أولئك الرّجال لو علِمُوا بأنّهم يُصَلّون خلف امرأة. لن أتكلّم هنا عن الّذين يجسّون أعضاءهم بمجرّد رؤيتهم لعَجُزٍ مُقَدَّمٍ على هذا النّحو، سواء كان عَجُز امرأة أو عَجُزَ رجلٍ. أستسمحكم على هذه الملاحظة، فهي تطابق الواقع، ويا للأسف !

تمّت شعائر الجنازة بسلام. كلّ شيء مرّ بشكلٍ جيّد. إنّ أروع صورة أحتفظ بها من ذلك اليوم هي الوصول إلى المقبرة. شَمْسٌ ساطعةٌ أحلَّتْ ربيعاً أبَدياً في ذلك المكان الذي كانت القبور فيه مغطّاةً بالعشب البرّي ذي الخضرة اليانعة، والخشخاش المبهور بذلك الضوء، والغرنوقيات التي نثرتْها يَدٌ مجهولة. كانت المقبرة عبارة عن حديقةٍ تُؤَمِّنُ فيها السّلامَ للأرواح بضعُ أشجار الزيتونْ المُعَمِّرة، بحضورها الثابت والمتواضع. كان أحد مرتّلي القرآن قد غفَا فوق أحد القبور. وبعض الأطْفال يلعبون فوق الأشجار. كان ثمة عاشقان مختفيان خلف شاهدةٍ عالية جداً لكي يتمكّنا من تقبيل بعضهما دون أن يراهما أحد. وكان هناك طالب شاب يقرأ هَامْلِت وهو يمشي ويقوم بحركاتٍ عديدة. ثمّ ترجّلت إحدى النساء، بثياب العُرْس، من على حصانٍ أبيض. وعَبَرَ المقبرةَ فارِسٌ على فَرَسِه يرتدي غندورةً زرقاء من الجنوب. كان يبدو عليه أنّه يبحث عن شخْصٍ ما.

عند وصوله إلى ذلك المكان، تفرّقَ الموكب. كان بعضهم يَقُون أعينهم بأذرعهم، لِعَدَمِ مقدرتهم على تحمُّل ضوءٍ بتلك الكثافة. لقد نُسِيَ الميتُ. وأخذ اللّحادون يبحثون عن القبر الذي كانوا قد أعدّوه. وما لبث أن شرع بعض أطفال الأزِقّة الّذين تَبِعوا الموكب في الرّقص، ثم كما يتمّ في مَشْهَدٍ لِلْبَاليه، اقتربوا من الجَدَثِ، ورفعوه، وأخذوا يدورون حول أنفسهم مُدَنْدِنين لحْناً إفريقياً، ثمّ بإيماءات وحركات بطيئة وضعوه داخل أحد القبور التي تمّ حفرها في الصباح. مرتاعين، هَرْوَلَ اللّحّادُون وطردوا الأطفال مهدّدينهم بالرّفوش والمعاول. قَدِمَت العَرُوسُ نحوي ووضعتْ على كتِفَيّ بُرْنُسَها الفاخر المُوَشّى بخيوط الذّهب. وقد هَمَسَتْ في أذني : «إنه ينتظركِ على فَرَسٍ بيضاء مُرَقّطة بالرّمادي... إذْهَبي، الْتحقي به، لا تسأليني لماذا، إذهبي وكُوني سعيدة...». ثم اختفَتْ. هل كانت خَيَالاً، صورةً، قِطعةَ حُلمٍ، ردحاً من الزمن مُنْفلتاً من الليلة السّابعة والعشرين، أم صوتاً ؟ كنتُ لا أزال مفتونَةً عندما أحاطتْ

ذراعٌ قويـةٌ بخِصْري ورفعتْني. لقـد حملني الفـارس الـوَسِيمُ على فرسـه ولم ينبِس أحـدٌ ببِنْت شفة. تعرَّضتُ للاختطافِ كما في الحكايـات القـديمـة. وقـد عَبَر المقبرةَ راكضـاً. تمكّنْتُ من إلقاء نظرةٍ خاطِفَةٍ على جَدَث أبي الذي كان اللّحـادون يخرجونـه من القَبْر لكي يـدفنوه وفْقَ أحكام الشريعـة الإسلاميـة. ولمحتُ أيضـاً أعمـامي، وقـد أصـابهم الهلع، يَخْرُجون القهقري من المقبرة.

كان يوما رائعاً جِدّاً.

4

الـرَّوضُ العَـاطِـر

ـ يا شمساً على قَمَر، يا قمرَ الأقمـار، يـا نجمـةً مليئـةً باللّيـالي والضّيـاء، هـذا البُرْنُس المُوَشّى بخيوط الذهب هو سكَنُكِ، سقفُ دارِكِ، الصّوفُ التي تنسج أحلامـكِ، الغطـاءُ السميـك لليالي الشّتاء الطويلة حينما أغيب... لكنّني لن أتخلّى عنـكِ أبداً، لقـد انتظرتُ طـويلاً جـداً بحيث ما عاد في إمكاني تركُكِ ولو لَيْلةً واحدة...

دامت الرّحلة طيلـة اليـوم. كـان يكلّمني بين الفينـة والأخرى، مُردّداً نفس الكلمـات، منـادياً إيـاي تـارةً بـ «أميرة الجنـوب»، وتـارة أخرى بـ «قمر الأقمـار»، وثـالثةً بـ «أوّل ضيـاء الصُّبح». ملفوفَةً في البُرْنُس، كُنْتُ خلفه، وكانت ذراعاي تطوّقـان خـاصرتـه. كـانت اهتزازاتُ الفرس تجعل ذراعيّ المتشابكتين تُداعبان بطنه الصُّلب بحركـةٍ نـازلَـةٍ من الأعلى إلى الأسفل. كان ينتابُني إحساسٌ غريبٌ استسلمتُ له، ممتنعةً عن مُسـاءَلـة نفسي مثلمـا يتواصلُ حلمٌ في الغَفْوَة الصغيرة. كـانت أوّل مرّةٍ أركبُ فيهـا حصـاناً. هكـذا أخـذتُ أُراكِمُ الانفعـالات بحُرّيـةٍ داخليةٍ تُدْفِئُ مجموع جسدي. لقد كانت المغامرة تتمثل بَدْءاً في هـذا الشعور بـالغرابـة الـذي تتولّـدُ عنـه المُتْعـة. كـان رأسي مُستَنِـداً على ظهره، وقـد أغمضتُ عينيّ وأخـذتُ أهمس بلحنٍ طُفُوليٍّ. في اللّيلة الماضية فقط كنتُ أساعِدُ رُوحَ محتضرٍ على الارتقـاء إلى السّمـاء، وهـا قـد كنتُ في ذلك اليوم أضمُّ بين ذراعيّ شخصاً مجهولاً، رُبّما أميراً مبعوثاً من طرف ملائكـة تلـك الليلة السّابعة والعشرين، أميراً أوْ طاغيةً، مُغَامِراً، قاطِعَ طرقٍ حجرية، لكنّه رَجُلٌ، جسـدُ رجلٍ لمحتُ عيْنيه بالكاد لأنّه كان مُلَثّماً... أحد أولئك الرّجال الصحراويين المُسَمَّوْن بالزُّرْق !

ما كاد يَتِمّ إعتاق الأمَة حتّى اختُطِفَتْ لكي تَلِجَ رُبَّما سِجْناً جديداً، قَصْراً عريضَ الأسوار، شاهِقاً، محروساً من طرف رجالٍ مُسَلَّحين، قَصْراً لا أبواب له ولا نوافذ، وإنَّما بلاطة أو اثنتان تتحرّكان لتسمَحا بمرور الفارس وغنيمَته...

كنتُ غافيةً. أحلم. أنْتَشي. وكان هناك هواء عليلٌ يُداعبُ وَجْنَتي. إنسابَتْ على وجهي دمعةُ فَرَحٍ بسبب نداوة الجوّ. كانت السماء زرقاء، حمراء، وخُبّازية. وكانت الشمس على وشكِ المغيب. في ذلك اليوم من الصّيام لم أشعر بجوع ولا بعطش. توقّف فارِسي هنيهةً ثُمّ قال لي، كما لو كنتُ مُطَّلِعَةً على عاداته :

- سنتوقّف قليلاً عند الأوْلادِ. ويمكن أن نُفْطِرَ معهم إذا حالَفنا الحظ.

- أيُّ أولادٍ ؟

لم يُجِبْني.

كانت القرية تَقَعُ بوادٍ صغير يتم دخولُه بِسَلْكِ طريق شبه سِرّي. كانت هناك حواجز موضوعة يحرسها بعض الأطفال. لقد كان في كلّ مَرّةٍ يتوجّبُ النّطق بكلمة السّر التي كانت مُكَوّنَةً من بيتين هما جزء من قصيدة كان فارِسي يحفظها عن ظهر قلب :

ولَمّـــــا أنْ تجهَّمَني مُرَادي ... جَريتُ مـع الـزّمــان كمــا أرَادَا
وهَـــوَّنتُ الخطـــوبَ عليَّ حتَّى ... كـــأنّي صرتُ أمنحُهـــا الـوِدَادَا

لم أتعرف للوهلة الأولى على شِعْر أبي العلاء المعرّي. كنت قد قرأتُ في فترة مراهقتي رسالة الغفران، لكنني لم أتذكّر تلك الأبيات. خلال السَّهْرة، قَدِمَ أحد الأطفال نحو فارِسي وقال له :

- إذن، أيها الشّيخ، كيف وجدتَ الجحيم، ماذا قَالَ لَكَ الموْتَى وماذا فعل بِكَ المُعَذّبون ؟

- بعد العشاء، سأروي لكم سَفَري.

في تلك القرية، لم يكن هناك سوى الأطفال. كُنّا الرّاشدَيْن الوحيدَيْن. كانت الدُّور المبنيّة بالطّين الأحمر في غاية البساطة. وكان يقطنها حوالي مائة طفل، ذكوراً وإناثاً. كانت حدائق السُّطوح رائعة التّنميق والصّيانة. كانوا يعيشون هناك في اكتفاءٍ ذاتي، بعيداً عن

المدينة، بعيداً عن الطُّرُق، وبعيداً عن اللهِ نفسه. تنظيمٌ تام، بلا تراتُبية، بلا شُرطةٍ ولا جيش. لم تكن هناك قوانين مكتوبة. كانت عبارةً عن جمهوريةٍ صغيرةٍ حقيقية يحلمها أطفالٌ ويعيشونها. كنتُ مندهشةً. وكان فارسي يحس بتلهُّفي على المعرفة والفهم. فاختلَيْنا، وأماط لِثامه فرأيتُ وجهه لأوّل مرّة. وبينما كان يكلّمني، كنتُ أتفحّصُ ملامحه : عينان كبيرتان بُنّيتان، حاجبان كثيفان مُتَناسقان، فم دقيق، شارب غزير، بشرة كامدة، شديدة السّمرة. كان يتكلّم برقّةٍ، دون أن ينظر إليّ مُباشرة :

ـ لديّ سبعة أسرار. ولكي أستحقّ صداقتَك وأنال مغفرتكِ عن اختطافي إياك بفظاظة، سأبوح لكِ بها واحداً تِلْوَ الآخر. سيستغرق هذا بعض الوقت، وقت تعارُفنا، وإفساح الطريق للصّداقة لتأخذ بمجَامع قلبَيْنَا . إنّ سِرّي الأوّل هو هذه القرية. فلا أحد يعرفها. ولا يعيش فيها إلاّ من تجرّع قلبُه الألمَ ولم يعد يُغَذّيه أي وهم حول الجنس البشري. على العموم، لا نُفَسِّر جذورَ السّرّ، لكنّني مَدِينٌ لكِ بحدٍّ أدنى من التوضيح حتّى أُهَدِّئ قلقَكِ.

ـ لكنّني غَيْرُ قلقة.

كان ذلك صحيحاً. ليس فحسب لم تَعْتَرِني أيّة خشية، بل وَقَر في نفسي شعورٌ عميقٌ بتوافُقٍ بين صورةٍ وانعكاسها، بين جَسَدٍ وظِلِّه، بين حُلمٍ كان يُعَمِّر ليالي عزلتي وقِصّةٍ كنت أعيشها بفضولٍ فرحان. كنتُ مثل طفلةٍ تسافر للمرّة الأولى. على أيّة حال، كانت تلك الليلة الأولى بداية مغامرةٍ مُدْهِشة. كان على فارسي الذي كان الجميع ينادونه بالشَّيْخ أن يُقَدِّم تقريراً عن مُهِمّته. لقد كان يعود إلى القرية بعد غيابٍ طويل.

اقترب مِنّي طِفْل أصهب، لا يتجاوز عمره عشر سنوات، وله عينان مستديرتان، وقال لي :

ـ مرحباً ! أنا مندوبٌ في الصّداقة وإذا اقتضى الأمر في الحب.

ـ ما هي وظيفتك ؟ سألتُه.

ـ لكي تفهمي جَيّداً مُجْريات الأمور في هذه القرية، عليك البدء بنسيان المكان الذي قَدِمْتِ منه، وطريقة عيشك هناك، في الجهة الأخرى للوادي. إننا نعيش هنا تحت نظام المبادئ والمشاعر. وأوّل مبدأ هو النسيان. فأن تكوني قد عِشْتِ مائة عام أو مائة يوم، فإن عليك بدخولكِ إلى هنا، أن تكوني قد محوتِ كلَّ شيءٍ من ذاكرتك. وإذا لم تتمكّني من ذلك، لدينا أعشابٌ لِمُساعدتك.

ـ لكنْ، ماذا تفعل هنا ؟

ـ أزرع الأعشاب التي تساعد مشاعرَ الكمال والانسجام. إنّ ما هو مُشْتَركٌ بيننا هنا هو مجيئُنا جميعاً من مُعاناةٍ، من ظُلْمٍ؛ ونحن محظوظون بإيقاف الزّمَن وترميم الأضرار. هذه القرية في الواقع، سفينة. إنها تمخر عُباب مياه مصطخبة. لم يعد لدينا أيّ رباطٍ يَشُدُّنا إلى الماضي، إلى الأرض الثّابتة. القرية جزيرة. ومن حين لآخر نبعث الشيخ في مُهِمَّةٍ استطلاعية. وهو يعود على العموم مصحوباً بأطفال مهجورين أو آبِقين. إنّها المرّةُ الأولى التي يؤوب لنا فيها بأميرة. فمرحباً بك !

قبّلَ الأصهب يدي واختفى. ثمّ قَدِمَتْ نحوى صبية سمراء مُجَعَّدة الشَّعر، من نفس السِّن. لقد كنتُ أعجوبةً. ظلّت تنظر إليّ بُرْهةً دون أن تنبس ببنت شفة؛ ودارت حولي ومرّتْ بيدها على بُرْنُسِي. ثُمّ اقتربت منّي كما لو كنّا نتعارف منذ أَمَدٍ طويلٍ، وهمستْ في أُذْني :

ـ لاتُسْلمي نفسكِ للشّيخ؛ إنّه وسيمٌ جداً وفاتِن. سترَيْن، مع الزّمن والتجربة، ستعرفين حدودَكِ مع الرّجال. هنا، لا يُعْتَبَرُ المُشْكِلُ قائماً. إننا أطفال وكذلك نبقى. هذا بسيط وملائم...

عندما لمحتِ الشيخَ فرّت وهي تقول :

ـ أنا أيضاً أخذتُ أنادي فارسي بـ«الشيخ». مع أنّه لم يكن مُسِنّاً، ولم يكن له لحية بيضاء، بل كانت هيأتُه بالأحرى هيأةَ رياضيٌّ نشيط.

أُحْضَرَ العشاء. حساء خاثر، وتمر وتين مُجَفَّف. بعد بُرْهةِ صمتٍ، سألني عما قاله لي الأصهب ثمّ الصّبية.

ـ لا شيء، أو بالأحرى أشياء غريبة ومتهافتة.

كنتُ من العياء بحيث نِمْتُ في مكاني، ملفوفةً في البُرْنُس. كانت ليلة عمَّرتْها أحلامٌ تداخل بعضُها في بعض. كان كلّ شيء يختلط في ذهني. وعند استيقاظي في الصّباح، كنتُ عاجزةً عن التّمييز بين الأحلام والرُّؤى. فالخُضرة، والزّهور، والأشجار، والطيور، والجداول، كلّ ذلك المحيط كان يثير خيالي، ويشوّش حواسّي وإدراكي. على أيّ حال، كنتُ قد قَرَّرْتُ العدول عن تمييز الواقعيّ من الخياليّ، وخاصّةً عن معرفتي، بالملموس، لمكان وجودي وما أفعلُه وبصحبةِ مَنْ أعيش تلك اللّحظات. من نافذتي أبصرتُ الشّيخَ يحمل خشباً، بينما كان الأطفال يحرثون الأرض، وينظّفون القرية أو يُحضّرون العشاء. كان لكل واحدٍ عملٌ يقوم به.

خرجْتُ لأزورَ القَرْيَةَ بالنّهار. كان بعضهم يبتسم لي، وآخرون يتوقّفون ويُحيّونني بتَضَرُّع. كنتُ أتعلّمُ المَشْيَ بشكلٍ طبيعي، من غير توتر أو اكثرات بالنظرات. وكم كانت دهشتي عظيمةً : فقد أحسستُ أني أسترجع رشاقةً فِطْرية ! كان جسدي يتحرَّرُ من نفسه. كانت هناك حِبالٌ وخيوطٌ تنحلّ تدريجياً. كنتُ أُحِسُّ من خلال جسدي بتخلّص عضلاتي من صلابتها. كان التّحوُّل يطرأ وأنا ماشية. لم يعد هناك ما يُطوِّقُ صدري. صرتُ أتنفّسُ أعمق من السّابق. مرَّرت يدي على نَهْدَيَّ الصغيرين. كان ذلك يُمتِعني. كنتُ أُمَسِّدُهما على أمل أن يكبُرَا، أن يخرُجَا من ثُقبهما، أن يبرُزَا بأنَفَةٍ ويُثِيرَا المارَّة. لقد تذكَّرْتُ الزَّمَنَ الغابر عندما كانت للاّ زينب، وهي امرأةٌ ضخمة كانت تعيش مع الجيران، تأتي من حينٍ لآخر لمساعدة أمّي. كانت تأخذني بين ذراعيها، وتُسْنِد رأسي بين ثدييها العارمين وتَضُمُّني إليها، عن فرحٍ أو عن رغبة. كانت محرومةً من الأطفال وكان زوجها قد هجرها إلى زوجتين أُخرَيَيْنِ منحتاه منهم الكثير. وإذن فقد كانت تضمّني إليها، تحملني فوق ظهرها، تربّت على وجنتيّ، وتضغطني بين فخذيها المنفرجين. كنتُ شُغْلَها، لُعبتَها. كانت تعرق ولم تكن تنتبه إلى أنها كانت تثير تقززي. لم أكن أتفوّه بكلمة. ففي العمق، كان ذلك اللّعب ينقُلُني من الرّفاهية القصوى والعناية الشديدة اللتَيْن كنتُ مُحاطَةً بهما في العائلة. وذات يومٍ، عاد أبي على غير عادته ورآني أتهزّز بين فَخِذَيْ للاّ زينب السمينَيْن. فاندفع، وانتزعني وصفع المرأة البئيسة. نعم، كان لها ثديان هائلان. كانا يفيضان من كل جانب. وقد أخَذْتُ أحلم بذلك الاكتناز، بذلك الخير الإلهي، بتلك الكميّات من اللّحم والشّحم.

كنتُ ألمسُ نَهْدَيَّ. كانا يَبْرُزان ببطء. فَتحْتُ قميصي لكي أهَبَهُما لهواء الصُّبْح. هواء عليل كان يداعبهما. كان جِلْدي مُقْشَعِرّاً فأخَذَتِ الحلمتان تنتصبان. كان الهواء يعبر جسدي من الأعْلى إلى الأسْفَل. وأخذ قميصي ينتفخ. حللتُ شعري. لم يكن طويلاً جداً ولكنّ الهواء كان له نافعاً. كنت أمشي بدون وِجْهَة. ثمّ اكتسحتني رغبةٌ مجنونة، فخلعتُ سروالي ثم لباسي الدّاخلي لكي أُرْضِيَ الهواء، لكي أُرْضِيَ نفسي وأحسّ باليَدِ الرقيقة الباردة لذلك النسيم الصّباحي تمرُّ على بطني وتوقظ حواسي. كنتُ في دغلٍ. وكانت الطبيعةُ ساكنةً. كنتُ أخطو الخطوات الأولى لامرأةٍ حُرَّة. كانت الحرّية بِمثْلِ بساطة المَشْيِ صباحاً والتّخلُّص من الأربطة دون مُساءلة النّفس. كانت الحرّية هي تلك العُزْلَة الفرحانة التي كان جسدي يمنح فيها نفسه للهواء ثم للضوء ثُمَّ للشّمس. نزعتُ خُفَّيّ. كانت قدماي اللّينتان تنحطّان على الحصى المُسَنَّن،

نبُوح لأي غريب بأسرارنا السّبعة. كلّ سِرٍّ يفشيه هو بمثابة قطعة من جلدنا تندثر. نفقد ألوان وَجْهنَا، ثُمَّ الأسنان، ثم الشّعر، ثُمَّ الدّم، ثُمَّ العقل، ثُمَّ الرُّوح وأخيراً نفقد الحياة. اعلمي بأنّه لا دَخْل لكِ في هذا. بل إنّكِ طيّبة. لكنَّ شيئاً ما فيكِ يستثير التّدمير. لا أعرف ما هو، وإنّما أحِسُّ به. شُؤم ما يسكنكِ، بدون علمكِ. إنَّهُ يسري ويتغذّى على هزيمة الآخرين. وكما لاحظتِ ذلك، فنحن قبيلةٌ خارج الزّمن. هذا مَكْمَنُ قُوّتِنا وضعفنا. والشيخ هو الوحيد الذي عليه أن يبقى غاطِساً في الزّمن. إنّه يكبر، يصطرع ويشيخ. لهذا يُغادِرنا أحياناً. وعلى العموم، يعود ببذورٍ للزّرْع. وهذه المرّة كنتِ أنتِ مجلوبتَه إلى القرية. إنّنا هنا في مَنْجىً من الأحياء. هذا كلّ ما يمكنني قولُه لك. خاصّية السّرّ هي أن يَظَلَّ مدفوناً. ونحنُ هُمُ السّرّ، لذا نحن نعيش تحت الأرض. هذه القرية لا اسْمَ لها. إنّها غير موجودة. هي بداخل كلّ واحدٍ منّا. وعند انصرافكِ مِنْ هنا، قولي لنفسكِ بأنّكِ نَاجية.

5

مَـرَايَـا الزَّمـن

كيف يسير الناجون ؟ مطأطئي الرأس، متفحّصين الأرض بأعينهم، شابكين أيديهم خلف الظهر، سالكين طريقاً بمحض الصّدفة إلى أن تلوح في البعيـد دارٌ مضـاءةٌ بنورٍ خـافت ؟ أنـا سِرْتُ دون التفات. كنتُ أَنْشُدُ النّسيان وأرغب في الاعتقـاد بـأنّ مـا حـدث لي أخيراً لم يكن سوى هلوسَةٍ أُخرى، حلم متقطّع يختلط فيه كلّ شيء : دفن الأب وفرار الأمَـة المعتوقـة. سِرْتُ بمحاذاة أحد الطُّرُق دون أن أُكلّمَ أحداً. فَضْلاً على أنّه لم يضايقني الأطفال ولا الرّجال الـذين التقيتُ بهم. ومع ذلـك كـان مظهري غريبـاً، بمـلابسي الرّثـة، ووجهي المنقبض ودمـوعي المنهمرة. عندما خَيَّم الليل، قرفصتُ تحت شجرة وبكيتُ في صمت، بلا نـدمٍ أو أسى. لا أعتقـد أنّني بكيتُ لموت أبي يوم دفْنِه.

بغتَةً رنَّتْ في ذِهْني جُمْلَةٌ، جملةً واحدةً قـالتهـا أُمّي، التي لم تكن تقول شيئـاً. عنـدمـا سمعتها، أتذكَّرُ أن جسدي اقشعرّ. لقد اعترتْ مجموعَ جِلْدِي قشعريرةٌ سريعةٌ ومُبَلْبِلَة.

كـان ذلـك في فترة صعبـة، أحسُّ فيهـا أبي بِدُنُوِّ أَجَلِه، الـذي قـد يكـون الإحسـاس بالإثم والمعصية قد عجّل به. كان قد غَدَا ساخِطاً، سريع الانفعال، نافذ الصّبر، عديم الابتهـاج. كانت تغلي بـداخلـه الكراهيـةُ، كراهيـةٌ عنيفـة وعميـاء. كـان يكره الجميع دون ريب، بـدءاً بنفسـه. لكنـه كـان يُـوَقِّرني بغرابـة. بـل أعتقـد حتّى أنّـه كـان يحبّني. كـان يُبْقِيني خـارج الفظاظة التي صارت طريقته في الحديث. من نافذة غرفتي، كنتُ أُتابع أحيـانـاً مشـاهـدَ من الشِّجـار الـذي كـان ينشب بينـه وبين الفِرق النّسـويـة للـدار. كـان وحـده يصرخ، ويتـوعّـد، ويضحـكُ من تفـوّقـه الخـاص. وحينمـا صـار مهـووسـاً، لم يعـد يحتمـل أدنى تقصير في أداء

الفرائض. كان على كلّ واحدةٍ من البنات أن تؤدّي دوراً : فإحداهن تخلع جلاّبتـه، والأُخرى تغسل له رِجْليه، والثالثة تنشّفهما، بينما تكون إثنتان أُخْرَيان تُعِدّان الشّاي. وكانت أُمّي مكلّفة بالمطبخ. والويل لِلّتي كانت ترتكب أقلّ هفوة ! كان يَنْشُرُ الرُّعب، ولم يكن مسروراً أبداً.

عند إصابته بنزلة رَبْوية، كان يرفض تناول الأدوية. وحينما كان تنفّسه يضيق ويشرع في الاهتزاز من جرّاء الألَم في الصّدْر، كان يتّهم العائلة كلّها بِسَرِقَةِ نصيبه من الأوكسجين. لم تكن قصباته هي المريضة. بل كان حضور كلّ تلك النِّسْوَة العديمات الجدوى هو الّذي يَسُدُّ قصباته ويُعَجِّل باختناقه.

رافِضاً المرضَ والموتَ، كان يُقَاوِمُ بطاقةٍ خارقة. كان بحاجةٍ إلى ممارسة ذلك العنف الظّالم على أهله. فقد اكتشف غريزياً أنّ الكراهية تِرياق ضِدّ الضّعف. كانت تحفَظُ له مهمّته كسيّدٍ مسيطرٍ وتُثَبِّطُ تَقَدُّمَ المرض. وكان يحدث له أن يتكلّم بمفرده، مُعْتَبِراً بأنّه ليس هناك مُحاوِر مقبول في الدّار. أنا كنتُ مستثناةً. كان يودُّ لو يُفْضي لي بسريرته ويحادثني بمشاكله؛ لكنّني لم أكن أبداً أُعطيه فرصةً لذلك. كان تصرّفه يؤلمني. كنتُ أتفهّمه لكن لم يكن بمُكْنَتي تأييده أو مناقشته. وخلال الأشهر الأخيرة من حياته، كنتُ غارقة في أزمةٍ انتقالية. كنتُ أتخبّط في عنفي الخاص، مع نيتي الرّاسخة في الخروج من ذلك. الخروج بطريقة أو بأُخرى. لكن كما يقول المَثَل : «دخول الحمّام لا يشبه الخروج منه !». لقد كان عليّ من حيث المبدأ الخروج من تلك القصّة نظيفةً من الشّبهات التي كنتُ أغذّيها بكل وضوح حول نفسي. الخروج بدون قِناع، في عُرْيٍ مُحْتَشِمٍ، بجسَدٍ خاص، بدون لَفٍّ أو دوران.

إنّ أُمّي، وهي المرأة التي اختارت الصّمت والخضوع، عن تقديرٍ للعواقب أكثر من مسايرة القَدَر، قالتْ لي ذات يومٍ وكانت قد تلقّت كلماتٍ قاسية جداً من أبي جَرَحَتْها في الصّميم : «أيْ بُنَيَّتي ! صَلّي معي لكي يكتُبَ اللّهُ أو القَدَر أن أموت في حياتك وأن يمنحني شهراً أو شَهْرَيْن من الحياة بعد موت أبيك ! أودّ أن أتمكّن من التّنفّس لبضعة أيام، لبضعة أسابيع في غيابه غياباً مطلقاً. إنّها رغبتي الوحيدة، ومُرادي الوحيد. لا أُريد أن أرحل في حياته، لأنّني سأرحل مجروحةً بشكلٍ مُزْدَوج، مُخَرَّبَةً على نَحْوٍ مُرْعِب، مُهانَةً. لقد قرّرتُ العَيْش في صمت الصَّوْت، مخنوقَةً بيديّ نفسهما. لكن لِيُمْنَحْ لي زَمَنٌ، ولو وجيزٌ، لأصرخ نِهائياً، لأطلق صرخة، صرخة واحدة، صرخة تصعد من أعماق النّفس، من البعيد، أبعد من

ولادتك، صرخة هي هنا، لابدّة في صدري. إنها تنتظر، وسأعيش لكي لا أموت بهذه الصّرْخة الّتي تتأكّلني وتفتك بي. صَلّي من أجلي، أنتِ يا ابنتي الّتي تَخْبرين الحياة بوجْهَيْهَا، وتعرفين القراءة في الكُتُب وفي صدور الأولياء...».

كنتُ قد نسيتُ حتّى رنّة صوتها. أمّي، امرأة أهملها والدي، بسبب قِصّتي. كانت تقول لي «يا ابنتي» كما لو أنه لم يحدث شيء طيلة عشرين عاماً. لا يمكنني القول بأنّني كُنتُ أحِبُّها. فعندما لم تكن تستثير شفقتي ـ هذا الشّعور بالخجل المُحْزِن أو الغضب الصّامت تأكيداً ـ كانت لا تدخُل في الحُسبان، أيْ عديمة الوجود. كنتُ لا أراها وكنتُ أنسى بأنها أمّي. كان يحدث لي أن أخلط بينها وبين مليكة، الخادمة العجوز، أو شبح متسوّلة مجنونة كانت تأتي من حين لآخر تلتجئ إلينا، في مجاز البيت، عندما كان الأطفال يطاردونها رشْقاً بالحجارة أو شتماً. فعندما كنتُ أعود لَيْلاً، كنتُ أتخطّى جسداً ملتفّاً في أحد أغطية الجيش. ولم أكن أسعى لمعرفة ما إذا كانت هي المجنونة أو أُمّي المطرودة من بيتها. وحتّى إذا تأثّرتُ، لم أكن أُظْهِر ذلك. كنتُ أُغْمِضُ عينَيَّ. لكي لا أرى. لكي لا أسمع. وبالأخص لكي لا أُضطرّ إلى الكلام. فما كان يحدث بداخلي كان ينبغي أن يظلّ بداخلي. بدون شفافية. ذلك أنّه لم يكن هناك ما يقال أو يكون الكثير مما يمكن أن يُقال، أنْ يُكْشَف، وأنْ يُشَهَّر به. ولم تكن لدَيَّ الرّغبة في ذلك ولا الشّجاعة. وابتداءً من اللّحظة الّتي فَقَدْتُ فيها توازني فوق الحَبْل، كنتُ أُحِسُّ بأنّه يلزمُني وقتٌ طويلٌ لأنْسَلِخَ من عشرين عاماً من خيال الظِّل. ولاكتساب ولادةٍ جديدةٍ كان عليَّ انتظار موت الأب والأُمّ. لقد فكَّرْتُ في التّسبُّبِ فيه، في التّعجيل به. وكنتُ سأنْسُبُ هذا الإثْمَ للمسْخِ الذي كنته.

لقد تَرَدَّتْ أُمّي في الجنون. فحملتْها إحدى عمّاتها لتقضي بقية أيامها في حَرَم أحد الأولياء، في الجنوب. أعتقد بأنّها لكثرة ما تَصَنَّعت نوبات العُتْهِ التي كانت تمزّق فيها أغراض زوجها، انتهى بها الأمر إلى التّعوّد على ذلك وإلى عدم تبيُّنها هي نفسها لما كانت تقوم به.

لقد حَضَرْتُ ذهابَها من أعلى غرفتي. كانت محلولة الشّعر، ممزّقة الفستان، تنتحب، تجري مثل طفلةٍ في فِناء الدّار، تُقَبّل الأرض والجدران، تضحك، تبكي وتتوجّه إلى باب الخروج على أرْبَع مثل حيوانٍ غير مرغوبٍ فيه. كانت بناتها يبكين. ولم يكن أبي موجوداً.

في اللّيل، كـان يُنيخُ على الـدّار ثِقْل كبير، من جرّاء الصَّمْت والنـدامـات. كنّـا جميعاً غرباء. وقد غادرتِ البنـاتُ الـدَّارَ ليلجـأن ردحـاً من الزّمن عنـد بعض الخـالات. هكـذا ألفيتُ نفسي وحيدةً مع أبي في انكساره.

من حين لآخر، كـانت البنـاتُ يَعُـدْن لالتمــاس بعض أغراضهن ثم ينصرفن دون عيــادة المريض. وحدها مَليكة العجوز ظلَّت وفيّةً للدّار. وكانت تستقبل في الليل المتسوّلةَ المجنونة أو الفحّام الذي كان يروق له أن يثرثر معها. فقد كانا منحدرَيْن من نفس القرية.

قرّر أبي صيام رمضان رغم الألَم الذي كان يشعر به في الصَّدْر، وعنـد المغرب، كـان لا يأكل إلا قليلاً. لقد كان، برفضه تناول أقراصـه، يستسلم للموت في صمتٍ مُطْبِق. وفي النّهار، كنتُ أواصل الذّهاب إلى المَتْجَر. كنتُ أقوم بترتيب الأُمور. إنّ إخوتـه لم يـأتوا أبـداً لرؤيتـه. لقد حسبوا حسابهم. فبحُكْمِ وجودي، كانوا مقصيين من الإرث.

أعتقدُ بأنّ كُلَّ شَيْء كان مرتباً عشية الليلة السابعة والعشرين من رمضان.

كل شيء غداً جَلِياً بداخلي. لا يمكنني القول بأن ترتيباتي كـانت قَـدِ اتُّخِـذَتْ، لكنني كنت أعلم بـأنّـه بعـد موت الأب سـأهجر كلّ شيء وأمضي إلى جهـة أُخرى. سـأترك كـلَّ شيء للبنات، وسأُغادر تلك الدّار وتلك العائلة إلى الأَبَد. فباختفاء الأب، كـان على شيءٍ مَـا أيضاً أن ينتهي. كان سيحمل معه إلى قبره صورة المِسْخ الذي صَنَعه.

بعد الـدَّفْن، فقـدتُ جميع المعـالم. وخلال بضعـة أيـام لم أكن أعرف أين أنـا ولا مع من كنت. لقد حكيتُ لكم تلك المغامرة التي كانت لهـا كلّ مقوّمـات الرّوعـة ثم انتهت بـالخوف والتّيه.

عدتُ ذات ليلةٍ إلى الـدّار كمـا تعلمون. دخلْتُهـا عَبْر سطح الجيران. كـانت البنـاتُ قَـدْ عُدْن. وكُنّ مرتدياتٍ أفخر الملابس، ومتبرّجات بـإفراط، وقـد تَزَيَّنَّ بحِلِي أُمّهن. كنّ يضحكن ويلعبن مع نسـاء أُخريات جِئن من الحيّ. لقد كان الدَّفْنُ والحِدادُ بالنّسبـة لَهُنّ تحريراً وحفْلاً. وقد تفهّمتُ ردّ فعلهن إلى أبعد حدّ. إنهن فتيات مُحْبَطات، طال تهميشهن خارج الحيـاة، وكنّ يكتشفن الحرية. وعليه فقد هِجْنَ بما كنّ يـدَّخِرْنـه من هستيريـا. كـانت كلّ الأنوار مُضَـاءَة. وكانت تُوضَعُ بعض الأُسطوانـات في حـاكٍ عتيق. كـانت الحفلـةُ في ذروة نشـاطهـا. لم يكن ينقص سوى الرّجـال لإشبـاع شهوتهن. ابتسمتُ؛ ففي كلّ الأحـوال لم يعـد شيءٌ يعنيني، كنتُ

قد صرتُ غريبةً. فتحتُ باب غرفتي سِرّاً، وأخـذتُ بعض الأغراض كوّمتها في كيس، ثم قَفَلْتُ عائِدةً عبر السّطح.

توجّهتُ في تلك اللّيْلـةِ النَّيِّرة نحو المقبرة وأنـا مرتـديَـةً جلاَّبَـة، وواضِعـةً وشـاحـاً فوق رأسي - إذ كـان شَعْري طـويـلاً -. تخطّيتُ سـوراً قصيراً لكي لا يراني الحـارس ويمَّمْتُ شطر

كانت الليلةُ ساكنةً وجميلة. ليلة العيد. وكانت السّماء مرصَّعَةً بالنجوم بوجهٍ خاص. كـان التّراب الذي يغطّي القبر لا يزال نَدِيّـاً. فشرعَتْ يـداي تحفران بسرعـةٍ ونظـام. كـان يتوجَّبُ عليَّ عدم إزعاج الميّت وتلافي إثارة انتباه الحارس أو أحد منتهكي الحُرُمَات. وعنـدمـا لاحت لي قطعة من الكفن الأبيض، أخذتُ أُزِيح التّراب بأصـابعي بتمَهُّلٍ. كـان الجـدثُ بـارداً جـداً. كـان شعوراً يمتـزج فيـه الخـوف بنـوع من الخشيـة. تـوقّفْتُ بُرْهَـةً وركّـزْتُ بَصَري على رأس الميت. عند مستوى المنخرين، بدا لي أنّ الثوب الأبيض يتحرّك. هل كان لا يزال يتنفّس، أم أنَّ ما رأيته كان محض هلوسة ؟ عجَّلْتُ بإفراغ الكيس الذي كان يحتوي كُلَّ ما كُنْتُ أملكـه تقريباً، قميصاً رجولياً، سروالاً، نسخةً من عقد الازدياد، صورةً لحفلة الخِتان، بطـاقـة تعريفي، عقد الزّواج من فاطمة البئيسة، أدوية أبي التي كنتُ أُناولـه إيـاهـا بـالقوة، جوارب، أحـذيـة، حزمة مفاتيح، حِمالة، حقّة سعوط، حزمة رسائل، كتاباً للحسـابـات، خـاتمـاً، منـديلاً، سـاعـة مكسورة، لَمْبَة، شمعة محترقة إلى النّصف...

في اللّحظة التي كنت سأسـدّ فيهـا القبر، انحنيتُ لكي أُكَوِّمَ الأغراض جيّـداً فـأحسست بألمٍ في صدري. كان هناك شيء يضغـط على ضلوعي وقفصي الصـدري. كـانت أربطـة الثوب لا تـزال حـول صـدري لكي تمنـع النَّهْـدين من البروز والكِبَر. فـانتـزعتُ بحَنـقٍ ذلـك التّنكُّر الـدّاخلي المكَـوَّن من عـدّةِ أمتـارٍ من الثـوب الأبيض. بَسَطتـه ومرّرتـه حـول عنـق الميّت. ثُمَّ شدَدتُ بقوّةٍ وَعَقَدْتُ. كنت أتصبّب عرقاً. فقد كنتُ أتخلّصُ من حياةٍ بأكملها، من عَهْدِ خِـداع، من حقبة كذب. بيديّ ورجليّ كوّمْتُ الأغراض فوق الجدث الذي كنتُ عرضاً أكاد أدوسـه. ثم أهَلْتُ التراب. كـان حجمُ القبر قـد تغيّر. كـان ضخمـاً. وقـد وطّـدْتُ الرُّكـام ببعض الأحجـار الثقيلـة، واستغرقْتُ في التـأمل لحْظَـةً، لا للصـلاة أو التمـاس رحمـة اللـه لروح ذلـك الرَّجُـل

البئيس، ولكن لكي أشبع من الهواء الجديد الذي كنتُ أستنشقه. وقد قلتُ ما يشبه : «السلام عليكم !» أو : «وداعاً أيها المَجْدُ المُخْتَلَقُ، لنا الحياة، والرّوح عارية، بيضاءُ، بِكْرٌ، والجسد جديدٌ بالرّغْم من أنّ الكلامَ قديمٌ !».

6

خِنْجَرٌ يُدَاعِب الظَّهْر

اختفيتُ في تلك الليلة الظّلماء المُحتدمة. لم تكن خطواتي تترك أيّ أثر وهي تكبح العتمات. غادرتُ المدينة طائفةً حولها. لقد اخترتُ عبور المكان بسرعةٍ حتّى لا أزعج النّوم الهادئ للنّاس الطّيبين. فلم أكن واحدة منهم فحسب ولكنني كنتُ عُنصراً جَموحاً ومُشَوِّشاً.

كنتُ سعيدةً في تلك الليلة من ليالي شتنبر، حيث كانت تهبّ عليّ من الحدائق نفحاتٌ من الياسمين وشجر الورد البرّي الزّكي. كنتُ أستنشقُ تلك العطور بعمقٍ وأسير غير حافلةٍ بالطريق المنفتحة أمامي. فبعد أن صمّمتُ على المغامرة، كنتُ في سلامٍ مع نفسي. ولم ألتفت لأُلقِيَ نَظْرَةً أخيرة على هوية الميلاد. كنتُ قد دفنتُ كلّ شيء : الأب والأغراض في قبر واحد، الأُمّ في مزار وَلِيٍّ بباب الجحيم، والأخوات في دارٍ سَتَنْتَهِي بالسّقوط ودَفْنِهن إلى الأبد. أمّا الأعمام والخالات، فلم يوجَدوا أبداً بالنّسبة لي وابتداء من تلك الليلة لم أعُدْ بالنسبة لهم موجودة، فقد كنتُ أختفي ولن يعثروا عليّ أبداً.

كنتُ أسير بعيداً عن الطُّرُق. وحينما كان يهدّني التّعَب كنتُ أنام، مفضّلةً أن يكون ذلك تحت إحدى الأشجار. كنتُ أنام طبعاً دون خشيةٍ، أو قلقٍ. كان جسدي يتجمّعُ حول نفسه ويستسلمُ ببطء لِخَدَرٍ رقيق. نادراً ما كان النّوم بذلك العُمْق وبذلك الهناء. كنتُ مندهشةً جدّاً لتلك السهولة، لتلك السّعادة وتلك المُتْعة التي كانت للجسد وهو يثقل ويرتاح. أقول هذا لأنّني غالباً ما لاقيتُ مصاعب في النّوم. كان يحدث لي أن أقضي الشّطر الأعظم من الليل وأنا أتفاوض معه من أجل قِسْطٍ قليلٍ من الرّاحة. وتلك الرّاحة، لم أكن أعرفها إلاّ عند طلوع الفَجْر. كنتُ بلاَ مَرْفإٍ أرسو فيه. ولم يَعُدْ ذهني مزدحماً بالكثير من الأسئلة،

بالكثير من الأشياء التي يلزم فِعلها أو فَسْخُهَا. لم أكن مُحَرَّرَةً تماماً. كلاّ، لم أكن كذلك بَعْدُ. لكن مُجَرَّدَ كوني قد تخلّيت عن كلّ شيء ورحلتُ راسخةَ العزم على ألاّ أعود أبداً، مجرّد كوني قد قطعتُ مع الماضي وآثاره، كان يُحرّر ذهني من الخوف. كنتُ مُصَمّمةً على دفن ماضيَّ في غيبوبةٍ عميقة، على فَضِّهِ في فقدانٍ كلّي للذّاكرة. بدون حسرة، بدون ندامة، كنتُ أتطلّعُ إلى ولادةٍ جديدةٍ في شكلٍ بكرٍ ونظيف.

إنَّ نومي في الهواء الطّلق لم يَعُدْ مأْهولاً بالأحلام الخارقة ولا بالكوابيس. كان نوماً رائقاً، راكداً كسطح بحرٍ هادئ، أو كحيِّزٍ من الثَّلْج، مسطَّح ومسترسل. في البداية عزوتُ ذلك إلى العياء البدني. ولكن بعد ذلك فهمتُ بأنّه كان نوم اللّحظات الأُولى للحياة.

لقد كان يحدثُ لي، خاصّةً بالنّهار، أنْ أُلْفِيَ نفسي مغمورةً بفورةٍ من الحرارة والغمّ. لم يكن ذلك يستمرّ طويلاً. كان حَلْقِي ينقبض، فكنت أتوقّف، ثمّ كان كلّ شيء يعود تدريجياً إلى مكانه. دون ريبٍ كانت الانتفاضات الأخيرة لذلك الماضي الذي كان لا يزال بَعْدُ قريباً، على مَرْمَى البَصَر واليد. إنَّ ذلك الضّيق الذي كان يعتري الجسد كان مردّه إلى العزلة. فقد اخترتُ السَّيْر في سُبُلٍ قليلاً ما كان يطرقها أحد. كنتُ آكل أيّ شيء، وأشرب الكثير من الماء. ففي كلّ مرّةٍ كنت أمرّ على كثبٍ من أحد الأكواخ، أو إحدى الضيعات، أطلب الماء. وإذْ كنتُ أُعْتَبَرُ متسوّلة، كان يُقَدَّمُ لي أيضاً خبز وفواكه. وحينما كنتُ أُخْرِجُ النقود لأدفع، كان النّاس يرفضون أخذها. كنتُ أقرأ في نظراتهم نوعاً من الشّفقة القَلِقة. لم أكن أتمهّل معهم، كنتُ أنْصَرِفُ قبل أن يشرعوا في الأسئلة. كان بودّي أن أتكلّم لكنّني لم أكن أعرف ماذا أقول. على أية حال، لم يكن بمقدور أحدٍ أن يفهمني. ما الجدوى من خوض حوارٍ أو محادثةٍ حول الطّقس ؟ ومع ذلك، في ظهيرة أحد الأيّام، تبعني رَجُلٌ في مَخْرَج إحدى القرى الصغيرة. وقد قال لي بلهجةٍ هي بالأحرى ساخرة :

ـ يا أُخْتي، لكن إلى أين ذاهبة أُختي، بمفردها ؟

ابتسمتُ وواصلتُ سيري دون أن التفت.

ـ هل تنتبهين يا أُختي إلى أين تتوغّلين ؟ أُختي تتوغَّلُ في غابةٍ كثيفة حيث الخنازير البرّية تنتظر حلول الليل لتلتهم فريستها. فللخنازير البرّية مخالب مقدودة من البرونز... وأنياب مسنونة في النّحاس ومناخير تنفث النّار...

أحسستُ بما يشبه القشعريرة من أعلى رأسي إلى أخمص قَدَميّ. إنّ ذلك الرجل ذا الصّوت العذب لم يكن يخيفني. لقد سبق أن سمعتُ عن اغتصاباتٍ في الغابَة. ولم تكن لديّ الرّغبة في الفرار، ولا حتّى في المقاومة إذا تحول الرّجل إلى خنزير برّي. لم أكن لامُبالية. كنتُ فُضوليةً. فذلك الرّجل الذي لم أكن أعرف حتّى وجهه كان بكلمات وحدها يُوقِظُ فِيّ أحاسيس جسدية.

كنتُ أسير وأنا أحثُّ الخُطى. كانت تفصلنا أمتارٌ قليلة. وكنتُ أسمعه يتمتم ببضع كلماتٍ في ما يشبه الصّلاة. لم يعد يتكلّم عن الوحش مُمَزِّقاً جسد فتاةٍ شابّة، بل عن الله ونبيّه. وكان يردّد هذا التّعزيم :

- باسم الله الرحمان الرحيم. وصلّى الله وسلّم على آخر الأنبياء، سيدنا محمّد، وعلى آله وصحبه. باسم الله الأعلى. الحمد لله الّذي جَعَل المتعة العارمة للرّجل تكمن في الدّاخِلِ الدّافئ للمرأة. الحمد للّه الذي جَعَل في طريقي هذا الجسد البالغ الذي يتقدّمُ وِفْقَ ما تبتغي شهوتي. هذا دليلٌ على نعمته ووجُودِه، ورحمته. الحمد لله، الحمد لكِ يا أختي أنتِ التي تسبقينني لكي أشمّ عطرك، لكي أُخزِّر وركَيْكِ ونهدَيْكِ، لكي أحلم بعينيكِ وشَعْرك. آهِ يا أُختي واصلي السَّيْر حتّى الدّغل الذي سيكون سَكناً لجسدَيْنا المتعطّشَيْن. لا تلتفتي. أنا مُعَرَّضٌ للمضاجعة، معكِ يا أُختي، يا مجهولتي التي أرسلها القدر لكي تشهد بعظمة الله على الرجل والمرأة اللّذَيْن سيقترنان عند حلول اللّيل. أحمد الله. وأنا عبده. عَبْدُكِ أنا، فلا تَقفي. إن الشمس تغيب تدريجياً ومعها يسقط كبريائي مُهَشَّماً. باسم الله الرّحمان...

توقّفتُ. كنتُ كأنّني مشدودةٌ بقوّةٍ خَفِيّة. فلم يعد بمقدوري أن أتقدّم. نظرتُ يميناً وشمالاً فتبيّنْتُ بأنّني وصلتُ إلى الدّغل. كان الرّجُلُ لا يزال خلفي. أصَخْتُ السّمع. كان قد توقّف عن الذِّكر. ولم يعد ينبس ببنت شفة. كنتُ أتصبّبُ عَرَقاً، مُسَمَّرةً، ومُحاطَةً بجنباتٍ. انتظرتُ لحظةً. وكان الرجل ينتظر هو الآخر. لم يكن يقوم بأيّة حركة. ثم نظرتُ إلى السّماء. كانت قد اصطبغت بألوان الشمس الغائبة. وفجأةً أحسستُ بحرارةٍ شديدة. ودون أن أنتبه نزعتُ جلاّبتي. كنتُ أرتدي تحتها سروالاً واسعاً فقط. ثمّ حللتُ شَعْري. لم يكن طويلاً جداً. وبقيتُ واقفةً كأحد التّماثيل. لقد خَيَّمَ اللّيلُ في بضع دقائق. فأحسستُ بالرجل يقترب منّي. كان يرتجف ويُتَمْتِمُ ببعض الصلوات. وقد أمسكني من وَرِكَيَّ. كان لسانه يجوب قذالي، ثمّ كتِفَيَّ؛ وما لبث أن جثا على ركبتيه. بقيتُ واقفةً. ثمّ قَبَّلَ حَقويّ. كانت يداه لا

تزالان على وركيّ، وبأسنانه حَلَّ سروالي. كان وجهه المتصبّب عرقاً أو دموعاً ملتصقاً بِرِدْفَيّ. كان يهذي. وبحركةٍ مباغتةٍ طرحني أرضاً. أطلقت صرخةً قصيرةً. فوضع يده اليسرى على فمي. وبالأُخرى كان يُبْقِيني مُواجِهَةً للأرض، لم تكن لديّ قوة ولا رغبة في المقاومَة. لم أكن أُفكّر؛ كنتُ حُرَّةً تحت ثقل ذلك الجسد المحموم. للمرة الأُولى كان جَسَدٌ ما يشتبك بجسدي. لم أكن أحاول حتّى أن ألتفت لرؤية وجهه. كانت كلّ أعضائي تهتز. وكان الليل حالك السّواد. أحسستُ بسائل ساخن وخاثر ينساب على فَخِذَيّ. وقد أطلق الرّجل حشرجة حيوانية. لقد خُيِّلَ إليّ أنني سمعتُ ابتهالاً جديداً إلى الله والرّسول. كان جسده الثقيل يشدُّني ملتصقةً بالأرض. دسستُ يدي اليُمنى تحت بطني. وجسستُ السائل الذي كان ينساب مِنّي، فكان دَماً.

دون أن أُحاول التخلص من قبضة المجهول، جرفني الليل إلى نوم عميق. وقد أيقظني هواء الصُّبح البارد. كنتُ عاريةً. وكان الرَّجُل قد اختفى. لم أشعر بالاستياء ولا بالخيبة. أكانت تلك هي المضاجعةَ ؟ خنجر يداعب الظُّهر تحت جُنْح الظّلام ؟ عنفٌ جارحٌ يحتضنك من الخلف كدريئةٍ وَضَعَتْها الصدفة، مُؤكِّدٌ بالتعزيمات والصلوات ؟

كنتُ أطرح على نفسي كلَّ تلك الأسئلة ولم أكن أسعى حقّاً إلى التدقيق في أيّ شيء كان. بل لم أعد أعرف اليوم إن كان ذلك اللّقاء في الظُّهْر قد أمْتَعَني أو أقْرَفَني. فقد كنتُ قرأتُ كُتُباً تتحدّث عن الحب ولكن ليس عن الجنس. كان ذلك دون ريب عن حياءٍ أو عن نفاق. إنّ ذلك الاقتران بين جَسَدَيْن تَرَكَ في فمي طَعْمَ التراب، لأنني عضضتُ الأرض أكثر من مرّة. لقد كان للحب دون ريب ذلك الطّعم وتلك الرائحة. ولم يكن ذلك يُزْعِجُني.

كنتُ ملطَّخةَ الأصابع وما بين السّاقين بالدم، لكنني لم أكن أحسّ بنفسي قَذِرة أو دنسة. ففي ذهني، وهبتُ جسدي للدَّغل والأرض. ارتديْتُ ملابسي من جديد وتابعتُ طريقي. كان ثمّة شيء مّا يرنّ في رأسي. ضجيج مطرقة على حجرٍ للنّقش أو على قطعة رخام. كانت ذكرى خفقان قلب الرَّجُل.

هكذا كان رَجُلي الأول عديم الوجه. لم أكن لأحتمل أن يطرح عليّ أسئلةً، ولو لم يختف باللّيل لكنتُ فررتُ.

في ذلك اليوم لم أرَ أحداً في الطُّريق. كان لديّ إحساسٌ بأنَّ النّاس الّذين عليّ أن ألتقي بهم سيأتون جميعاً من الخلف. كان ذلك وَسْواساً. وفي الليل دخلتُ المدينةَ التي

سأعيش فيها قِصَّةً مُبلْبَلَةً. كانت مدينةً صغيرة. عند عبوري لعتبتها، انقبض قلبي. لقد كان ذلك يُنْبئُ بشيءٍ غير سيِّءٍ بالضرورة. وقد شرعتُ بالبحث عن حمّامٍ لأغتسل وأنام فيه. كان الوقت متأخراً. رمتني جَلاَّسَةُ الحمّام التي كانت تتقاضى الثّمن بنظرةٍ رهيبة. وقالت لي :

ـ أهنا هو الوقت الذي نأتي فيه لنتخلّص من بصاق الرّجال ؟

لم أُجِبْ. فواصَلتْ :

ـ كنتُ أتهيّأُ للإغلاق، لكن لاتزال هناك امرأتان أو ثلاث يتجرْجرن بالدّاخل. أسرعي...

أسرعتُ. وقد تتبّعتني بنظرتها. في الحجرة الدّاخلية، التي توجد بها مَغْسلة الماء الساخن، كانت هناك امرأتان نحيفتان بشكلٍ مُدْهِش. كأنهما توأمتان في التعاسة. كانت كلّ واحدةٍ تَشْغَل زاويةً وتسكبُ على رأسها طاساتٍ من الماء بحركةٍ آلية. وقد علّمتا موضعهما بِدِلاءٍ من الماء. فهمتُ بأنه لم يكن ينبغي إزعاجهما. ومن حين لآخر كانتا تنهضان، وتسندان ظَهْرَيهما أحدهما على الآخر، وتفركان اليدَيْن، ثمّ تعودان إلى زاويتيهما. كنتُ أغسل بسرعة. وكنت منحنية الرّأس عندما انتصبت إحداهما أمامي وقالت لي بيقين :

ـ أغسلك بالصّابون !

لم أرفع بصري. كانت ركبتاها العَظْمِيّتان في مستوى منخريّ. فقلتُ :

ـ كلاّ، شكراً !

ـ أقول لكِ أغسلك بالصّابون.

كانت الأُخرى قد انتقلت إلى المدخل الذي حاصَرَتْهُ بصفٍّ من الدّلاء.

لقد كان ذلك الاقتراح، دون ريب، غير محتشمٍ بوجه خاص. وأمام التهديد أذْعَنْتُ. فطلبتُ أنْ أمْلأ الماء. ملأتُ دلواً من الماء المُحْرِق وقذفته على المرأتَيْن وأنا أقفز. لقد حالفني الحظُّ فلم أزلق، وفي طرفة عَيْنٍ وجدتُني عاريةً أمام الجلاّسة التي أخذت تصرخ :

ـ لكنك مجنونة، ستبردين !

ـ كلاّ ! لقد أفْلَتُّ بأعجوبة ! إنهما اثنتان...

ـ ماذا تقولين ؟ لم يعد هناك أحد... عندما كنتِ داخِلةً كانت الثّلاثُ الأخيرات يَخْرُجْنَ، ألم تَرَيْهنّ ؟ هل تسخرين مِنّي ؟...

بمـا أنني كنتُ أرتجف ـ كنت مقرورةً من الخـوف ـ تردّدَتْ لحظـةً ثم سـألتني عن عددهن.

ـ إثنتان، نحيفتان جداً، خَيْطِيّتَا الشكل، ومتشابهتان تماماً. لقد أرادتا غسلي بالصابون !

ـ لقد حلمتِ دون ريب. إنّكِ من التّعب بحيث رأيتِ العفريت وزوجته ! كـان الخوف قد اعتراها هي الأُخرى. تلك الجلاّسة التي كان لها مظهر شِرّير صارت لطيفة جِداً مع بقائها تسلّطية.

ـ هل لكِ مكان تنامين فيه ؟

ـ كنتُ أُفكّر في أن أطلب منكِ إذا كان من الممكن أن أقضي الليلة هنا...

ـ هنا، غير ممكن. المكان ليس مُريحاً، ثمّ من الممكن أن يعود الجنّيان للظُّهور بـاللّيل ويظفران بك. بَشَرةٌ بهذا الجمال لا تنام حيثُما اتّفق. ستأتي عندنا. إنّ بيتنا متواضع، وصـالح. فأنا أسكن مع أخي. وهو أصغر مِنّي.

7

الجَـلاَّســة

كان علينا، للوصول إلى الدّار، أن نعبر عدّة أزقّةٍ يتداخل بعضها في بعض حَسَبَ رسم خطّتْهُ الصّدفة أو إرادة بنّاءٍ فاسد. لقد مررنا بالدّرب المُسَمّى «درب واحد»، وهو من الضّيق بحيث لا يسمح إلاّ بمرور شخصٍ واحد. ويُحكى بأن العُشّاق كانوا يضربون مواعيدهم فيه. كان كلّ واحدٍ يدخله من طرف، وعندما يصلان إلى منتصفه لا يسمح أحدهما للآخر بالمرور فيجدان في هذه اللعبة مناسبةً للتّلامس. كانت المرأةُ، المُجَلْبَبَةُ والمُلَثَّمةُ، تضع يداً أسفل بطنها، والأُخرى على صدرها. وكان الرجل المُواجِه للمرأة، يتوقّفُ لحظةً إلى أن يُحِسّ بنَفَس الحبيبة على وجهه. كان «درب واحد» وقتذاك هو الموعد الخفي للقُبلات والمداعبات المُخْتَلَسة، والمكان الذي تحتكّ فيه الأجساد العاشقة وتنصبُّ العيون في نظرة المجهول. وكانت نظراتٌ أُخرى، خبيئة خلف أشكال الغيرة، تلاحظ تلك اللقاءات.

كانت الأزبال تغطّي الأرض. لكلّ دارٍ ركامها من القاذورات أمام الباب. كانت تنبعث منها رائحة كريهة؛ ولم يكن يبدو أنّ ذلك يُزْعج أحداً؛ وكان هناك قِطٌّ يَئِنُّ، مُقَلِّداً نواح طِفْلٍ مُهْمَل. كنتُ أسير خلف الجلاّسة البدينة. وقد قالت لي :

ـ كان ينبغي تسميته بالأحرى درب نِصْفٍ !

رَفَسَتْ في طريقها قِطّاً سميناً. فلم يند عنه مُواءٌ بل عويل رجل جريح. توقّفَتْ أمام باب مُغْلَقٍ بمراتيج حديدية وأقفال، ثم قالت :

ـ خلف هذا الباب، تحرّكَ الشُّؤم طويلاً. فقد أنجب أطفالاً من امرأة عاقِر. وسبَّب الجفاف في البلاد، متبوعاً بأمطار طوفانية. هنا كان مكتب الشّؤم. فهنا كانت وكالة المدينة

القديمة. هنا كان رجلٌ سويٌّ يقطن لكنه كان يُجامع ذُرّيتَه. وذات يوم انهارت الدّارُ عليهم. فلم يتم انتشالهم. لقد أُغْلِقَتْ عليهم الأبواب والنوافذ وأُهِيلَ الرّمل والإسمنت على الجميع. إنهم جميعاً هنا، الأُمّ، والأب، والأطفال، مُقْتَرِنين إلى الأبد بالأرض ونار جهنم. ومنذ ذلك الوقت، توقّف الشّؤم. إنّه لا يزال يظهر، لكن دون كوارث.

كنتُ أتساءلُ لماذا كانت تحكي لي تلك القصص المُخيفة. فقد كان فضولي منصبّاً على ما يمكن أن يحدث لي وليس على ما حدث خلف جدران تلك الأزقّة. لكنّها كانت في الواقع تقدّم لي الجيران.

هنا تعيش عائلة بلا مشاكل. إنّه دبّاغ. لا أحد يجرؤ على مصافحة يده. يا للرّائحة التي تنبعث منها... هنا كان يعيش حصان بمفرده... هنا لا يعيش أحد، لا أعرف لماذا... فالدّار المهجورة مثل قصّة مبتورة... هنا حانوت اللَّبّان. وقد صار الآن كُتّاباً قرآنياً، هنا يُدَرّس القنصل. إنه قريبٌ جدّاً من الدّار.

كانت الدّار مكوّنة من طابقيْن. لم تكن كبيرة، ولكنها كانت تشرف على الدُّور الأُخرى. في الصيف، كان الناس يعيشون فوق السطوح. أنْزلتني الجلاّسةُ بغُرْفَةٍ مؤثثةٍ ومُزيَّنة. أمرتني بالانتظار وعدم التحرك. أخذتُ أنظرُ إلى الجدران. كانت الرّطوبة قد رسمت عليها لطخاتٍ برزت منها أشكالٌ بَشرية مُتَغَضِّنة. ولكثرة التّحديق فيها، أخذَتْ تتحرك. في وسط الجدار، كانت قد عُلِّقَتْ صورة شيخ مُعَمَّم؛ وكانت سيماء المرض باديةً عليه؛ كانت الصورة بالأسود والأبيض قد نُمِّقَتْ بالألوان. كان التّقادمُ قد نال من كلّ ما فيها، الورقَ الأحْمرُ الذي لُوِّنَتْ به الشّفتان، زرقةُ العِمَامة، لونُ البشرة. كان الزّمن قد فعل فعله وأعاد لذلك الوجه العياءَ الذي كان يسكنُهُ لحظة التقاط الصّورة. كانت دون ريب صورة الأب أو الجَدّ. وكان في نظرته أسى لا محدود. إنّ ذلك الرَّجُل كان ينظر إلى العالم للمرّة الأخيرة. ولابُدَّ أنه قد ألمّتْ به في حياته الطّويلة مصيبةٌ ما.

إنْتَشَلَتْني الجلاّسة من تلك الخواطر وهي تقول :

ـ إنّه والدنا. لم يكن سعيداً، ولا نحنُ كنّا كذلك. لقد التُقِطت هذه الصّورة قُبَيْلَ موته بقليل. طيب. سيراك القنصل غداً...

بعد تردُّدٍ وابتسامةٍ قصيرة، صحّحَتْ قائلةً :

ـ بالأحرى، سترينه غداً. سنتناول الآن قليلاً من الطعام. لا أدري لماذا، ولكنّك توحين

لي بالثّقة. إنّني ذات طبع مُرتاب. لكن ما إنْ رأيتكِ حتّى فكّرت بأنه يمكننا أن نتفاهم. لقد نسيتُ أن أسألكِ إذا كنتِ ترغبين في العمل، أي هل تَقْبلين...

ـ أنا مستعدّة. إنّ ما يمكن أن يحدث لي سيكون دائماً طيّباً. بماذا يتعلق الأمر ؟

ـ أن تعْتني بالقنصل.

ـ هل هو مريض.

ـ كلاّ، ليس تماماً. إنّه أعمى. لقد فَقَدَ البَصَر وهو ابن أربع سنوات، بعد أن ألمّتْ به حُمّى كادت تودي بحياته.

ـ قَبِلْتُ.

ـ سيتبَيَّنُ لكِ بالتدريج ما يتعيّن عليكِ القيام به. إنني لا أعرف شيئاً عنكِ وهذا أفْضَل. وإذا خُنْتِنا لسوء الحظّ، ستجدينني في طريقك، ففي داري، سرعان ما تنصرف الوساوس. لقد ضَحَّيْتُ بكلّ شيء من أجل أخي... وأنا حريصة على أن يظلّ السّلامُ مُخَيِّماً في هذه الدّار.

بينما كانت تُلقي كلامَها، كنتُ أنظر إلى جهةٍ أخرى، كنتُ أُفَكِّرُ في أبي وقد تذكَّرْتُه واقفاً بمدخل الدّار يُوَبِّخُ أُمّي. إنّ اللهجة الجافّة للجلاّسة هي التي ذكَّرَتْني بأبي.

هناك أُناسٌ يصرخون عندما يتوعّدون. يشوّش الغضب مشاعرهم. وهناك آخرون يتكلّمون دون أن يرفعوا صَوْتَهم وما يقولونه يكون أكثر تأثيراً فيك. هكذا لم تكن الجلاّسة من النّوع الذي لا يدع مجالاً للوساوس فحسب، بل قادرة أيضاً على تنفيذ أقوالها.

سمراء، قوية، ذات عجيزة مُدْهِشة ـ ومن هنا اسمها، الجلاّسة ـ لا عُمرَ لها. كانت بَشَرَةُ وجهها ملساء، كامدة. ولم تكن بدانَتُها عائقاً بل مُؤَهِّلاً للحرفة التي كانت تُمارسها. تَشْغَلُ الجلاّسة في الحمّام مركزاً استراتيجياً تغبطها عليه المخابرات العامّة. فهي تَعْلَمُ كلَّ شيء، وتعرف كلّ عائلاتِ الحي، وتتدخّل أحياناً في دسائس هذا الطّرف وذاك، وتُسهّل بعض الزيجات، وتُرَتِّبُ بعض اللّقاءات... إنّها سِجلُّ الحيّ وذاكرتُهُ، امرأة السِّرّ والمُسارّة والخشيةِ والرّقة. تراقب المَدَاخِل، وتحرس الأغراض، وتحافظ بنداءاتِها على النّارِ في الفُرن المُتاخِم للحمّام. وغالباً ما يكون لها ثديان كبيران يخيفان الأطفال ولكن يرغب فيهما المراهقون الّذين يحلمون بدسّ رؤوسهم تحت ثِقْلهما. ولأن الجَلاّسة نادراً ما تكون متزوّجة، إذ هي إمّا أرملة أو مُطلّقة، لا تكون لها حياة عائلية حقّة. إنّها مُهَمَّشَة في المجتمع ولا أحد يكثرت

لمعرفة الكيفية التي تقضي بها لياليها ولا مع أيّ شَبَح. لذلك تُنْسَبُ إليها حياة خيالية حيث قد تكون مَحَارِمية وسحاقية، مُتَنَبِّئة بالورق ورامية للأنصبة، منحرفة ووحشية.

لقد مضى زمنٌ كانت فيه الجلاَّسَةُ، هذه المرأةُ التي تصعد الأدراج حالياً بمشقّةٍ، شابّةً، ومعشوقةً وربما متزوجة أيضاً. كان لها مهْرٌ، ودارٌ وحلِي. هيفاء كانت دون ريب، وربّما جميلة أيضاً. كنتُ أنظر إليها وأحاول أن أستخلص من ذلك الجسد الشّحيم والمُتْعَب صورةَ الشّابّة التي كانَتْها. ثم انقلب كلُّ شيء في بضع ثوانٍ، وهلك الجميعُ في الزّلزال. لقد أَلْفَتْ نفسها في الأنقاض، مع شقيقها الصّغير المرضوض، المُغمَض العينين إلى الأبد.

لقد حكتْ لي هذه القِصّة ذات ليلةٍ استعصى علينا فيها النّوم. كان غطيط القنصل يتصاعد، ونحن كنّا ننتظر الصُّبح لكي نذهب لشراء الفطائر والنعناع لإعداد الشاي. لم تقل لي كلمةً عن حياتها السّابقةِ على الكارثة. فكان يروق لي أن أتخيّلها سعيدةً في دارٍ، في أسرةٍ، مع أحد الرّجال. ربّما لم تكن موجودة تلك الليلة بأكَادير، بل في مكان آخر، مع زوجٍ يضربها ويذهب غالباً عند النّساء. وقد يكون مضى مع بنتِ أُختٍ له أو بنت عمٍّ، بعيداً، خارج البلد، دون أن يظهر له أثرٌ أبداً.

لم أنبس ببنت شفة. لقد كنت ألتقط في نظرتها أحياناً آثار بعض الإذلالات :

ـ نعم، لقد كنتُ زوجة مهجورة ! أُلْقِيَ بي في الشارع، وكما يقول المثل : «لا قطٌّ يَفِرُّ من دار العُرْس»... إذا كان قد مضى لحال سبيله فلأنّه كانت لديه أسباب. هل تعرفين كيف يتمّ الاحتفاظ بِرَجُلٍ ؟ بهذا وهذيْن... (وضعت الأمّ يداً أسفل البطن، والأُخرى على الرّدفين). من سيرغب حالياً في جسدٍ سبق أنْ قدّم الخدمة وقدّمَها بشكل سيّء ؟ لا أحد أو الجميع. ماذا سأفعل بمطلّقة لا تزال متزوجة، وأرملةٍ بدون مُتَوَفّى أو ميراث، وزوجة بدون بيت ؟ هذا عبءٌ، جبلٌ رَازحٌ فوق صدري. بماذا أُجيب الأقارب والجيران ؟ بأنّ ابنتي لم تُمتع زوجها بما فيه الكفاية. هو الذي ذهب يلتمس في مكانٍ آخر ما لم يجده في فراشه الشّرعي ؟ كلاّ، هذا فوق طاقتي...

يبدو أنّها رحلتْ لكي لا تسمع ثانيةً هذه المؤاخذات، لكي لا تظلّ تلك المهجورةَ المُعَرَّضةَ للشتيمة والازدراء. ويبدو أن شقيقها الصغير قد لحق بها. يبدو أنّه تعلّق بجلاّبتها باكياً متوسّلاً. ولابُدّ أنْ تشرّدهما كان قاسياً. الجوع، والبرد، والمرض. وقد يكون الصّبي فَقَد البصر بسبب إصابته بالرّمد الحُبَيْبي. لقد كانت تُنَظِّف غسيل العائلات الكبرى، وتطبخ في

الأعراس وحفلات التّسمية. كانت تُربّي شقيقَها كما لو كان ابنها. ترغب له في حياةٍ أفضل، فبذلت قُصارى جهدها لكي تحصل له على منحةٍ من الخيْرية. ثمّ صار معلّماً، أخذ يُعلّم القرآن لأطفال الحي.

كانت تُريده وزيراً أو سفيراً. لكنه لم يكن سوى قنصلٍ في مدينة خيالية ببلدٍ وهمي. كانت هي التي عيّنتْه بذلك المنصب. وسيقول لي لاحقاً بأنّه قَبِل هو «حتّى لا تحزن». كان يلعب اللُّعبة. وكانت هي مسرورة ولم يكن هو يُعاكسها أبداً. كانا مُتّفِقَيْن على ذلك فيما بينهما داخل علاقةٍ موسومةٍ باتّفاقاتٍ ضِمْنيةٍ مُتَرْجَمَةٍ في طقس يومي كان يجعل من ذلك الأخ وتلك الأُخت زوجاً غريباً، مُلْتَبِساً بالتأكيد، ولكنه يزرع التشويش في لعبة مسرحية.

في الفترة الأُولى، كنت أعتقد بأنهما يلهوان أو أنّهما يرومان تسْلِيتي. فتارةً كانا عاتِبَيْن، وتارةً أُخرى كانا يُرخيان العنان لأشكال مناجاةٍ رومانسية. كان كلاهما مُزخْرَفاً، حتّى وهُمَا يصرخان. أهمّ طقسٍ كان يتمّ بالصّبح. فلإيقاظ القنصل، كانت الجلاّسة تأخذ في الغناء بِلُطْفٍ، ثُمّ مقتربةً من الباب كانت تغمغم بأبيات شعرية :

يا غزَالي وَوَفَائِي
يَا حنَانِي وفُؤادي
يَا جمِيلي وأمِيرِي
ضوءُ عَيْنيّ أنْتَ،
فَـهَــلاّ
ذِرَاعيكَ بسطْت...

كانت تستغرقُ الوقت اللاّزم وتوقظه دائماً بلُطفٍ. وغالباً ما كانت تحمل إليه بعض الزّهور فكان أول سؤالٍ يطرحه يتعلّق بلونها وليس بشذاها. كان يلمس واحدةً منها ثم يقول : «هذا الأحمر قانيٌ جداً»، أو : «هذا الأصفر مُمْتِعٌ عند اللّمس».

كانت تُقَبِّل يده. وعندما لم يكن يسحبها فمعناه أنّه رائق المزاج وأنّه يمنحها بَرَكَتَهُ ذلك اليوم. بعد ذلك كانا يختليان في الحمّام حيث كانت تحلّق ذقنه، وتُضَمِّخُهُ بالعطر وتُلبِسُه ثيابه. ثم كانا يخرجان، واضعةً يدها على يده، ويتقدّمان ببطء مُلقِيَيْن التّحية على جمهورٍ خيالي.

في البدء كنتُ أضحك حتّى يضيق نَفَسي. وبعد ذلك تعلّمتُ أن ألعب اللُّعبة وأن أكُونَ هذا الجمهور الغفير المستيقظ عن بكرة أبيه لتحيّة الزوج الأميري.

كنتُ جالسةً على مَقْعَدٍ حول المائدة المنخفضة حيث كان الفطور جاهزاً. وقد سمعته يقول في الرّواق :

- أحسّ بوجود زهرةٍ في الدّار؛ وهي بحاجةٍ إلى الماء... لماذا لم تُخْبِريني بذلك ؟

عندما دخلا، نهضتُ لأُسلّم على القنصل. وقد مَدَّ لي يده لأُقَبّلها. فشددت عليها، وعدتُ للجلوس.

- زهرةٌ، رُبّما، ولكنها متمرّدَةٌ بالتأكيد ! قال.

ابتسمتُ. وما لبثتِ الجلاّسة أن أشارت إليّ بالنهوض ولسانُ حالِها يقول : «ليس من اللاّئق أن نأكل على نفس المائدة مع القنصل».

تناولنا، أنا وهي، فطورنا بالمطبخ في صمت.

- هذه الدّار هي كلّ ما نملك، قالت لي الجلاّسة. وعليّ أن أُدبّرها وأحفظها من النظرات السفيهة والحسودة. إنّني أهتمُّ بكلّ شيء. وعليّ أن أتحَسَّبَ لِكُلّ شيء وأتصرّف بحيث لا ينقصُ القُنْصُلَ شيءٌ. إننا نكسب ما يكفينا للعيش. أحياناً يحتجزني الحمّام فأُفكّر في القنصل. إنه يشعر بالسّأم. وعندئذٍ يفتح الرّاديو. هذه عَلامَةُ سُوءٍ. فعندما يفتح هذا الجهاز معناه أنّه ثائر الأعصاب. وبما أنه لا يمكنني أن أكون رَجُلاً في الحمّام، وامرأةً في الدّار، ويحدث لي أحياناً أن أكون الإثْنَيْن معاً في كِلاَ المكانَيْن، فإنّني أعتمد عليكِ لمساعدتي. ينبغي أن تكون الأمور واضحة : إن القُنْصُلَ بحاجةٍ إلى حضورٍ يُطَمْئِنُه حين لا أكون هنا. وفي اللّيل يُحِبُّ كثيراً أنْ يُقْرأ له. وأنا لا أعرف القراءة. وعليه فأنا أختلق له قصصاً؛ وعندما لا تروق له يثور، ويعتقد بأنّني أُعامِله كطِفْلٍ. لقد استنفذتُ مخزوني من القصص التي كنتُ أعرف. فصار في الآونةِ الأخيرةِ بَرِماً، فظّاً، يقاربُ الشراسة. إنّني أتألّم. وبحاجةٍ إلى المُساعدة. إنّ البرنامج هو تقريباً نفسه طيلة أيام الأُسبوع : فالصّباح يقضيه بالكُتّاب القرآني، وبعد الظُّهر يقيل، وفي الليل يكون حُرّاً. ستعتنين به في اللّيل.

8

القُنْصُل

في الأُسبوع الأوّل تملّكني استرخاءٌ غريب. كنتُ في جهةٍ أُخرى. أنام دون أن أحلم. أنهض وأظلّ طيلة ساعاتٍ أتسكّع في الدار، وحيدة مع تلك الأشياء البالية، تلك الزّرابي المهترئة، وصورة الأب فوق الصّوان. أرنو إليه طويلاً حتّى يتشوّش بصري. كنتُ أُحبُ تلك الحالة من الكسل والعزلة حيث لم يكن بيْني وبين أيّ أحدٍ حساب. وفي الليل، عندما كان القنصل يعود، كنتُ في تمام اليقظة. نهاراً، كان الزّمن يتّسع ويمنحني أرجوحةً أتمدّد فيها وأواصل أحلام يقظتي. كنتُ أُحدّق بعينيّ المفتوحتَيْن في السّقف وفي التعرّجات التي رسمْتها الرّطوبة. كان الماضي يكتسحني، صورة تلو أُخرى. ولم يكن في مقدوري مقاومة الحلول المضطرب لكلّ تلك الذّكريات. كانت كلّها مصطبغة بنفس اللّون، لون حِبْر السّبيدج، وكانت تُرافقها أصواتٌ وصرخاتٌ وتنهّداتٌ في موكب كنتُ أراني فيه طفلةً ولكن ليس على الشّاكلة التي صنعني بها هؤلاء وأُولئك.

كانت لنا حُجرةٌ في العمق القصي من الدّار الكبيرة، نوع من المخزن حيث كنّا نحفظ مُؤَنَ القمح، والزّيت والزيتون لفترة الشّتاء، حجرة لا نافذة لها، معتمة وباردة، تهيمن عليها الفئران ويسودها الخوف. كان أبي قد احتجزني بها ذات مرّة. لم أعد أذكر عِلّة ذلك. كنتُ أرتجفُ من الغيظ والبرد. إنّ صورة تلك الحجرة غير المضيافة هي التي فرضت نفسها علي في المقام الأوّل. ولكي أتخلّص منها، استدعيتُ، من قَلْب أرجوحتي، أبي وأُمّي وأخواتي السّبْع، وأوْمَأْتُ لهم بدخول الحُجْرة، وأوْصَدْتُ الباب مرّتَيْن، ورششته بالنّفط وأضْرَمْتُ فيه النّار. وقد اضطررتُ إلى استئناف هذه العملية مراتٍ عديدة من جرّاء الرطوبة والبرْد اللّذيْن

كانا يُطْفِئَان أَلْسنة اللّهَب. كانت النّار تدور حول عائلتي دون أنْ تَطَالَها. لقد كانت مُتّحِدةً في المحنة وتنتظر نهاية الدُّعابة دون أن تتحرّك.

بحركةٍ من يدي ذَبَبْتُ تِلْكَ الصّورة وحاولتُ أنْ أتعلّق بشيء آخر. لقد كانت كلّ أحلام يقظتي مخيفة.

دَرْبٌ مُقْفِر وضيّق. على الجدار الحجري نَمَتْ ما تُشْبه رُمّانات يابسة. وعلى مواضع ملساء، مطلية بالجير، كانت هناك كلمات وأقوال، رسوم فاحشة، خربشات. إنّ الآباء، عندما يكونون مصحوبين بأبنائهم، يتلافون المرور من هنا. في ذلك الدّرب، الذي بسعة القَبْر، كنتُ ألتقي بأبي. وجهاً لوجهٍ معه، لم أكن أرفع بصري إلى السّماء بل كنتُ أتهجّى الكلمات والرّسوم على الجدار. لم أكن أتكلّم معه. كنتُ أقرأ بصوت مرتفع مَا كان مكتوباً على الجدار : «الحُبُّ ثعبانٌ ينزلقُ بين الفخذين»... «الخصيتان تُفّاحتان طريتان»... «ينهض قضيبي قبل الشمس». كان أبي، المستند إلى الحائط، يضع رأسه بالضّبط بين فَخذيْن هائِليْن مفتوحين. وقد نحيته قليلاً بيدي فَرأيت فَرْجاً له أسنان رُسم بدقّة. وكان مكتوباً فوقه : «أسنان المتعة». ثم كان هناك جسد يتقدّم؛ والعضو الوحيد الظاهر هو ذكَرُه، والحشفَةُ على شكل رأس ميتٍ، وكل الجسد عبارة عن ذَكَرٍ سائرٍ، مبتسمٍ ومتلهف. وحول هذا الرّسم كانت هناك أسماء لا تُحصى للعضو الجنسي الأُنثوي : الباب، البَرَكَة، الشّق، الرحمة، الشحاذ، المنزل، العاصفة، الينبوع، الفرن، الصّعب، الخيمة، السّاخن، القُبّة، الجنون، اللّذيذ، البهجة، الوادي، الحَرُون... كنتُ أتهجّاها واحداً تلو الآخر وأصيح بها في أُذن أبي الذي كان وجهه المُبْيضّ فارغاً من كل تعبير، وقد أخذتُ أهزّه كما لو كنتُ أروم إيقاظه. كان بارداً وأكهباً، ميتاً منذ أمَدٍ طويل.

إنّ ذلك الدرب الضّيّق، درب الخزي، كان يفضي إلى الهاوية. كنتُ فضوليةً. وكنتُ أودّ الذهاب إلى النّهاية. لقد هجر السّكّانُ ذلك الدَّربَ لأنّ إحدى الإشاعات كانت تقول بأنه يقود إلى الجحيم، يؤدّي إلى ساحةٍ تُعْرَضُ بها رؤوس الموتى مثل بطّيخ أحمر. فلم يعد أحدٌ يمرّ من هناك. دربٌ ملعونٌ، كان يلجأُ إليه من حينٍ لآخر ميتٌ هاربٌ من الجحيم.

كنتُ أعلم أنّ أبي، رغم صلواته وصدقاته، سيقيم ردحاً من الزمن في الجحيم. وأنا حالياً متيقّنة من ذلك. إنّه هناك دون ريب يدفع ثمن معاصيه. ومن المُرَجَّح أنني سألحق به ذات يوم، باعتباري المصدر الرئيسي لآثامه. لكنني قبل ذلك، سأعيش، هذا مكتُوب...

كنتُ مستغرقة في هذه الخواطر عندما لمحتُ القنصل يدخل المطبخ. فنهضتُ. لكنّه أومأ لي بيده بأن أعود للجلوس. ظللتُ مُسمَّرة في مكاني. كان يُعِدّ شاياً بالنّعناع. يداه تعرفان موضع كلّ شيء. لم تكونا تترددان، لم تكونا تبحثان، بل كانتا تتجهان مباشرةً صوب الشيء. وعندما صار البرّاد جاهزاً، قال لي :

ـ من فضلك، هل بإمكانك تسخين الماء ؟ لم يكن يقرَبُ النارَ أبداً. وعندما طفق الماء يغلي نهض وصبّه في البرّاد. ثم أغلق الغاز وترك الشاي يتروّق. وعند جلوسه، قال لي :

ـ لن يكون هذا الشّايُ جيداً جدّاً. أعتذر عن هذا. فالنعناع ليس طرياً. وقد نسيْنا شراء نعناع آخر... يمكنك أن تصبّي الآن.

شربنا الشاي في صمت. كانت سيماء السرور باديةً على القنصل. وقد قال لي :

ـ ليس هذا هو وقتُ الشّاي، لكنني أحسستُ برغبة عظيمةٍ في الشّاي، هكذا؛ لهذا أتيت. أرجو ألاّ يكون في هذا ما يزعجك. كان بإمكاني استقدام كأسٍ من الشّاي من عند قهوجي الدّرب، لكنني رغبتُ في أن أتناوله هنا.

لم أعرف بماذا أُجيب. وبعد برهةٍ قال لي :

ـ لماذا تحمرّين ؟

وضعتُ يديّ على وجنتيّ؛ كانتا ساخنتين؛ فكنتُ أحْمرّ دون ريب. كنتُ مندهشةً لأناقة حركاته ولطافتها. ولم أكن أجرؤ على النّظر إليه؛ فقد كان مُزَوَّداً دون ريب بحاسّة أُخرى تُخْبِره مباشرةً. فكنتُ أبتعد قليلاً وأُراقبه. لم أعد أعرف إن كان وسيماً ولكن كان لديه، كما يقال، حضورٌ؛ كلا، أكثر من ذلك... كان... كان يُرْهبني.

بعد الشّاي، نهض :

ـ لابُدّ أن أذهب؛ فالأطفال رهيبون. إنني أحاول تعليمهم القرآن مثلما كنتُ سأفعل بشِعْرٍ رائع، لكنّهم يطرحون أسئلة مُرْبكة من قبيل : «هل حقّاً سيدخل جميع النّصارى النار ؟» أو : «بما أنّ الإسلام هو أفضل الدّيانات فلماذا انتظر الله طويلاً لكي ينشره ؟». وكجوابٍ أردّد السؤال رافعاً عينيّ إلى السّقف : «لماذا وصل الإسلامُ متأخّراً جداً ؟»... قد تكونين أنتِ مُلِمّة بالجواب ؟

ـ لقد سبق أن فكّرتُ في هذا. لكن كما ترى، أنا مثلك، أُحِبّ القرآن كشِعر رائع، وأمقتُ الّذين يستغلّونه في تشويشاتٍ ويحدّون من حرّية الفكر. إنهم منافقون. زد على ذلك أن القرآن يتحدث عنهم...

ـ نعم، أعرف... أعرف...

بعد هُنيهة صمتٍ تلا الآية الثانية من سورة «المنافقون» :

إتّخذوا أيْمَانَهُم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيل اللّه إنّهُمْ سَاءَ ما كانوا يعملون...

مؤمنون متعصبون أو منافقون. لا يهمّ، إنّهم يتشابهون وليست لي أيّة رغبةٍ في معاشرتهم.

ـ أنا أعرفهم جيّداً. لقد تعاملتُ معهم من قبل، إنهم يستندون إلى الدّين للسَّحْق والهيمنة. وأنا أستند حالياً إلى الحقّ في حرّية التفكير، وحرية الاعتقاد أو عدمه. هذا لا يعني سوى ضميري. لقد سبق أن تفاوضْتُ بشأن حرّيتي مع الليل وأشباحه.

ـ يروق لي عندما تبتسمين.

كنتُ قد شرعتُ فعلاً في ابتسامةٍ قصيرةٍ وأنا أتكلّم عن اللّيل. وقد طلب منّي أن أعيره منديلاً نظيفاً. ثم خلع نظارته السّوداء ومسحها بالمنديل بعناية. وعند انصرافه، توقّف لحظةً أمام المرآة، وسوّى جلاّبته ومشط شعره.

رتّبْتُ الدّار وانفردْتُ داخل بيت الماء. لم يكن به مَغْسل ولا مغطس، بل طَشتان موضوعان تحت صنابير الماء البارد. نظرتُ إلى نفسي في مرآة صغيرة. كنتُ قد هزُلت. كان نهْدَاي منتصبين. مرّرتُ يديّ بين فخذيّ. كنتُ لا أزال أتألم. لم أعد عذراء. لقد تأكّدتْ أصابعي الخبيرةُ مما سبق أن اشتبهت فيه. كان اللّقاء في الغابة فَظّاً وأعمى. ولم تكن تلك الذّكرى مصطبغة بأيّ شعور أو حُكْم. لقد تعلّق الأمر بالنّسبة لي بمغامرة من بين مغامرات عدة عشتها دون أن أُضْفِيَ عليها طابعاً تراجيدياً. كان على الأمور أن تعبُر جسدي دون أن تترك جراحا. كنت قد قرّرت هذا بكل رصانة. وكنت أثابر على ممارسة النسيان. كان أساسيا ألا أرهق نفسي أبداً بعد ذلك بعشرين عاماً من الحياة المزورة، وألا أعود للنظر إلى الوراء، وأن أركل حشدا من الذكريات التي كانت تلاحقني وتتنافس في المُخْجل والممقوت وما لا يطاق. كنت أعلم بأنّني سأتعرض خلال ردح من الزمن لنكد تلك الحزمة من الحبال المعقودة. ولكي أدفعها عني، كان يلزم أن أغيب، ألا أكون موجودة عندما تطرق باب نومي. لذلك

قرّرت أن أشغل نفسي جدّيا بالدّار وبالقنصل؛ أن أصير امرأة، وأنمي حساسيتي وأردّ لجسدي النعومة التي كان محروماً منها.

كانت غرفة القنصل مضاءة بنافذتين. كانت نظيفة، مرتبة، ونَزِهَة، وكانت مزينة بذوق رفيع. ثمة خليط من الألوان في الأثواب؛ وهناك زرْبية بربرية تضفي على المكان بهجة ودفئاً. على مقربَةٍ من السرير كانت هناك خزانة صغيرة للكتب المرقونة على طريقة بْرَيل. وعلى منضدة السرير كانت ثمة ساعة منبهة، وصورة للقنصل وأخته، ومرمدة، ودورق ماء وكأس. في أقصى الحجرة، كانت هناك طاولة وضعت عليها آلة كاتبة تخرج منها صفحة مرقونة إلى النصف. لقد تمالكت نفسي لكي لا أقرأ ولو السطر الأول. كان الفضول مستبداً بي. ابتعدت ثم حاولت قراءة بضع كلمات. لقد اسْتَنْتَجتُ من تركيب الصفحات بأن الأمر يتعلق بمذكرات شخصية. وكان فوق الطاولة ملف أحمر يحتوي على علبة أوراق. أحسست بوجنتيّ تحمران. كنت خجلة. وقد عاتبت نفسي لاكتشافي ذلك السر. فمن المرجح أن القنصل كان يسجل مذكرات دون معرفة من أخته.

في الليل وقع أول حادث منذ وصولي إلى تلك الدار. فقد دخلت الجلاّسة محملة بنفقة العشاء وتوجهتْ رأساً إلى المطبخ. وعند ولوجه لمحتِ البراد الذي كان لا يزال مليئا بالنعناع والكأسين اللتين نسيتُ غسلَهما. فوضعتْ سلتَها ثم سألتني إن كان قد جاء أحد بالنهار. قلت لها بأنّه لم يأت أحد.

ـ لكن من من شرب الشاي ؟

ـ القنصل وأنا.

ـ القنصل لا يشرب الشاي في الدّار خلال النّهار أبداً.

ـ بلى لقد شرب ! لقد جاء في الصّباح، وهو الذي أعده بنفسه. يمكنك أن تطلبي منه فيحكي لك كيف حدث ذلك...

ـ كلا. إنه يعمل بغرفته. ولا ينبغي إزعاجه. هل كان الشاي جيداً ؟

ـ نعم، قليل السكر، كما أحبه...

من غرفته علق القنصل قائلا :

ـ كان الشاي جيداً وكان الوقت الذي قضيته مع مدعوتنا أفضل منه !

لاذت الجلاّسة بالصمت. كانت سيئة المزاج. وقد أردت مساعدتها. فرفضت وطلبت مني أن أذهب لأغسل قدمي القنصل.

- هذا هو الوقت. سخّني الماء وحضري الفوطة والعطر.

لم يكن قد سبق لي أنْ غسلتُ قدمي رجل. كان القنصل، الجالس على أريكته، يمد قدمه اليمنى لكي تمسد بينما كانت اليسرى مغطوسة في الماء الساخن. كنت أمسدها بشكل سيء. ومن غير غضب، أمسك بيدي ومسدها برفق.

- لا ينبغي الحكّ أو الضغط. التمسيد منزلة بينهما، إنه مداعبة تعبر الجلد وتسري في الداخل مصحوبة بارتعاشات صغيرة ممتعة للغاية.

بعد ذلك الدرس، جثوتُ على ركبتي وحاولت العثور على الحركة المضبوطة. لم تكن قدماه كبيرتين. لقد كان ينتعل دون ريب حذاءً من مقاس تسعة وثلاثين. أخذت أمسدهما ببطء. وقد بدا بوضوح أنه كان مسرورا. كان يبتسم ويردد بهتاف من المتعة : «الله ! الله !».

مرَّ العشاء على ما يُرام رغم حادث بداية السّهرة. كانت الأخت متعبة. فنهضت وقالت لي :

- إقرئي له.

- كلاّ، ليس الليلة، قال القنصل. هذه الليلة سأتابع مع مدعوتنا مناقشةً هذا الصباح.

رجاني أن أتبعه إلى السطح.

- هناك تبدو الليالي معتدلة ورائعة، خاصة في هذا الموسم الذي ينقضي فيه الصيف بدون استعجال. ثم يروق لي كثيرا عندما تكون السماء بكاملها مرصعة بالنجوم. في غضون يومين سيكتمل القمر بدراً. سترين كم هو جميل.

كانت على الأرض زَرْبية ومخدّتان. وكانت المدينة لا تزال بعد سهرانة. كان يلوح أناس آخرون فوق السطوح يتعشون أو يلعبون الورق. كنت أنظر إليهم عندما طلب مني أن ألقي نظرة أكثر انتباهاً إلى السطح الثالث على يميننا.

- هل يوجدان به ؟

- من ؟

- رجل وامرأة، شابّان، غير متزوجين؛ إنهما غالباً ما يتلاقيان في السطح. يقبل كلُّ منهما غيره، يتضامّان، ويهمسان لبعضهما بكلمات رقيقة في الأذن. عندما أحس بالوحدة، آتي

إلى هنا، وأعلم بأنهما برفقتي. إنهما لا يَرَيَانِي. ولا أنا أراهما. أحس بهما وأحبهما كثيراً. فهما يختلسان بضع ساعات من السعادة. وأنا سعيد بكوني شاهداً كتوماً على هذه السعادة. تعرفين، يحدث لي أحيانا أن أعيش بالتوكيل. هذا ليس أمراً إذاً. لكنه لا ينبغي أن يتكرر أكثر من اللازم. مجمل القول، لا يتعيّن عليّ أن أُضْجِركِ بقصصي الصغيرة. فيم كان حديثنا هذا الصباح ؟

ـ عن الإسلام.

ـ الإسلام ! قد نكون غير جديرين بنبل هذه الديانة.

ـ ألا تقوم كل ديانة على الشعور بالمعصية ؟ وأنا قد زهدتُ، إنني زاهدة بالمعنى الذي أعطاه الحلاّج لها في صوفيته.

ـ لا أفهم جيداً...

ـ إنني في قطيعة مع العالم، أو على الأقل مع ماضي الشّخصي. لقد اقتلعت كل شيء. إنّني مُقْتَلَعَة عن طواعيَة، وأحاول أن أكون سعيدة، أي أن أعيش حسب إمكانياتي، بجسدي الخاص. لقد اقتلعت الجذور والأقنعة. أنا تيهٌ لا تمسكه ديانة. أسير لا مبالية وأعبر الأساطير...

ـ هذا ما يدعى بالحرية...

ـ نعم، التجرد من كل شيء، وعدم امتلاك أيّ شيء لكي لا يملكني شيء. حرّة، أي مستعدة، سابقة على العقبات، وربما سابقة على الزمن.

ـ إنك تذكرينني بهذه الجملة من الزّن : «في الأصل، ليس للإنسان شيء».

ـ ليس للإنسان شيء في الأصل، هذا صحيح، وينبغي ألا يكون له شيء في النهاية. غير أنّه قد ثبّتت في ذهن الإنسان الحاجةُ إلى الامتلاك : امتلاك دار، وأهل، وأطفال، وأحجار، وسندات مِلْكية، ومال، وذهب، وأناس... وأنا بصدد تعلُّم ألا أمتلك شيئا.

ـ إن هذا التعطش للامتلاك والاستهلاك ينم عندنا عن نقص هائل. شيء ما أساسي ينقصنا. ولا نعرفه. لقد عرفت سيدا كبيرا كان يعيش دون أن يملك شيئاً، لا دار ولا متاع ولا روابط. وقد مات مثلما ولد : معدما. كان شاعرا، رجل الكلام الموهوب...

ـ الامتلاك، الاكتناز، الادخار كما يقال، أليس في هذا مجازفة متنامية كلّ يوم بكرامتنا، أليس في هذا امتحان لها ؟

بينما كنّا نتبادل هذه الأفكار، كان القنصل يقطع، بطريقة منظمـة، بعض أوراق الكيف اليابسة على لوحة أعدت خصيصا لهذا الغرض. في البدايـة لم أنتبـه. كـانت يـداه تعملان دون تردّد، وبأناة ودربة. وقد حشا سَبْسِياً أوّلِيّاً، وأشعلَهُ، وجذب منـه نفسـاً طويلاً ثم قـذف الجمرة الصّغيرة. وقال، كما لو كان يتوجّه لنفسه : «جيّد»، وحشا سَبْسِياً مَدَّهُ لي :

ـ لا أعرف إن كنت تحبين هذا ! أعتقد بـأنّـه من الصّنف الجيـد. من حين لآخر أدخّن سَبْسِياً أو إثنين، هذا يساعدني على ردّ الأمور إلى نصـابهـا، يسـاعدني على النّظر بـداخلي بجلاء، دون لعب بالكلمات طبعاً !

لقد سبق لي أن دخّنتُ الكيف في حياتي السّابقة. ولم أكن أحتفظ بذكرى طيبـة عنـه. لكن في تلك الليلة، كل شيء كـان طيبـاً، حتّى الكيف. كنت أحس بـالثقـة. وكنت بصعوبـة أغادر الجحيم.

لم يكن ذلك الرّجل الذي تعلّمت غسْل قدميه كل ليلةٍ سيّدي، ولم أكن أَمَتَـه. كـان قـد صار منّي قريباً. كنتُ أنسى عمّاه وأتوجّه إليه كما لو كان صديقاً منذ أمَدٍ طويل. وهو نفسـه نبهني إلى هذا ذات ليلةٍ فوق السّطح :

ـ لكي نتفاهم بهذا القَدْر، لا بدّ على الأرجح أن يكون نفس الجرح خبيئاً بدخيلتنا، لن أقول نفس العاهة ـ فالعميان عـدوانيون وأشرار فيمـا بينهم ـ بل شيء محطم يقربنـا من بعضنـا بعضاً.

بعد أن قرّرت دفن ماضيّ الشخصي نهائياً، لم أردّ على تلـك الملاحظـة. لقـد ثمّنْتُ كون القنصل لم يسع في أية لحظة إلى معرفة عناصر حياتي السّابقة. كيف كان بوسعي أن أقول لـه بأن حياتي تبدأ، وأنّ ستاراً سميكا قد أسدل على مشهد كانت الكائنات والأشياء مكسوة بنفس الغبار، غبار النّسيـان المطلق ؟ كنت أكـافح في صمت، دون أن أدع شيئـا يظهر، لكي أخرج نهائيا من تلك المتاهـة الضّـارة بـالصّحـة. كنت أصـارع الشعور بـالـذنب، والـدّين، والأخلاق، والأشيـاء التي كـانت تهـدد بـالظهور ثـانيـةً، كمـا لو أنهـا تروم توريطي، تلطيخي، خيـانتي وتدمير القلة القليلة التي كنت أحاول الحفاظ عليها من كياني.

لقد كان اللّقاء بالقنصل منفعة هامّة، مبطنة ببعض المصاعب الطارئة في الحياة اليومية. وقد كان لهذا الرجل عالمه حيث كان يتحرك حسب إيقاعه الخاص. كانت له عاداتـه، وبعض الطباع، وطقسٌ كان يمكن أن يبدو مضحكاً أو جنونيـاً. كل ذلـك كـانت تتعهّـده أختـه التي

كانت تمارس من خلاله سلطتها. وأنا لم أكن أعرف أين أضع نفسي. فلأنّني اسْتُخْدِمْتُ بمحض الصدفة تقريباً، لم أكن أعرف بَعْدُ على وجه التحديد ما هو عملي. لقد قالت لي الجلاّسة عُمُوماً ما يتعيّن عليّ القيام به، لكنّه هو لم يكن يقول شيئاً. كنت هناك، لستُ رهينة أوامره، ولكن كان عليّ أن أكون مستعدّة طوال الوقت. بصفةٍ عامّة، أحب كثيرا أن أعرف وجهتي. وهناك، كنت في قلب الضباب وكنت أحب ذلك ! إن هذا يذكرني بمشهد حيث كنا، نحن الثلاثة، مسربلين بالضباب.

فذات ليلة بعد العشاء، توجّه القنصل لأخته بلهجة آمرة :

- غدا، ستنظفين الحمّام. لقد قرّرتُ أن نذهب نحن الثلاثة لنغتسل.

- لكن هذا غير ممكن !

- بلى، سيكون ممكناً : غداً سيكون الحمّام مخصّصاً للعائلة. سنذهب، أنت، ومدعوتنا، وأنا...

- لكن...

- لا تخشي شيئاً. فأنا لن أكتشف عُرْيَكُمَا...

أنا لم أقل شيئاً. وقد أحسست بأن الجلاّسة كانت تعتمد على التواطؤ معي لإفشال ذلك المشروع. فلم أكن لائذة بالصمت فحسب، بلْ وكنت مسرورة وفضولية لفكرة اغتسالنا في وضع عائلي.

- طيب، قالت الأخت. إن آخر الزبونات ينصرفن حوالي الساعة التاسعة. ستأتيان قبل العاشرة.

ثم نهضتْ وأغلقَتْ على نفسها في حجرتها. كان القنصل مسروراً، ولو أنه كان قلقاً بعض الشيء :

- لا أحب أن أرى أختي مستاءة. إنّها تعتقد دون ريب بأنّني أفعل هذا ضدّها. فمن حين لآخر تخامرني أفكار غريبة. إنها طريقتي في الغضب. في الواقع، لم أطلب منك رأيك. لن يزعجك أن...

- سنرى غداً !

- أقول لك هذا لأنك امرأة، بل حتّى أنك، حسب ما أحسُّ، أنثوية جداً... فأن تلفي نفسك في العتمة والبخار مع رجل...

- معك حق. لا أريد أن تعتقد أختك بأنّها فِكْرَتِي، بأنّها نوع من المؤامرة ضدها...

9

الميثَاق

وحدها الحجرة الرئيسية للحمّام كانت مضاءةً قليلاً؛ أمّا الأخريان فكانتا مظلمتين. كان هناك غبش لا يمكن معه لبصرٍ حادٍّ أن يميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلاّ بمشقة. ولو كان لالتباس النفس ضوء لكان ذاك هو ضوءه. كان البخار يسربل الأجساد العارية. وكانت الرطوبة، الرّاشحة من الجدران على شكل قطرات رمادية صغيرة، تغتذي بالمماحكات التي عرفها ذلك الصّالون طوال الزمن. إنّ الحمام، بعد أن أفرغ ونظّف، كان قد خصّص لنا، وقد دخلت الجلاّسة، لأنّها سيدة المكان، هي الأولى ممسكة بيد القنصل. وأنا تبعتهما دون أن أنبس ببنت شفة. لقد تذكرتُ وصولي، قبل شهرين، إلى ذلك المكان، حيث أمكنني أن أغتسل بصعوبة وقد استعجلتني الجلاّسة وأزعجتني ساحرتان أرادتا الظفر بي. كنت أمشي بتؤدة وأنا أتفحص الجدران. وفي الحجرة الداخلية، الأشد عتمة، لاح لي شبح، جسد فتاة معلق في السقف. وكلما اقتربت، كان الجسد يشيخ، حتّى اللحظة التي وجدتني فيها وجهاً لوجهٍ مع أمّي، وهي دَرْدَاء، مشعثة الشعر في خصلات على الرقبة والوجه. عدتُ القهقرى والتحقت بالقنصل وأخته في الحجرة الوسطى. كنتُ مقتنعة بأن ذكرياتي كانت تتغذّى على دم الموتى الذي تأتي وتسكبه في دمي. وكان الخليط يثير فيّ هلوساتٍ كانت تطالبُ فيها أجسادٌ جافةٌ بدمها. لقد قررتُ ألاّ أكلّم أحداً عن الأمر. قصة الدّم الممزوج تلك كانت تلاحقني منذ موت أبي. وكيفما كان الأمر، فإنّ عمل النّسيان كان متواصلاً، فقد كنتُ أتقدّم بالرّغم من كلّ شيء في دفن الكائنات والأشياء. إن الحمّام بصفةٍ عامّة مكانٌ ملائمٌ للأخيلة. فالأشباح تعمّره بالليل لخوض محادثاتها السّرّية. وعندما تفتح الأبواب، في الصّباح الباكر، يشمّ

المرء رائحة الموت، ويعثر على قشور فستق العبيد ملقاةً على الأرض. إذ من المعروف أن الأشباح يتكلّمون متذمّرين. لكنّ ما رأيته عند وصولي إلى الحجرة الوسطى لم يكن خيالاً: كانت الأختَ، التي لفّت فوطةً فقط حول خصرها، جالسةً فوق القنصل الممدّد على بطنه. كانت تمسده جاذبةً أعضاءه، مرفقة حركاتها بصرخاتٍ صغيرة لم تكن صرخات متعة ولكنها كانت تشبه مع ذلك ضجيج قُبلاتٍ مكتومة. لقد كان غريباً أن أراهما في ذلك الوضع وأن أسمع القنصل يقول: «الله ! الله !» مثلما كان يفعل عندما كنتُ أغسل له رجليه. كانت ضربةً خفيفة على الإلية تكفي لكي يغير القنصل من وضعه. وهو الذي كان نحيفاً وطويلاً صار متداخلاً تماماً، معقوداً، مع الجسد السّمين المترهّل للجلاّسة. لقد كانا يجدان معاً في ذلك متعة أكيدة. تركتهما يُنْهيان تمارينَهما وانزويتُ في حجرة المدخل حيث كانت الحرارة معتدلة. كنت قد عقدت حول خصري فوطةً كبيرة جداً وشرعتُ في غسل شعري، عندما لاحت أمامي الجلاّسة، المضحكة في عريها، وأمرتني بأن ألحق بهما.

- ماذا عندك للإخفاء ؟ ما عندكِ عِنْدِي، وأخي لا يبصر. إذن، كوني على راحتك وتعالي معنا.

لقد اعتقدتُ بأنّ ذلك كان أمراً من القنصل. غسلتُ شعري وذهبت قربهما. كانا جالسين في الوسط، منفرجي الأرجل، ويأكلان بيْضاً مسلوقاً وزيتوناً أحمر. كان ذلك يدخل ضمن التقليد. مدّتْ لي بيضةً. لم تكن مسلوقة بما فيه الكفاية. كان الصُّفار يسيل بين أصابعي. وقد أحسستُ ببداية غثيان. أحسستُ لحظةً بأنّني صرت أُلعوبةً بين أيدي ذلك الزّوج الجهنّمي. وقد تقوّى ذلك الإحساس عندما طلبتْ منّي الجلاّسة أن أغسل لها ظهرها وإليتيها بالصّابون. كان القنصل يمزح في صمت. وكانت هي مضحكةً بعجيزتها البارزة. لقد أحسستُ كما لو أنّني أغسل جبلاً ميّتاً. كانت قد غطتْ في النوم وارتفع شخيرها. وقد وضع القنصل يده على نهدي الأيسر. وما لبث أن اعتذر. إذ كان يروم لمس كتفي. لقد طلب مني أن أدعها تنام. كان جسده رفيعاً. وتحت الفوطة، لاح عضوُه منتصبا. ظللتُ على مسافةٍ منه. وقد لاحظ ذلك من صوتي. لقد كان إحساسه حاداً جداً بما أنه كان يقيس المسافات من خلال الصّوت. قال لي بأنه مسرور لتواجده معي في الحمام. فقلتُ له بأن البيضة سببت لي الغثيان. ثم نهضتُ واندفعتُ لأتقيء في إحدى الزوايا ما كنت قد أكلته. لقد أحدث ذلك المناخ من الظلمة والبخار والرّطوبة، بالإضافة إلى حضور امرأتين، إثارة جنسية بديهية لدى

القنصل. عندئـذ علمتُ بـأنـه لا يمكن أن تكون للعميـان استيهامـات على أسـاس الصُّوَر، بل انطلاقاً من الروائح، وبعض الأوضاع الملموسة. كان القنصل قد انزوى في ركنٍ مظلم، وجلس مواجهاً للحائط. كنتُ أعرف بأنني إنْ تركتـه يلمسـني سيفقـد السيطرة على نفسـه. لقـد طلب منّي بصوتٍ خفيضٍ أن أمَرِّر الصّابون على ظهره. وقد رفضتُ. فلم يعد للإلحاح. لم تكن لـديّ رغبـة. كـان يكفيني أن أنظر إلى الجلاّسـة معروضَـةً وسـط الحمّـام لكي أحسّ من جـديـدٍ بالغثيان. اغتسلتُ بسرعةٍ وخرجتُ أنتظرهما في حجرة الاستراحة. وقد كنتُ من العيـاء بحيث غلبني النوم.

هـل كنت في عـزّ النـوم أم في قلب الحمّـام ؟ سمعتُ صرخـاتٍ مرتخيـة، متبـوعـةً بحشرجـاتٍ. رأيتُ ـ والواقـع أعتقـد بـأنّني رأيتُ ـ القنصـلَ منكمشـاً في حضن أختـه. كـانت تعطيـه الثـدي. وكـان يرضـع كـأحـد الأطفـال. لم أفلح في تبيّن أيّهمـا كـان يُصْـدِر تلـك الحشرجـات من المتعـة. كـان المشهـد مستمراً منـذ ردح من الـزمن. وكنتُ أراقبهمـا، دون أن يكون في مكنتهما رؤيتي. كيف أمكن ذلك ؟ كيف أمكن أن يرتد ذلك الرجل، الـذي كـان على قَدْرٍ كبير من الحـذق والـذكـاء، إلى وضعٍ طفولي في حضن تلـك المرأة ! وبينمـا كـان يرضع، كانت تمسد له قدميه وساقيه. لقد كان عليه أن يمرّ بكلّ تلـك الالتواءات لكي يُرْضِيَ رغبته.

عنـدمـا رأيتهمـا خـارجَيْن، ملفـوفَيْن في فـوطتين كبيرتَيْن، فهمتُ بـأنّ ميثـاقـاً سِرّيـاً يجمعهما حتّى الموت. كانا سعيدين ومرتـاحين. ربّمـا كـان في نيـة القنصل أن يُشْرِكني في سِرّهما وأن يمنحني قسطـاً من ذلـك التّواطؤ الـذي كـان يربطهمـا. وقـد بـدَا مُستـاءاً عنـدمـا أخبرته الأختُ بأنني انسحبتُ من الحمّام بسرعة. كُنْتُ أعتقد بأنّه أحسّ بـذلـك؛ لكن حواسـه كلّها كانت منشغلةً بإراحة الجسد. كنتُ أعرف بـأنّ العميـان سريعو التـأثُّر. لقـد كـان القنصل يحاول السيطرة على غضبه. وعوض أن أجنح إلى اللامبالاة بتَبرّماتـه، تـأثّرتُ أنـا الأخرى لمـا حدث. إنّ القنصل لم ينم تلـك الليلـة. وقـد سمعتـه يضربُ على الآلـة الكـاتبـة. أمّـا الجلاّسـة فكانت تشخر بهدوء. بينما ظللتُ أنا أنتظر الصُّبْح. عـديـدة هي المرّات التي طغَتْ عليَّ فيهـا رغبةٌ عظيمةٌ في أن أدفع باب القنصل، وأجلس في ركنٍ، أنظر إليـه وهو يكتب. كنت أخشى ردّ فعلـه. فقـد كـان ثـائر الأعصـاب. ومن المرجّح أن تصرّفي كـان علّـة ذلـك. كنتُ مُبلْبَلةً. ومتناقضةً كانت انفعالاتي : كان الذّعر يختلط ببهجةٍ غريبـة. لقـد انقطع شيءٌ مّـا في التوازن

الموجود في أساس علاقاتنا. وهي علاقات ملتبسة بالتأكيد، لكنّها صريحة، في منتهى الجدّة، وموسومةً بوعود الزّمن ولباقة المشاعر التي كانت لا تزال بَعْدُ غير محدَّدة. كان ذلك بعيداً عن صواعق عاطفةٍ مباغتة وهَوْجَاء. لقد كانت عاطفة ربّما، ولكن متلعثمة، ولا تزال بَعْدُ في طفولةِ تعبيرها.

إن العاطفة الوحيدة التي سبق لي أن خَبَرْتُها، هي تلك التي كنتُ أُكِنُّها لأبي. وقد قُدْتُه حتّى النّهاية، حتّى الكراهية، ثم الموت، والكراهية بعد الموت. لكنها دمّرتْ كلَّ شيء في طريقها. التّعاسة جوهر كلّ عاطفة. إنها نواتُها، ومُحرّكها وعَقْلها. وهنا لا يتبيّن في البداية. لاحقاً فحسب، عندما تكون الزوبعة قد فعلت فعلها، يكتشف المرء بأن التّعاسة أنجزت هي الأُخرى عملَها. لذلك كنتُ أتقدّمُ بحذرٍ وخشية. كنتُ قد قرّرتُ أن أظَلَّ مترصّدةً وحتّى سلبية. لقد كان يلزم تنظيفُ ضَمِيرٍ، ومنح ما يكفي من الوقتِ للجسد حتّى يتحوّل، وللذّكريات حتى تنطفئ نهائياً. فتعلّلت بذبْحة لوْزيةٍ، ومكثت نائمة بالغرفة. كان يلزم وضع فاصل زمني من عدة أيّام بين حادث الحمّام واستئناف المحادثات مع القنصل. كنتُ أحِسُّ بأنّه يصعبُ عليّ أن أواجهه. إذ لا شيء كان يغرب عنه. كان يحسّ بكل شيء. وكان على علم بأدقّ حركات نفس الشخص الذي كان يهتمُّ به.

ذات يوم، وكنتُ لا أزالُ ملازمةً للفراش، طَرَقَ بابي واقترح عليّ أن نلتقي عند الغسق فوق السّطح. وقال لي بأنّ النّهار كان جميلاً، وأنّ الضوء كان رائقاً جداً، وأنّ ذلك هو الجو المثالي للمحادثة. أجبتهُ «بكل فرح !»، دون أن أفتح البابْ.

كنتُ صادقةً. فقد كانت البهجة تملأ قلبي. كانت قد انصرمت حوالي عشرة أيام لم نتكلّمْ فيها مع بعضنا البعض. وكانت الأمور تعود رويداً إلى مكانها. كانت الجلاّسة مستاءة. وكانت تترك لي كلّ العمل المنزلي لأقوم به. كانت تلك طريقة تذكّرني بها بأنّ مُهمّتي هي مهمة خادمةٍ أو على الأكثر مهمة شغّالةٍ. إلاّ أنّ القنصل عاملني، منذ البدء، بشكل مختلف. فلم أكن بالنّسبة له خادمة ولا مُمرّضةً. كانت الجلاّسةُ تحاول بحِيَلٍ بئيسة أن تفصلني عن القنصل. فوضَعَتْ في إحدى زوايا المطبخ فِراشاً وأشارت لي بأنه منذ ذلك الوقت فصاعداً ستكون تلك هي حجرتي. لم أحتجّ. لقد كانت في بيتها. ولم يكن ذلك لِيُزْعجني. كان سيان عندي أن أنام بين القُدُور، أو في العَراء، أو بغرفة مريحة. لم تكن لدي أمتعة أنقلها. فنمتُ بالمطبخ ورأيتُ حلما بهيجاً. كان يتعلّق الأمر بسفرٍ مّا، بباخرةٍ وباستحمامات في ماءٍ نَمِير.

في الصّبح سمعتُ مشاجرةً بين الجلاّسة وشقيقها. كانت قصيرة ولكن حادّة. هل كان مشهداً تمثيلياً يدخل ضمن سيناريو مُعَدّ حول وجودي بتلك الدّار ؟ أم كانت فقط إحدى فورات غضب الأعمى بسبب الإخلال بأحد ميوله المهووسة ؟ ربّما كان يوبّخ أخته لكونها نَقَتني إلى المطبخ... في النّهاية، لم أكن أرغب في معرفة السبب. فلم يكن يتعيّن عليّ أن أتدخّل في أمورهما. لقد لُذْتُ بالصمت، متبيّنة بأن الاهتمام الذي كان القنصلُ يوليني إياه كان قد غدا كبيراً. على كلّ حال، لم أكن سوى غريبة، متسكّعة، بدون أوراقٍ ولا هوية، قادمة من العدم ومتوجهة صوب المجهول. لم أكن عديمة الاكتراث بواقع عثوري على مأوى خلال الأيام الأولى من تسكّعي. كما أنّ لقائي بذلك الرّجُل العَصِيّ، المُثقّف، والمُرْهب، كان يصير تدريجياً حدثاً أساسياً في حياتي (هنا، لا أضع فرقاً بين السّابقة والجديدة). حياتي بكلّ ما اجتَذَبَتْه، وخَبَرَتْهُ، وفَسَخَتْه.

كنتُ أغسل الأواني وأرتّب المطبخ قبل أن أنام. كانت الصّراصير والنّمل برفقتي. وبصفةٍ عامّة، فإنّ الخادمات يَنَمْنَ بالمطبخ، حتّى لدى العائلات الكبرى. بذلك النّفْي، كانت الجلاّسة تؤشّر إلى وظيفتي الحقيقية وإلى حدود عملي وكلامي.

لم يَدُمْ ذلك الوضع طويلاً. فقد زارني القنصل ذات ليلة وطلب منّي أن أعود إلى غرفتي. وقد رفضتُ فألحَّ ثم قال لي :

- إنه أمر !

- أختكَ...

- نعم أعرف. لقد حدثُتها في الأمر. وهي نادمة. إنها ليست على ما يرام في هذه الآونة. فقد عاودها داء مفاصلها، وهي سيئة المزاج.

- أنا أطيع أختك. هي التي وضعتني هنا، وهي التي عليها أن تعيّن لي مكاني الجديد في هذه الدّار.

- معك حق. أحيانا ينبغي وضع العقل جانباً. أطلب منكِ هذا...

وبعد صمتٍ أحسستُ خلاله بأنه كان يبحث عن كلماتٍ مناسبة لكي يُبْلِغَني أمراً ذا شأن، أضاف :

- لا أُحِبُّ أن أعرف بأنّك بعيدة، في هذه الحجرة التي تنبعث منها رائحة الدّهن والطواجن البائتة المُسَخَّنَة.

في تلك اللّحظة ظهرت الجلاّسة، محلولة الشَّعر، وسيماء العياء بادية عليها :

- معه حق. لا تبقَيْ هنا.

ثم اختفت.

فوق السَّطح، كانت هناك المائدة الصغيرة، وفوقها سَبْسِي، وبرّاد، وكأسان. لقد دعاني إلى مرافقته. وتكلّم طوال شطرٍ كبير من الليل :

- رأيتُ بُلْداناً عجيبة كانت الأشجار فيها تنحني لِتُظَلِّلَني، والسماء تَمْطِر بِلَّوْراً، وطيوراً مختلفة الألوان تسبقني لترشدني إلى السَّبيل، والرّيحُ تحمل ليّ العطور، بلداناً شفافة القشرة انزويتُ فيها ساعات وأياماً. لقد التقيتُ فيها بأنبياء نفوسُهم فرحانةٌ، وأصدقاء الطّفولة الذين غابوا عن بصري، وصبايا عشقتهن حين كنتُ صغيراً؛ وتجوّلتُ في حديقةٍ غرائبيةٍ لا حاجز عليها ولا حارس. وقد مشيتُ فوق نيلوفراتٍ بسعة إحدى الزرابي. ونمتُ على مقعد دون أن يزعجني أحد. كان نومي هنيّاً، أعني عميقاً، كثيفاً ومهدّئاً. لم يكن يخامرني أدنى قلق. كنتُ في سلامٍ مع نفسي ومع الآخرين. لكن، الحقّ أقول لكِ، لقد تمّ طرد الآخرين من تلك البُلْدان. لذلك أَلْفَيْتُها عجيبة. كان النّاس يمرّون دون أن يتوقّفوا. كانوا في عجلةٍ من أمرهم. أمّا أنا، فكنتُ أسير بتؤدةٍ، مندهشاً أمام الألوان البديعة التي كانت تزدحم بها السّماء عند الغسق. كنت ألاحظ بأنّ النّاس يمضون جميعاً في نفس الاتّجاه. وقد تبعتهم عن فضول، وأيضاً لأنّه لم يكن لديّ أمر مُحدّدٌ أقوم به. كانوا يتوقّفون جميعاً أمام عنبر هائل خارج المدينة. حوله لم تكن هناك منازل، ولا أشجار، ولا مروج. كان العنبر، المطلي باللون الأزرق، ينتصب وسط بقعة جرداء شاسعة. كان النّاس يدخلون إليه من باب ويخرجون من باب آخر، محملين بِرُزَمٍ صغيرة. كان أمراً غريباً. فوقفتُ في الصّف مثل الجميع دون أن أعرف عِلّة ذلك. ما أثار انتباهي أيضاً هو أنّ النّاس كانوا مُهَذّبين. فكما تعرفين، يُعْتَبَرُ الحِسُّ

الاجتماعي بالأحرى نادراً عندنا. وبمجرّد وصولي إلى باب المدخل، رأيتُ يافطاتٍ هائلة فوق رفوف كبيرة. وكانت كل يافطةٍ تحمل حرفاً أبجديا. لقد كان ذلك العنبر مُسْتَوْدَعاً للكلمات. كان قاموس المدينة. يأتي النّاس إليه ليتموّنوا بالكلمات وحتّى بالجُمل التي يمكن أن يحتاجوا إليها خلال الأسبوع. ولم يكن هناك البُكْمُ أو التُّمْتَامُون فحسب؛ فقد كان ثمة كذلك أولئك المعروفون بالكلام دون قول أي شيء، الذين يكرّرون أنفسهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك؛ وكان هناك الثرثارون الذين تنقصهم الكلمات؛ والذين كانوا يَصِلُون بكلمةٍ على طرف اللسان وينظرون إلى أنفسهم في المرآة للعثور على الكلمة إياها؛ والذين غالباً ما كانوا يفسّرون اليافطات بشكل معكوس فيُخْطِئون الرّف؛ وقد كان هناك دليلٌ يأخذ بأيدي هؤلاء؛ وكان ثمّة أيضاً بعض الذين كانوا يحبّون الخلط بين مقاطع الألفاظ؛ إذ كانوا يدّعون ابتكار لغة جديدة. على كل حال. كان العنبر أشبه ما يكون بِقِدْرٍ تحت النّار. وقد تجولتُ عبر الأروقة. كانت هناك كلماتٌ مكدّسة، وقد علتها طبقةٌ من الغبار. إذ لم يكن أحد يستعملها. كانت توجد منها أكوام تصل حتّى السّقف. وقد قلتُ في نفسي إما أنّ هذه كلماتٌ لم يعد الناس بحاجةٍ إليها، أو أنهم أخذوها بصفةٍ نهائية وخزنوها عندهم. لقد خرجت من العنبر من خلال باب الخدمة، المختفي في الحائط برفوف وضعت عليها الكلمات المتكسّرة، التي أصابها التّلف وكذا كلمات قديمة بالية جِداً لم يعد يستعملها أحد. أدعكِ تحزّرين هذه الكلمات، مثلما أمرّ في صمتٍ على الكلمات النّابية المُودَعة في زاوية مظلمة ومغطاة بحجاب قاني الحمرة. وكما يحدث في القصص العجيبة، لمّا دفعتُ الباب، وجدتُني في قَبْوٍ شاسع، مضاء بنورٍ وهّاج تتجوّل فيه نساءٌ سمراوات، وشقراوات، وصهباوات، نساء شابّات، كلّ واحدةٍ منهن تمثل نموذجاً من الجمال، وبلداً، وعرقاً، وحساسية. كن يذرَعْنَ القَبْوَ جيئةً وذهاباً ولكن دون أن تُكلّم إحداهن الأخرى. كانت بعضهن جالسات وغافيات. وكانت أُخْرياتٌ يهتززن وخُدَهُنّ، متباهياتٍ بالمنتوج الذي يَحْمِلْنَهُ داخلهن. إنّ ذلك المجال الشاسع تحت الأرض كان خزانة المدينة. لقد دنَتْ مِنّي امرأةٌ بهيةٌ وطفقت تقول : «كنتُ قد أنهيتُ دراستي في سن الثانية والعشرين بجامعة غوتينج. وكان في نية أبي، وزير النّاخب (هنيهة صمت)، أن أسافر إلى أروع بلدان أوروبا...» ثمّ، بعد أن توقّفتْ برهة، أضافت : «أنا أدولف... خذني، أنّني قصّة حب؛ تنتهي بشكل سيّء؛ هذه هي الحياة...». طبعاً فكّرتُ فوراً في قصّة ذلك البلد الخيالي الذي أُحْرِقَتْ فيه جميع الكُتُب، والذي كان على كلّ مواطنٍ فيه أن يحفظ كتاباً عن ظهر

قلب تأبيداً للأدب والشّعر. لكن هناك، كان الأمر مختلفاً. فلم تكن الكتُبُ ممنوعَةً ولا كانت تُحْرَق. لكنّ شركةً كبيرة وظّفَتْ نساء جميلات ممن يحفظن عن ظهر قلب روايةً، أو حكايةً، أو مسرحية، فيقترحن أنفسهن، مقابل مبلغ مالي، للمجيء عندك للقراءة، أو بدقة أكثر، ليقُلْنَ الكتابَ الذي حفظنه. لقد كانت سوقاً سرّية دون ريب. وقد جعلوني أؤدّي ثمن تذكرة بالمدخل. كانت هناك امرأة من سِنٍّ مُعَيَّن تجلس على تخت. لم تكن جميلة، ولكن كان في نظرتها ما ينمّ عن الغرابة والجاذبية. عندما دَنَوْتُ منها قالتْ لي : «أنا رسالة الغفران، كتاب لم يقرأه حقّاً غير قِلَّة من النّاس، كُتِبْتُ عام 1033، وكان مُبْدِعِي قد وُلِدَ بمَعرة النعمان، شمال سوريا، في منطقة حلب... أنا كتابٌ صعب يتحاور فيه الموتى، وتُصَفّى فيه الحِسَاباتُ بهجاءات شعرية، وفيه تطول الإقامة في الجنّة على الإقامة في النّار...». كانت تلك الخزانة البشرية مزدحمة جِداً. حتّى أنّه كانت هناك صَبِيّة تتمايل فوق أرجوحةٍ وتتلو عُوليسَ :

لن تتجاوز الساعةُ التاسعةَ...». وفي حجرةٍ مُزخرفة على الطريقة الشرقية، كانت هناك حوالي عشر نساء جميلات، مرتديات جميعا زيّ شهرزاد، وقد اقترحت كل واحدةٍ منهن أن تحكي قسما من **ألف ليلة وليلة**. كان العجب العجاب. لقد سبق أن قلتها لك في البداية، كان بلدا خارقاً. وكانت تلك الخزانةُ أعجوبة. عند مغادرتي لها، دنا منّي رجل مسن، يلبس الأبيض، وهمس في أذني : «إنه لمن الرجس التطابقُ مع عمل مّا. أية وقاحة في أن يعتبر المرء نفسه **أيام** طه حسين، أو **الكوميديا الإنسانية** لبلزاك ! أنا لست سوى قارئ، قارئ بئيس للقرآن... هل تتخيل جسامة الهرطقة التي سأقترفها لو أنني اعتبرت نفسي الكتابَ الكريم... مثل تسليم مفاتيح العالم والتعاطي للحمق المطلق... بعد هذا إذا كنت بحاجة إلى أحد ليقرأ بعض الآيات على قبر أهلك، فأنا من يخدمك...». إنه بلد عجيب. بلدٌ مضاءٌ بأنوار لَيَالِيٍّ المجللة بالسُّهاد. وعندما أغادره، أغدو حزيناً. فأتوق إليه في كلّ مرة أشرع فيها عينيّ على العتمات الأبدية. إنّ إرادتي وحدها ورغبتي لا تكفيان لكي تنفتح أمامي من جديد أبواب ذلك البلد. لا بد من حالة نعمة، من استعداد خاصٍّ لهذا. والواقع، أنّ ذلك البَلَد هو الذي يأتي صوبي. هو الذي يزورني بحدائقه، وقصوره، وسراديبه التي تعجّ بحياة خارقة. إنّه سِرّي وسعادتي. لكنني أعترفُ بأنّ هذه الأشكال من السّراب ترهقني أحياناً. إنها تنهكني بجمالها الخيالي. لكن هذه هي الحياة. ومنذ وجودك بالدّار قلّتْ حاجتي إلى الذهاب للضياع

في متاهات ذلك المجال المتحرك. قد تكونين سليلة ذلك البلد ؟ لقد سبق أن طرحت السؤال على نفسي. أقول هنا بسبب عطر حضورك. إنه ليس عطراً صادراً عن قارورة، بل يتضوّع من جلدك. هذا هو العطر الوحيد للكائن. موهوبٌ بشكل خاص في شمّ هذا الدّليل. سامحيني. فقد تكلّمتُ طويلاً. واستغللتُ صبرك. قد يكون غلَبكِ النُّعاس. حتّى الشاي لم نشربْه. لقد صار بارداً. ليلة سعيدة !

نمت دون عناء، وطوال اللّيل حلمتُ بالبلد السّحْري. كان كلُّ شيء فيه مُتَوَهّجاً، لكنني لم أعثر على طريق الخزانة.

10

نَفْسٌ مُنْكَسِرَةٌ

في البداية لم ألاحظ أو بالأحرى لم أكن أريد أن أرى بأنْ وجه الجلاّسة كان مخرّباً بالكراهية. كراهية الذّات، أكثر من كراهية الآخرين. لكن كان من الصعب تبيُّن ذلك. لقد كان بالإمكان أن تقرأ عليه، خاصّة عندما يكون نائماً، آثار إخفاقات عديدة. إنّ ذلك الخراب لم يكن قِناعاً بل مكابدة يومية. وحدها ممارسة الكراهية كانت تحمي تلك المرأة من الانهيار البدني وتردُّ عنها الموت. موت لن يسبّبه دمار الجسد بل يأس هائل، أسى وعجز لا نهائي يقود إلى الظلمات.

ذات ليلة بعد العشاء، بينما كان القنصل يضرب على الآلة الكاتبة، قدمَت الجلاّسة نحوي واقترحت علي أن أشرب شاياً معها فوق السطح، قلتُ لها :

- الشاي يمنعني من النوم.

- إذن سأُعِدّ لكِ لُويزَة، لكن ما سأقوله لكِ سيطرد عنكِ النَّوم.

- ماذا ستقولين لي؟

- لا تخشَيْ شيئاً ! سأقول لكِ مَنْ أنَا. هذا كلّ ما هناك. وعندما ستعلمين مَنْ تسكُنُ خلف هذا الوجه، سيذهب ربّما عنكِ النّوم.

قامَتْ بنفس حركات القنصل، فأعدّت الكِيفَ، ودَخّنْتْ سَبْسِيَيْن أو ثلاثة، ثم شرعت في الكلام. كنتُ اشربُ لُويزَتي وأُنصِتُ إليها، في البداية لأنّني كنتُ مُرْغَمَةً على ذلك، وبَعْدها لأنَ الأمْرَ كان رهيباً. كانت تتكلّمُ أسرع من المُعْتاد وتلوذُ أحياناً بفتراتِ صمتٍ طويلة :

ـ أعرف ما تُرَوِّجينه عنّي في ذهنك. لا تُرَوِّجين شيئاً، أو في كلّ الأحوال لا تُرَوِّجين شيئاً سيّئاً. ليس بَعْد. إنّك تُحيّرينني بصبرك، حتّى ليمكن القول بأنّه نوع من اللامبالاة أو السّلبية. أحياناً يثير أعصابي هذا الشُّعُور. لكن لا يهم. اعلمي بأنّني أعرف مَنْ أكون. فعلى الأرجح، كانت ولادتي غَلْطَةً. إذْ عندما كنتُ صغيرةً ـ وُلِدْتُ ذَميمَةً وبقيتُ كذلك ـ غالباً ما كنتُ أسمع أحدهم يقول عنّي : «ما كان على هذه الصّبية أن تكون هُنا». «هذه الصّبية وليدة الجفاف». كنتُ طِفْلَةً مُعِيقَةً، ولم أكن أبداً في مكاني. كان جسدي المُتْعَبَ زائِداً. وحيثما كنتُ أذهبُ كنتُ أرى القنوط والخيبة على وجوه النّاس، وخاصّةً منهم الكبار. مبدئياً لستُ شرّيرة. فقط أُدافع عن نفسي. وحتّى عندما لا يرتكبُ أحَدٌ شيئاً في حقّي، أُدافع عن نفسي. إنها قاعدةُ سلوكٍ. ألاّ أستسلم. وأن أكون متقدّمة على المؤاخذات والاغتيابات. لذا لا يغربُ عنّي شيء. لقد أقصاني الأطفال منذ البدء من ألعابهم. لا أحد كان يرغب في هذا الوجه الذي لا رواء فيه. لقد كنتُ أفهم الّذين كانوا يتضايقون لأنّ حضوري كان يزعجهم. كان والداي تعيسَيْن. يحملان الانكسار على الوجه. وكنتُ أنا انكسارهما الخاص. لقد أنجبا طِفْلاً ثانياً للتغلّب على ذلك الانكسار. وعندما ازداد أخي أقاما حَفْلاً كبيراً. كانت بالنّسبة لهما نهاية الجَدْب. لكنّ أخي البئيس صار أعمى بعد أن أصيب بالحصبة. وعاد الشّقاء من جديدٍ إلى تلك الأُسْرة. لقد أحسستُ بنفسي مسؤولةً. فقد كان ذلك الطّفلُ هو النُّور واللّطافة في دارٍ لم تكن أبداً تعرفُ الضّحك ولا اللّهْو. ثُمَّ في بضعةِ أيّامٍ حُرِمَ نهائياً من النُّور. لقد كانت المرَّة الأُولى التي سمحتُ فيها للدُّموع بالانسياب على وجهي. كانت الطّعنةُ قد أصابَتْ قلبي. لم تُصِبْ وجهي الذي ظَلّ محتفظاً بنفسِ السّمات. إنني لا أُحِبُّ النّاس الّذين يبكون. فلكي يبكيَ المرء لا بُدَّ أن يكون قد نال قَدْراً من الحنان. وأنا لم أنل شيئاً أبَداً. لقد فهمتُ، من خلال تلك المصيبة التي اعتبرتُها أعظم من مصيبتي، بأنّني وُلِدْتُ مِنْ خسارة. لقد سقطتُ مثل المطر الضّار، ذاك الذي لا ينتظره أحد، ذاك الذي يُخْشَى لأنّهُ يُتْلِفُ البذور. ووفّرْتُ كُلَّ طاقاتي لكي أجعل الأبرياء يؤدُّون ثَمَن صُدْفَةِ تلك الولادة، أعرف هذا : فوجهي مثل رَسْمٍ مائي مَرّتْ عليه خِرْقة. وجهي في غير موضعه. وكلّ ما لديّ مائِل، الجسد وما بداخله. لقد اختزنتُ من الكراهية ما يجعلني بحاجةٍ لحياتَيْن على الأقل حتّى أتمكّنَ من صَبّ كل شيء. لكنني أعترف لكِ بأنّ الكراهيّة لا تلائمني تماماً. لأنه لكي يكرهَ المرءُ، لابُدّ له أن يُحِبَّ، ولو بقدْرٍ ضئيل. وأنا لا أُحِبُّ أحداً، بدءاً بنفسي. طبعاً إنّ ما أُكنّه للقنصل يتعدّى الحُبّ. إنّه

تنفُّسِي، ضربات قلبي. لكنّه لا يصلُح للعيش. فقد كان كافياً أن تدخلي إلى هـذه الـدّار لكي يبتسم من جديد. كان الجو قبل ذلك خـانقـاً. بل إن القنصل كـان قـد صـار عـدوانيـاً، عنيفـاً وظالِماً. لذلك ما إن رأيتُكِ، ضائِعَةً ودون روابط، حتّى اقترحتُ عليـكِ المجيء للسّكن معنـا. لستُ حتَّى في حاجةٍ لأن أعترف لـك بهـذا، فـأنتِ تعرفينـه. لقـد أدخل حضورُكِ بصيصـاً من النّور إلى هذه الدّار. أنتِ بريئة. لكنني لستُ كذلك. فقد تركتُ أبويّ يموتان. بل أعتقد أنّـه لم يكن هنـاك أحَـدٌ عنـد دفنهمـا. كنتُ قـد غـادرتُ الـدّار مع أخي حـامِلَـةً الأغراض القليلـة الثمينة، وقد تركتهما مع عجوز مجنونـة. ثم انصرفتُ. دون تردُّدٍ. دون أن أذرف دمعـةً واحـدةً. لقد أفرغْتُ حياتي من كلّ ما يمكن أن يُشْبِه الأمل. ومنذ ذلـك الوقت، وأنـا أُدَوِّم، مع بقـائي جالسة. كَبُر أخي في حضني. وقد صرتُ عينيـه. لقـد اشتغلتُ بلا هوادة لكي لا ينقصـه شيء. وأنا لا أطلب اعترافاً بالجميل. إنّني أخاف من فقدانه. فساعديني حتّى لا أفقـده. إنّني أستشعر النكبة. ولستُ مستعدَّة للمصيبة. إلاّ أنني أراها ترتسم في البعيد، مثلمـا أرى شخصـاً مّـا، ظِلاًّ، وربمـا رَجُـلاً، أو بـدقَّـةٍ أكثر امرأةً متنكِّرةً في هيـأة رَجُـلٍ، تسير على طـول تلـك الطَّريـق، بمفردها، تحت غسقٍ زهيد؛ أعرف، أُحسّ بأنّ ذلك الظّل قادرٌ على وَقْفِ المصيبة. لستُ عرَّافَةً لكن لديّ أحياناً استشعـاراتٌ قويَّـة جـدّاً بحيث يغـدو كلُّ شيء جليـاً في ذهني. ذلـك الظّل ملامح. لقد أرسلكِ القَدَر ولا نعرف مَنْ تكونين، ولا مِنْ أيْنَ جِئتِ أو ماذَا يروج بـذهنـك. إنَّ القنصل يبدو سعيداً معك. على كلّ حال، ينفعه حضورك. إنني مضطرَّةٌ لاستبقائـك بمـا أنّـك عرفت كيف تُعيدين لأخي الرّغبة في الابتسام والكتـابـة. فقـد انصرمَتْ أشْهُرٌ دون أن يستعمل آلته الكاتبة. لا أعرف ماذا يكتب. لكنّ ذلك هامٌّ دون ريب. فإذا طلب منـكِ أنْ تُرافِقيـه إلى مكانٍ يدعوه بـ «الرّوض العاطر»، فلا تنزعجي وبالأخص لا ترفُضي. إنّه يذهبُ إلى هنـاك مَرَّةً في الشهر تقريباً. فيما مضى كنتُ أُرافقه. لكنَّه لم يعد يُحبّ حالياً أن يظهر معي. إنَّـهُ يخجل من أُخْتِه التي تقضي حياتها جالسةً بمـدخل الحمَّـام. لم أعُـدْ حـارسـةَ أسرار. بل أحرس ملابس بالية. هذا كلّ ما هنـاك. وليس ثمَّـة مـا يمكن أن يجعلني فخورة. فـأنـا أُمـارِس مهنـةً سيِّئـة السُّمْعة. وأنتِ ماذا كانت مهنتكِ قَبْل مجيئكِ إلى هنا ؟

توقَّفَتْ بُرْهَةً، وحشَتْ سَبْسِياً بالكِيفِ ثمّ مدَّتْهُ لي قائِلَةً :

بهذا ستتكلَّمين... إنّهُ يُساعد... إنّه يُحرِّر !

دَخَّنْتُ. وعندما ابتلعتُ الدُّخان أحسستُ بِصُدَاعٍ وسعلتُ. كانت عيناها مليئَتَيْن بالقلق واللهفة.

ـ أُريد أن أعرف. أُلحّ على ذلك. من أنتِ ؟ أيّ شيء مُعجز تحملينه داخلك ؟ كيف أفْلَحتِ في رَدّ الحياة لمحتضر ؟

هكذا كنتُ أعرف منها ما أمكن لحضوري وحده أن يثيره في ذلك الرّجُل الذي كان يختنق في دار العتمات تلك. كنتُ أنا بنفسي مندَهشةً. وقد أُلحّتْ مرّة أُخرى إلى حد التوسُّل إليّ بأن أتكلّم. لم يكن لديّ ما أقوله. فانخرطَتْ في التّحسُّر والبكاء. ولكي أضع حداً لذلك الوضع المُضْحِك قَبِلْتُ بأن أقول بضع كلمات :

ـ قبل أن أصل إلى هذه المدينة، حظيتُ بامتياز الاستحمام في عينِ ماءٍ ذات فضائل استثنائية. إحدى تلك الفضائل حيوية بالنسبة إلي هي فضيلة النّسيان. لقد غسلَ ماءُ تلك العَيْن جسدي ونفسي. ونَظّفهما وبالأخصّ أعاد ترتيب ذكرياتي. أي أنّه لم يحتفظ من ماضيَ سوى بالنّزر اليسير؛ فظلّتْ ثلاث ذكريات أو أربع وحدها ثابتة. أمّا الأُخْرى فتلاشَتْ، ومحلّها أرى أنقاضاً وضَباباً. كل شيء ملفوفٌ في غطاء بالٍ من الصُّوف. فللوصول إلى تلك العين، لابُدّ من التجرُّد من كلّ شيء والتخلّي عن الحنين نهائياً. لقد أتلفتُ أوراق هُويتي وتبعتُ النَّجمة التي تخطُّ طريق قدري. وهذه النَّجمة تتبعني إلى كلّ مكان. يمكنني أن أُرِيهَا لكِ إذا شِئْتِ. إنّ يوم انطفائها سيكون هو يوم مماتي. لقد نسيتُ كلّ شيء : الطُّفولة، والأهل، والاسم العائلي. وعندما أَنْظُرُ إلى نفسي في مرآةٍ، أعترفُ بأنّني أُلفِي نَفْسِي سعيدة، إذْ هذا الوجه هو الآخر جديد عليّ... لقد كان يتعيّن عليّ أنْ يكون لي وجهٌ آخر. ومع ذلك هناك أمْرٌ يُقلقني : إنّني مُهَدَّدة باللامبالاة، بما يُسَمّى صحراء الانفعالات. إذا لم أعد أحسّ بشيء، سأذبل وسأندثر. فلسنا، القنصل وأنتِ وأنا، بأُناسٍ عاديين. إذن من الأفضل أن نضحك... لأنّنا عابرون لا غير... فلا ينبغي أن نسمح للزّمن بأن يَسْأم في حضورنا؛ لنتصرّفْ بحيث نُرضيه بعض الشيء؛ بقليلٍ من الخيال، باللّون مثلاً؛ إنّ القنصل يعشق أشكال الرّقة التي للألوان؛ وليس مُدْهِشاً أن تكون هذه العاطفةُ نابعةً من أحد العميان...

لقد كان لأقوالي مفعولٌ مُهَدّئٌ في الجَلاّسة. كانت تنظر إليّ وأنا أتكلّم بعينين مُبلّلتين بالدُّموع. كانت قد فقدتْ ذلك المَلْمَحَ القاسي الذي كانت تُظْهِره. ولم تعد تبدو على وجهها الكراهيةُ التي كانت تقول بأنّها مُشْبَعَةٌ بها. كنتُ قد أفلحتُ في تلطيفها وتحريك شعورها.

مع أنّي لم أقل لها شيئاً مُؤثِّراً حقاً. وبعد لحظةِ صمتٍ، ارتمَتْ على يديَّ وأشْبَعَتْهما تقبيلاً. كنتُ متضايقَةً. وقد حاولتُ سَحْبَهما لكنها كانت تُمْسِك بهما. كانت قُبلاتها ممهورةً بالدموع.
كانت تعتذر :

ـ أستميحُكِ عُذْراً. سامحيني لكوني خاطبتُكِ بلهجةٍ عنيفة. فأنتِ ملاكٌ مُرْسَلٌ من طرف الأنبياء. ونحن عَبْدَاكِ...

لكي أوقِفَ ذلك المشهد المُضْني، أطلقتُ صرخةً :

ـ كفى ! لستُ ملاكاً ولستُ مَرْسولةَ أحَد ! انهضي !

كان ضجيجُ الآلة الكاتِبة يُسْمَع بانتظام، كما لو أنّ القنصل كان يطبع دائماً بإصرار نفس الكلمة.

١١

فَوْضَى المَشَاعِر

استعصى عليَّ النَّوم. كنتُ أسمع الجَلاَّسة تبكي في إحدى الزَّوايا بينما كان القنصل يذرع غرفته ذهاباً وجيئة. لقد عنَّتْ لي لحظةً فِكْرَةُ الرَّحيل عن تلك الدَّار وتجريب حظّي في جهةٍ أخرى. لكنَّ شيئاً ما كان يسبتقيني. كان هناك طبعاً اهتمامي بالقنصل، والبلبلة التي كان حضوري يُوَلِّدُها بداخلي. وكان هناك أيضاً استشعارٌ حادٌّ جِداًّ، فحيثما ذهبتُ لن تكون لي سوى علاقات مُضْطَرِبة، ولن ألتقي بغير أُناسٍ غريبين. بِقُوَّةٍ كنتُ مقتنعةً بأنَّ تلك الأُسرة أو بالأحرى ذينك الشخصين مُقَدَّران لي. لقد كانا في طريقي. كان من الضَّروري أن أدخل إلى تلك الدَّار وأن تثير طبيعتي القلاقِلَ بها. في الوقت الحاضر، كانت ثمَّة فوضى في المشاعر. لا شيء كان واضحاً. مَنْ كان يُحِبُّ مَنْ ؟ من كان في مصلحته إدامة ذلك الوضع ؟ كيف الخروج من هذه الدَّار بدون مأساة ؟

هكذا علمتُ بأنَّ الجلاَّسَةَ كانت ترفضُ منذ أَمَدٍ طويل دخول النِّساء إلى الدَّار. لقد كانت تحتفظُ بشقيقها، عن غيرةٍ، تحت سلطتها. وكان هو يتمرَّد لكنه كان بحاجةٍ إليها. أعتقد بأنَّني وصلتُ إلى تلك الدَّار في اللحظة التي كان التَّوتر على وشْكِ الانفجار والإفضاء إلى مَا لاَ تُحْمَدُ عقباه.

لقد صرتُ، أنا الخارجة من غياب طويلٍ، ومن مَرَضٍ، نافعةً. كانت الجلاَّسة مُخْتَلَّة بالتَّأكيد. فقد كانت تُبْطِنُ كراهيةَ الرِّجال وتَخُصُّ شقيقها بِحُبِّ العالم كُلِّه. ومن حين لآخر كانت تتحدَّثُ عن سائق شاحنةٍ كان يضربُ لها مواعيد في أمكنةٍ غريبة مثل فُرْن الخبز المتاخم للحمَّام، أو معمل أحد الخزَّافين بضاحية المدينة. وفي إحدى المرَّات، تلاقيا قُبَيْل

منتصف الليل بأحد المساجد. لقد كانا كلاهما متدثرين في جلابتين رماديتين، فلم يلاحظهما أحد. وقد ناما، متشابكين، وفوجئا في الصباح الباكر عند صلاة الفجر. ففرّا مثل لصّين. منذ ذلك الوقت اختفى سائق الشاحنة وانتهت الجلاّسة إلى الكفّ عن انتظاره. وعندما كانت تهذي، كانت تحكي هذه القصّة مراراً وتزعم بأن القنصل كان ثمرة تلك الحكاية الغزلية ! فلعدم استطاعتها تقديمه كلقيط، كانت تقول بأنّه شقيقها. كلّ هذا كان خاطئاً. فقد كانت تقول ما عنّ لها.

في اليوم التّالي أوشك حادثٌ جديدٌ على مُفاقمة التّوتر الذي كان يشدّنا إلى الحياة. فقد عاد القنصل متأخّراً. كان مُتْعَباً ومُهْتَاجاً من شيء مّا. وقد هرولت الجلاّسةُ لمساعدته على نزع جلاّبته. قام بحركةٍ من يده ليصدّها، لكنّها أفلحت في تجنّبها وفي بضع ثوانٍ كانت الجلاّبة بين يديها. ثمّ ذهبتْ إلى المطبخ لِتُسخّنَ الماء لتمسيد القدَمَيْن. أنا لم أتحرك، وبقيتُ أنظر إلى المشهد. كان حانِقاً :

- لقد تعرّضتُ للسخرية ! هذا لا يُحْتَمَلُ مُطْلَقاً !

خلع نظّارته السّوداء ومسحها بعصبية.

- القَذِرات ! لقد دَسَسْنَ لي العوراء... نعم، تلك التي لا يرغبُ فيها أحد.

من المطبخ تدخّلتِ الجلاّسة :

- سيعلّمك هذا معنى الذهاب إلى هناك بدوني. لو كنتُ هُناك لما تصرّفْنَ على ذلك النّحو. طيب، اجلس، الماء ساخن.

جلس القنصل على أريكته. وقَدِمتِ الجلاّسةُ بِدَسْتِ الماء السّاخن وقد وضعت على كتفها فوطة. ثم جثت على ركبتيها وأخذتْ بين يديها القَدَم اليُمنى. وبمجرّدِ لَمْسِ القَدَمِ للماء، نَدّتْ عن القنصل صرخةٌ، وبحركةٍ مباغتة أوقع أخته أرضاً. فانقلبتْ وأوشكتْ على نَقْرِ طرف الطاولة برأسها :

- الماء مُحْرِق ! وقد قمتِ بذلك عَمْداً. تريدين معاقبتي على ذهابي إلى هناك. انصرفي. لا أريد أن أراكِ ثانيةً. من الآن فصاعداً ستكون المَدْعُوَة هي التي تمسد لي قدميّ.

وقد غيّر من لهجته وسألني إن كنتُ أُريدُ حقّاً تأدية تلك الخدمة له.

رَمَتْنِي الجلاّسةُ بنظرةٍ صاعِقَة. فأحسستُ بالشّفقة تجاهها. كانت تعيسةً لأنّها جُرِحَتْ وأُهينَتْ. ثمّ قالت لي :

ـ هيا، سيكون ذلك أفضل !

في الحقيقة، لم تكن لديَّ أيّة رغبةٍ في تمسيد قَدَمَيْ ذلك الدكتاتور الصَّغير. لكن كيف أرفضُ له ذلك دون أن أُفَجّرَ أزمةً جديدة ؟ اقتربتُ منه، ودون أن أرفع صوتي قلتُ له :

ـ هذه المرة تتصرّف بمفردك ؟

ثم تركته واضِعاً قَدَميه في الدَسْت، ولحقتُ بالجلاَّسَةِ في المطبخ. كنتُ قد فهمتُ عِلَّة حنقها، لكنني كنتُ أريد معرفة المزيد.

ـ تريدين معرفة كلّ شيء !

ـ نعم، أجبت.

ـ كلّ هذا مردُّه إلى خطئي. فلم أرفض له أبَداً أيَّ شيء. كنتُ أُنَفّذُ كلَّ نزواته. ومنذ وجودكِ هنا وهو يروم الاستغناء عنّي... يودُّ لو تأخذين مكاني... لا ألومك. لكن اعلمي بأنّه شخصٌ لا يُتَوَقّع. فمن الأفضل ألاّ تُحبّيه، أن تضعي بينه وبين بقية العالم حجاباً واقِياً.

جَلَسَتْ على كُرْسِيٍّ وأخذتْ تكلّمني بصوتٍ خفيض :

ـ في البداية كانت مرّة في الشهر، بعد ذلك صارت مرّتين، ثم ثلاث مرّات. كان يُرْغِمُني على مُرافَقَته. كنتُ أصِفُ له النّساء. طبعاً كان ذلك يُضايقني كثيراً. كنّا ندخل من بابٍ سِرّي. ومن حيث المبدأ لم يكن يرانا أحَدٌ. لقد كانت المعلّمة متفهّمةً. كانت تُجلسنا في حجرةٍ وتعرض علينا الفتيات. وكان دوري يتمثّل في الإجابة عن أسئلةٍ دقيقة، من نوع : لون البَشَرة، لون العينين، هل لها أسنانٌ ذهبية ـ إذ أنّه يمقتُ الأسنان الذّهبية ـ استدارة الصّدر، استدارة الخصر، الخ. وكنتُ أقوم بواجبي. بعد ذلك، كنتُ أنتظره في الشارع. كانت أشقُّ اللحظات عليَّ هي انتظار القنصل ريثما يُرضي رغبته. وكان الأمر يستمر أحياناً وقتاً طويلاً. كنتُ أُفكّر فيه، وأفكّر في حياتي، وكان ثمّة طَعْم مُرٌّ في فمي. كانت كل مرارة العالم تتجمّع في لُعابي. وكنت أقول لنفسي : «حَسْبي أن يكون مُرْتَاحاً». بعد ذلك، كان يسودُ الدّارَ سلامٌ ورِقّةٌ رائعان. كان يعود وديعاً، منتبهاً وحنوناً، فكنتُ أُبارك المرأة التي هدَّأتْه. وقد فَكّرتُ يوماً في أن أجد له امرأة للزّواج فرفض. لقد فهمتُ بأن متعته تكمن في ذلك التّنقل معي إلى ذلك المكان المُحرَّم. وفهمت بأنَّ العميان بحاجةٍ لأن يعيشوا أوضاعاً ملموسةً لإشباع خيالهم، ذلك أنَّ الصُّوَرَ لا توجد بالنّسبة لهم، على كلّ حال ليس كما هو الشأن عندنا. وبتوالي الأيّام، أخذتُ أستمتع بمرافقته وبمشاركته في اختيار المرأة التي سَتُبْهِجُه. لكن منذ

وجودكِ هنا، وهو يذهبُ عند البنات دون أن إخْطاري. وأنا أفهم : إنَّهُ يروم التَّحرُر، ولم يعد يرغب في أن أكون عَيْن شَهْوتـه. هـذا الأمر لم يكن ليستمر. فقـد كنتُ في الواقع عين الإثم. ثُمَّ إنَّ هذا النَّوع من الأوضاع لم يكن مما ينبغي وجوده بين أخ وأُخت. لكن ثمَّة بيننـا كثير من الأُمور التي ما كان ينبغي أن تكون... فعنـدمـا كـان صغيراً، كنتُ أغسل لـه. كنتُ أُمرِّر عليه الصَّابون؛ وأفركه؛ وأُنَظِّفه؛ وأُنشفهُ. كان مثل دميةٍ بين يديَّ. وكـان يجـد في ذلـك متعـةً جلية، حتَّى اليوم الذي صـارت هـذه المتعـة، كيف أقول لـك ؟ صـارت هـذه المتعـة مسبوقـةً بشهوةٍ. كان يأتي ويضع رأسه على صدري، كان يلتصق بي. وجهه يحمرُّ، وعيناه المفتوحتـان عيْنَا رَجُل ضـائعٍ، تـائـهٍ في الصَّحراء. كـان يقول لي : «أرغَبُ في أن تغسلي لي...». لم يكن طِفْلاً. كان يبقى بمفرده في بيت الماء مُدَّةً طويلـةً. بعـد ذلـك، كنت أذهب لأُنظِّفَ الأرض. ولا أعرف إن كـان قـد بَـالَ أو قـام بشيء آخر، لكنَّني كنتُ أجـد قـاذوراتٍ في كـلّ مكـان، تقريباً مثلما كنت أجـد في الحمَّام في نهـايـة الصَّبحيـة بعـد اغتسـال الرِّجـال. لم أكن أتفوَّه بكلمة. لم أكن أتفوه بكلمةٍ أبداً. كنتُ سأفعل أيَّ شيء من أجل سعادته. وحتَّى اليوم بإمكـاني القيام بسفالاتٍ لكي أحتفظ به. لكنَّكِ جئتِ. أنتِ مُنْقِذَتُنَا، الملاكُ الذي صار مُطِّلعا على كلِّ شيء. إمَّا أن تلعنينا أو تنقذينـا. ملاكٌ مُبيـدٌ سيُرتِّبُ هـذا النَّسيج العنكبوتي. أو ستتحوّلين من نَجيَّةٍ إلى متواطئة. لاشيء لمن يملـك. ليست بحوزتي غير أوهـام. فـأنـا لا أملـك شيئـاً. إنَّني أَمَتُهُ. ولا تنقصني سوى النُّدوب على الوجنَتَيْن لأكون زنْجيةً مطلقة التَّفاني، موهوبةً لـه مـدى الحياة، حتَّى الموت. هذا مـا في الأمر، وأنتِ تعرفين الكثير منـه حـاليـا. سيكون من الصَّعب عليكِ الانسحاب من هذا الجحيم. جحيم أو جنَّة... لكِ أن تُقَرِّري. إنَّنا أُناس الليل : فـالقنصل يحمل اللَّيل في عينيه إلى الأبد؛ وأنا أبحث عنه إلى حدِّ الهوس به : أمَّا أنتِ فقد وُلِـدْتِ دون ريب في ليلةٍ كان القمر فيها ملتبساً، ليلة كـانت فيهـا النَّجوم في متنـاول كلّ الآمـال، رُبَّمـا وُلِدْتِ في تلك الليلة الرَّهيبـة التي تُخْتَم فيهـا الأقـدار، ويُحِسُّ فيهـا كلُّ مُسْلِمٍ برعـدة الموت تَعْبُرُ جسده . على كلِّ حال، عندما رأيتُكِ تدخلين الحمَّام، مقرورةً ومـذعورةً، قرأتُ فوراً في عَيْنَيْكِ بأنَّـكِ أُرْسِلْتِ إلينـا مِن ليلـةِ القَـدْر الأخيرة. لقـد علمتُ في الحـال بـأنَّـكِ وحيـدةٌ في العالم : بدون أهل، ولا عائلة، ولا أصدقاء. لابُدَّ أنَّك واحـدةٌ من تلـك الكـائنـات الاستثـنـائيـة المنحدرة من عُزلةٍ مطلقة. هـذا بـادٍ للعيـان. يمكنني القول بـأنَّني كنتُ أنتظرك. ففي الليلـة السَّابعة والعشرين من رمضان، شاهدتُ رؤيا واضحةً جـداً، وقـد انقبض لهـا قلبي. فحتَّى أنـا،

بالرّغم من أنّني لست مُسْلِمَةً صالحةً، أحسستُ برعدة الموت الخفيفة تعبر جسدي من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ. ورأيتُ شَبَحاً ينحني على سرير القنصل ويُقَبِّلُ جبينه. فاعتقدتُ بأنّه الموت يحتكُّ به على ذلك النّحو. اندفعتُ إلى غرفته فألْفَيْتُه ينتحبُ كأحد الأطفال. كان يبكي ولا يعرف السّبب. وللمرة الأُولى منذ بدء حياتنا المشركة، حدّثني عن أمّنا.كان مقتنعاً بأنها لا تزال على قيد الحياة وأنها ستزورنا. أخذتُه في حضني، وهَدْهَدْتُه كما لو كان رضيعاً، وأعطيتُه ثديي. وقد عاد إلى النّوم دون أن يُبْعِدَ شفتيه عن ثديي.

12

غُرْفَةُ القُنْصل

هكذا خُتِمَ على مصيري. فأمسيتُ العنصر الأساسي لذينك الشخصين غير العاديين. كان عمل النّسيان يتمّ دون علْمٍ منّي وكنتُ أستقرّ تدريجياً في قصّةِ الجلاّسة والقنصل.

عشية أحد الأعياد، لم أعد أذكر أيّ عيد بالضبط، اشترى القنصلُ دجاجتين حيّتين وحملهما إلى الدّار. ومُغْتَنِماً غياب أُخْتِه، قرّر ذبحهما بنفسه. كُلُّ ما كان من شأنه أن يُذكّر بعاهة القنصل أو أن يتذرّع بها كان يتمّ تلافيه بعناية. وعندما رأيتهُ في السّطح، مُمْسِكاً إحدى الدَّجاجتين بيَدٍ وبالأُخرى مُوسَى، تملّكني الخوف. كانت شفرة الموسى تلمع في الشمس. وكان القنصل متحمّساً جداً لفكرة ذبح الدّجاجتين. اقترحتُ عليه أن أساعده. فرفض. كان مُقرفصاً، وقد أمسك جناحَيْ الدّجاجة برِجْلِه، وبيده اليُسرى كان يحاول إيقاف عنقها، ثمّ ذَبَحَها باليُمنى. انتفضت الدّجاجة ولطّخت الجدران والملابس بالدّم. وبينما كانت ترتعش في إحدى الزّوايا، رأيتُ القنصل، مسروراً، يُعيد نفس العملية مع الدّجاجة الأُخرى. كان يتصبّبُ عَرَقاً وكانت أساريره متهلّلة تقريباً. وعندما كان يمرّر الموسى بفظاظةٍ بالِغَةٍ جرح سبّابة يده اليسرى. كان الدّمُ في كلّ مكان. وقد أخفى القنصل أُصبعه في منديل. كان يتألّم كثيراً لكنه لم يُبْدِ ذلك. وقد قلّ ضحكه. فبالنسبة إليه كان ذلك نِصْفَ نجاح. وعندما كنتُ أغسل الدَّمَ فوق السَّطح، فَغَم أنفي بخورُ الجنّة. وفي الحال، اصطحبَ ذلك العِطْرُ بصُورِ حَفْلٍ صَدَحَتْ فيه موسيقى كثيرة. كنتُ أبلغ ثلاث أو أربع سنوات. كنتُ بين ذراعيْ أبي الذي قدّمني، منفرجة السّاقين قليلاً، إلى حلاّق يمارس الختان. وقد حضرني من جديد مشهد الدّم،

والحركة المباغِتة ومع ذلك الحاذقة لأبي الذي كانت يده مضرّجة بالدم. وكانت هناك أيضاً لطخات من الدّم على فخذيّ، وفي سروالي الأبيض.

كانت ذكرى ملطّخة بالدّم ومُعَطِّرة. أطلقتُ ضحكة صغيرة، ثم أخذتُ أُفكّر في جنون ذلك الأب العنيد، المأخوذ في دوّامة الشقاء. ودون أن أنتبه، وضعتُ يدي أسفل بطني، كما لو كنتُ أروم طمأنة نفسي، ثمّ واصلتُ تنظيفي للسّطح.

كان القنصل قد لَفَّ بنفسه أُصبَعَه في ضمادة. وكان بالرّغم مما حدث فخوراً بنفسه. كنتُ أنا أضحك، مُفكّرةً في الطّابع السّاخر للوضع الذي حشر أبي فيه نفسه. وكان هو يتألّم في صمت معتقداً بأنّه ربح تحدّيه للعمى.

كان يسودُ الدّار جوٌّ مكوَّنٌ تارةً من الارتياب، وتارة أُخرى من التواطؤ. لقد وجدتُني أكثر فأكثر في قلب مأساةٍ كانت وقائعها تجري منذ أمدٍ طويل. كنتُ الشخصيةَ التي كانت تنقص تلك المسرحية التي كانت الدّارُ خشبَتَها. وكنت قد وصلت في اللحظة التي اسْتُنْفِذَتْ فيها النّزاعات، والمأساة فيها على وشك التحوّل إلى تراجيديا هزلية، كان الدَّمُ سيمتزج فيها بالضّحك، والمشاعِرُ ستتدَمَّرُ بالالتباس والفوضى والانحراف. لقد ذهب بي الأمر إلى الارتياب في روابط القرابة المعلنة بين الجلاّسة والقنصل، كأخٍ وأُخْتٍ مَسْرَحِيَيْن، كَظِلَّيْن خارجَيْن من ليلةٍ قديمةٍ، مُدْلَهِمّةٍ بتقيّؤاتِ نفْسٍ فاسدة. ربما لم يكن كلُّ شيء سوى لُعْبةٍ، حيث الحياة واحدةٌ من اللّواحق، عنصر فولكلوري. وستكون الجلاّسة مُحَرِّكَةً محترفة، والقنصلُ منحرفاً متنكّراً في هيأة أعمى، وسأكون انا الطّريدة المِثالية من أجل قنصِ خيالي في مكان مغلق بأعلى أحَدِ الأجْرُف !... لقد قُلْتُ في نَفْسي بأنّني عِشْتُ أكثر من اللازم في الكذب وخيال الظّل بحيث لن يُعْوِزَني الانتباه إلى أنني تورّطتُ في قَضِية غريبة، بل ربّما في قضية قَذِرة. وعليه، فقد قرَّرتُ أن أُضاعف يقظتي، وأن أحتفظ بأوراق اللعب الضّرورية لخروج مُشَرِّفٍ أو هربٍ مفاجئ. وكان لابُدَّ أن أفحص حالة الأمكنة والشخصيات.

بينما كنتُ أُنظّفُ غرفة القنصل، أخذتُ أُراقبُ الأشياء وأُفَتّشُ بطريقةٍ لِبِقَة الأغراضَ المُرَتَّبَةَ في الدُّولاب. لم يسبق لي أبداً أن فتحتُ تلك الخزانة. ففي جهةٍ كانت هناك ملابس مطوية بعناية، وفي أخرى سلسلةٌ من الأدراج المليئة بركامٍ من الأشياء : في الدّرج العلوي عدّة حزم من المفاتيح معظمها صدئة من بينها مفاتيح قديمة، مفاتيح مكسورة، مزاليج مسودّة بطبقة من الغبار خلّفتها دهونٌ عديدة ومسامير من جميع الأشكال والأحجام.

أغلقتُ ذلك الدُّرج بتمهُّلٍ وفتحت آخر بالصُّدفة. كانت فيـه حوالي عشرين سـاعـة كلّهـا تدور، ولكن كلّ واحـدةٍ منهـا تشير إلى وقتٍ مختلف. كـان عبـارةً عن معملٍ صغيرٍ للزّمن لم أتمكّنْ من تبيُّنِ منطقه. وكانت بعضُ السّاعات ذهبيةً، وأُخرى فضّيةً.

في درج آخر كانت توجد كلّ أنواع النّظارات والمونوكْلات. نظّـارات شمسيـة، نظّـارات بصرية، نظّارات فارغة أو نِصف مُركّبة. وفي قعره كانت هنـاك حزمـة من الأوراق المربوطـة. كانت عبارة عن وصفات أطبّـاء عيون، وفواتير نظّـارَاتيّين، ونشراتٍ إشهـاريـة لتحسين الرّؤيـة تواريخها قديمة.

واصلتُ تفتيشي محاوِلةً إقامة صِلَـةٍ بين محتويـات مختلف الأدراج. فَفَتَحْتُ منهـا درجـاً آخر. كان مفروشاً بثوبٍ مُطرّزٍ. وكانت عدّة مَواسٍ للحلاقة مُرتّبةً فيه بعناية؛ وكـانت شفراتُهـا لامعة. وفي إحدى القوارير، كـانت هنـاك عينُ خروفٍ تسبح في سـائل مُصْفَرّ. وكـانت العين تنظر إليّ. كانت تبدو كأنّهـا حيّـة وكـأنهـا هنـاك لتحرس المَواسي. أحسستُ ببـدايـة غثيـانٍ، فأغلقْتُ الدّرج بِرِفْقٍ.

إن مـا اكتشفتـه بعـد ذلـك أرْعَبَني : ففي الـدّرج الأسفـل، لم يكن شيء يـوجـد. وفي اللحظة التي تهيّأتُ فيهـا لإغلاقـه، لاحظتُ بـأنّـه أقلّ عُمْقـاً من الآخرين. ففتحتـه عن آخره، ودفعتُ فارقاً، فلاح لي مُسَدّسٌ مُلَمّعٌ بعناية، وفي حالة جيّدة للاستعمال. كان فارغـاً. وكـانت هناك ثلاثة أمشاطٍ مليئة بالرصاص مكوّمة.

ـ لماذا كان يحتفظ بذلك السّلاح ؟ إنّ مـا كـان يجمعـه حيّرني، لكنـه لم يُقْلِقني. أمّـا ذلـك المُسَـدّس الجـديـد تمـامـاً فقـد أخـافَني. هل كـان هنـاك من أجْلِ قَتْلٍ مّـا أم من أجْل انتحار ؟ جلستُ على طرفِ السّرير وحاولت أن أفهم معنى كلّ تلك الأشياء المُجَمّعة. أمامي، كانت الآلة الكاتبة، وحزمة من الأوراق البيضاء، ومِلَفٌّ يضمُّ صفحاتٍ مطبوعـة. نهضتُ وفتحتُ الملف برِفق. ثم أخذتُ أتصفّحه وأقرأُ بالصّدفة. كان عبارة عن مذكّرات، لكنْ كـانت بـه أيضـاً حكاية، وحسـابات، وأوراق مُلْصقة، ورسوم فوضوية.

في إحدى الصّفحات، كانت توجد هذه الفكرةُ المُشَدّدُ عليها بخـطٍّ أحمر : «كيف يمكن الذّهاب إلى ما وراء الموت ؟ لقد قام بعضهم بنصب تماثيل لهذه الغاية. منهـا تمـاثيل جميلـة جدّا. ومنها أُخرى رهيبة. إنني أعرفها أحسن من الذين يرونهـا. فـأنـا ألمسهـا. أُداعبهـا. وأقيس كثافتها وثباتها. لا يكْمن الحل هنا. لن أقترح على الخلود تمثالاً أو اسْماً في شارع، بل حركـةً

ستُعْتَبَرُ عبثيةً من طرف بعضهم، وجليلةً من طرف آخرين، وبِدْعةً من قِبَل المسلمين البُسطاء، وبطوليةً من طرف المتآلفين مع الموت، الذين يُحرقون المقابر. إن هذه الحركة ستباغتُ الموتَ؛ ستتقدَّم عليه، وتطويه وتُنيمه في حزمة تِبْنٍ ستقوم أيدي بريئة بإضرام النّار فيها، أيدي أطفالٍ ستتسمَّر بالنّور الذي لا يُطاق، الذي ستخلّفه هذه الحركة...».

في تلك اللحظة سمعتُ وقع خطواتٍ في الدّرب. كان القنصل عائداً. رتَّبتُ كلَّ شيء بسرعة وواصلتُ التّنظيف. وما لبث القنصل أن وصل حاملاً باقة كبيرةً من الزُّهور ومدّها لي :

ـ إنّها لكِ. لقد اخترتُ الزُّهور بنفسي، واحدةً واحدة. فنادراً ما تُقَدَّم الزُّهور عندنا. إنَّ صبركِ وحُضوركِ يستحقّان أن يُزَيَّنا بالزُّهر.

جلس على الأريكة. وعندما كنتُ أتأهَّبُ لتسخين الماء لِقَدَميه، قال لي :

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة ؟ لا أُريد من الآن فصاعداً أن تهتمّي بي كشغّالة. لا دَسْت بعد اليوم، ولا تمسيد للقَدَمَيْن. انتهينا. أنتِ تستأهلين ما هو أفضل بكثير. في المُقابل، أنا حريصٌ على أن تكوني لي بمثابة شريكةٍ في أفكاري. أُحِبُّ أن تكوني بِقُرْبي عندما أكون منهمكاً في القراءة أو في الكتابة. وعليَّ أن أعْتَرِفَ لكِ بأنّني استأنَفْتُ الكتابة منذ دخولك إلى هذه الدّار. تعرفين، لستُ أنا رجُلاً بسيطاً. إنّني أُحاول أن أجعل من العَمى مؤهِّلاً ولا أعتبره عاهةً. لذلك أكون أحياناً ظالماً. وأقوم بأُمورٍ أُجازف فيها بنفسي. إنّكِ تتساءلين دون ريب عمّا أكتُب. سأجعلك تقرئين يوماً ما بعض الصّفحات. عالمي، في معظمه، داخلي. وأنا أؤثّثه بمبتكراتي الخاصّة؛ فأنا مُضْطَرٌّ إلى اللّجوء إلى ما يقطن غرفتي السّوداء. ولو أخبرتُكِ بكلّ ما تضمّه لاندهشْتِ كثيراً، وَلَرُبّما ارتبكْتِ. إنّها سِرِّي. إذ لا أحد يدخلها، حتّى أُختي. وأنا نفسي يحدُثُ لي أن أخاف ممّا أعرفه عنها. فأمحو من شاشتي الأشياء التي تأتي إليَّ وتدفعني. إنني مُحاطٌ ببعض الأشياء. منها ما أسيطر عليه، ثمَّ هناك منها الجَموحَةُ. كأنْ أحاول السيطرة مثلاً على مُوسى أو مقص يتقدّمان ويقطعان كُلَّ ما يُصادفانه في طريقهما. لذا أحترسُ منهما. فعليَّ أن أعترف لك بأنني مذعورٌ من كلِّ ما هو قاطع. ربّما لهذا السبب حرصتُ على ذبح الدّجاجتَيْن بنفسي ذلك اليوم. لقد جرحتُ نفسي، لكنّ الجرح لم يكن بليغاً. تصوري لو أنّ الموسَى أفلتت من يدي، كانت بالتأكيد ستجدع أنفي أو تقطع أصابعي الخمسة. على كلّ حال، لا يتعيَّنُ عليَّ أن أُفْزِعكِ بمخاوفي. هذا سخيف جداً ! إنّني أغبطكِ. وبودّي

لو أكون مكانكِ. فأنتِ مُراقِبة، وشاهدة، وأحياناً فاعلة. ما يُمَثِّلُ فرصةً مؤاتيةً بالنّسبة لكِ هو كونُكِ مدعوة للمشاركة في حياةِ دارٍ دون أن تكوني مضطرّةً لأنْ تعرفي وبالأخص لأن تتحمَّلي الماضي الذي شَكَّلَنا، لهذا لا أسعى أنا الآخر لمعرفةِ ماضيك. فأنا أتّكِلُ فقط على حَدْسِي وانفعالاتي. ضعي الآن هذه الزُّهور في مِزْهرية.

شكرتُه وتركْتُهُ يحاول تَدْليك جبينه بيده، بُغْيَةَ إزالةِ صُداعٍ. عندما كان يُحِسُّ بألمٍ في رأسه، كان يغدو في منتهى الهَشَاشَة ويفقد جميع مرتكزاته. عندئذٍ، كان يشعر بعاهته. وبينما كنتُ أبحث عن مكانٍ أضع فيه المزهرية، نَدَّتْ عنه صَرْخَةٌ وأخَذَ يَلَوِّحُ بيَدِهِ في جميع الاتّجاهات مُسْتَنْجِداً. هرعتُ إليه، كان مذعوراً بالألم المُبَرِّح وبكونه لم يتمكّن من العثور على مُسَكِّنَاتِه، مع أنها كانت فقط في مُتَنَاول يده، خلفه.

ـ هذا الألم يمنعني من التّنفس، إنّه مطرقة تُحَطِّمُ كُتْلَةً من الرُّخام. عند كلّ ضربةٍ، أنتفض...

ناولتهُ مُسَكِّناتٍ بكوبٍ من الماء، ووضعتُ يدي الباردة على جبينه. في البداية، لم يُطِقْ حضوري، وبعد ذلك، عندما أخذتُ أمسده شعر بتَحَسُّنٍ.

ـ تابعي، فأنتِ تخفّفين عنّي، لكِ يدان رؤوفتان. وُلِدْتُ بالصُّداع النِّصفي، وهو يُلاَحِقُني، إنّه عاهتي الرئيسية...

قدَّمْتُ له قهوةً وساعدتُه على التَّمدُّدِ في السّرير، لا لكي ينام بل ليرتاح من آثار الأزمة. لقد استبقاني بإمساكِ يدي. فلم أسحبها. إذْ كنتُ أعتبر أنَّ من الطَّبيعي تَرْك يدي في يده. كنتُ أحس بجسده ساخناً. وقد بقينا على تلك الحال طيلة فترة طويلة من المساء. وعندما سمعتُ صوت المِفْتاح في القُفْلِ، نهضتُ وذهبتُ لأفتح الباب. إذْ كنتُ قد أغلقتُهُ بمزلاج السّلامة. وقد بدت الجلاّسةُ مندهشةً لذلك. فسألتني عن عِلَّة الإغْلاق على نفسي. «صدفةً !» أجبتُها. فلم تلحّ. وقد حكيتُ لها عن أزمة الصُّداع. فَقَلِقَتْ. منعتُها من الذّهاب لإيقاظه. ثم، عندما تقدَّم الليل، قالت لي :

ـ هل تَذْكُرِين المرَّة الأخيرة التي عاد فيها القُنْصل مهتاجاً ؟ كان ذلك منذ شَهْرٍ على الأقل...

ـ ربما أكثر. لكنني لا أرى علاقةَ ذلك بأزمة اليوم.

ـ نعم، معكِ حق، لا يُمكن أن تعرفي. لكنّني أنا أربط بين التعفُّف وألَم الرّأس. فعندما يَظَلُّ رَجُلٌ مُدّةً طويلةً بذلك الماء العكر بداخله، يصعد هذا الأخيرُ إلى الرأس ويُسَبِّبُ آلاماً، لأنّه ليس الرّأس هو الذي بحاجةٍ إليه... هل تفهمين ؟

ـ بشكل غامض. تقصدين أنّ الرَّجُل الذي لا يفرغ مَنِيَّه دورياً يُصاب بصُداعاتٍ نصفية ؟ والنّساء ؟ ألا يُصَبْنَ بشيء ؟

ـ بلى، إنّهن يصرن غضوبات، ويأخُذْنَ في الصّراخ لأتفه الأسباب. لكنّني أنا تعوّدت. لم أعُدْ حتى أصرخ.

أخذتُ أضْحَكُ بصوتٍ خافت. فابتسمتِ الجلاّسة ثم انفجرتْ مقهقهةً. وقد حاولتْ كَتْمَ ضحكتها بوضع يدها على فمها.

13

بِرْكةُ مـاءٍ ثقِيـل

قضيتُ اللّيل كلّه أقاوم تيارات ماءٍ ثقيلٍ ولَزجٍ في بِرْكةٍ عميقةٍ مسكونة بكلّ أنواع الوحوش والنّباتات. كانت رائحةٌ خانِقةٌ، رائحة قوية لا يمكن تحديدها، تنبعث من ذلك الماء الميّت والمضطرب مع ذلك في الدّاخل بحركة فئرانٍ تلعب بقطٍّ جريح.

كان ثمّة شيء ما ثابت ومتحرّك في ذات الوقت وكانت لديّ إمكانية رؤية كلّ شيء. كانت يَدٌ موصَدَةٌ في قفصٍ زجاجي، تُنْزِلني حتّى القَعْر وتصعد بي حسب هواها. كنتُ أختنق، لكنّ صرخاتي لم تكن تتعدّى القفص. لقد تعرّفْتُ على جسد فاطمة، بنت العم البئيسة المُصابَة بالصّرع التي كنتُ تزوّجتُها حفاظاً على المظاهر وقد كنتُ أُحبُّها لأنها كانَتْ تَمَزُّقاً مفتوحاً لا يتعهّده حنان. كان وجهها ساكناً وجسدها كاملاً. راقدةً في قَعْرِ تلك البِرْكة كانت كشيء بالٍ لا يرغبُ فيه أحد. وعلى نحوٍ غريبٍ، كانت الفئران تتحاشى نهشها. رأيتُها فأطلقتُ صرخةً كانت من الحِدّة بحيث استيقظتُ مذعورةً وأنا أتصبّبُ عرقاً.

لم تكن المرّة الأُولى التي أرى فيها كابوساً من ذلك النّوْع. لكن في كُلّ مرّةٍ كان يَلُوح لي وَجْهٌ من ماضيٍّ. كان النّسيان المُطْلق مستحيلاً. ماذا أعمل حتّى لا يعاودني الإحساسُ بالذّنب، حتّى لا أظَلَّ مُطَارَدَةً بالفئران والعناكب ؟

فكّرتُ في قِصّة الماء الفاسِد الذي يصعد إلى الرأس، وأخذتُ أضحك. على كلّ حال، كان لابُدّ أن أؤدّي ضريبةً في ذلك المكان أو في مكان آخر. كان أمراً مفروغاً منه. لم أكن أُناقش قوانين وأوامر القَدر حتّى أُعَجّل بسيرورة النّسيان.

كنتُ أخرج إذن من كابوسٍ ثقيل، وكان القنصل يتحرَّرُ من الألَم الذي كان يحطِّم رأسه. كنا نخرج معاً من نفس المحنة؛ وهو ما ذكَّرنا بشرطنا ككائنَيْن حلَّتْ بهما اللّعنة. إنّ ذلك كان يُحرِّرُنا. وقد أحسسنا بنفسينا أكثر حُرّيةً ما دُمْنا منذوريْن لأن تلحق بنا أشباح ماضينا من يوم لآخر.

لقد قرّرتُ ذلك الصّباح، بينما كان جسدي مُرْهقاً، بأن أخطو خطوةً أُخرى للاقتراب أكثر من القنصل. فعندما كان يغادر الدّار إلى كتّابه القرآني، طلبتُ منه ألاّ يعود متأخّراً. فُوجِئ ثمّ قال لي :

ـ كأنّكِ أُختي ! إرضاءً لكِ سأعود باكراً. لن أذهب إلى المقهى، ولا عند صديقي الحلاّق.

كنتُ أريد مرافقته عند النّساء. لن تعرف الجلاّسة شيئاً عن الأمر. وسيكون هو دليلي. لقد راقتني تلك الفكرة الشّاذة، وأحببتُ جرأتها. كنتُ فضولية. وقد أحسستُ بجسدي يغدو خفيفاً، بعيداً، ومحفوظاً إلى الأبد من جاذبيات الماء الرّاكد لتلك اللّيلة. ذلك الشّعور بالمرح جعلني أحسّ بالقشعريرة. فأخذتُ أنظّ في الدّار، وأنا أُنظّفها، مثل إحدى المجنونات. بعد ذلك قضيتُ فترةً طويلةً في بيت الماء. فاغتسلتُ وتعطّرتُ كما لو كنتُ ذاهبةً إلى عُرس.

عاد القنصل حوالي السّاعة الخامسة. وقد جلب معه باقة نعناع وبعض الحلويات. فقلتُ له بأنّنا سنترك ذلك إلى وقت لاحق، وأنّ الجلاّسة كلّفَتْني بمرافقته عند النّساء. توقّفَ برهةً، وقد فاجأه الأمر، وازدرد ريقه. ثمّ بعد أن شرب كوباً من الماء سألني إن كانت أختُه قد كلّفتني حقّاً بمُهمّةٍ من ذلك القبيل. كان شكّاكاً.

ـ لكنّ هذا يضايقني كثيراً. إنها مسألةٌ بين أُختي وبيني. غير ممكن.

بينما كان يتكلّم، لاحظتُ بأنّ وجهه أخذَ يتهلّلُ بفكرة الذّهاب عند النّساء.

ـ هل ترضَيْن حقّاً بمرافقتي ؟ ألاَ يُضايقكِ هذا ؟

ـ كلاّ ! أبداً. إنني فضولية. وأنت تُتيح لي فرصة الدّخول إلى المكان الذي لم أكن لأطأه أبداً. فلديّ معكَ عُذْرٌ.

ـ بما أنّك تأخذين الأمر على هذا النّحو، لم يعد أمامي سوى أن أتبعك.

ثم بعد هُنَيهة صمت :

ـ كلا، ستتبعينني.

ـ وإذا أمسكتُ بذراعك، ستقول لي أين أنعطف.

للمرّة الأولى، كنتُ أسير في الشّارع ممسكةً بذراع رَجُلٍ. كنّا نشكّل في الظاهر زوجاً عادياً. رجلٌ وامرأةٌ يسيران في الشارع. ليس في هذا أيّ أمر خارق. ربّما لو تتبّعتنا عينٌ سيئة النّية وعَلِمت بالوِجْهَةِ التي كنّا نيمّمها لكانت قد آذتنا ولعنتنا إلى آخر الدّهر. وقد كانت هناك تلك العين، خلف باب منفرج.

كانت ثمّة امرأة تَرى دون أن تُرى. وعند مرورنا قربها، تلقّيتُ ما يشبه السّهم وأحسستُ بقشعريرة. لقد تمّ إرسال ذبذبةٍ من الشؤم التقطها جسدي كدليلٍ، كاستشعار. فآثرتُ الاستخفاف بها، وتابعتُ طريقي. مررنا أمام الدّار الشهيرة. وقد كانت تُعرَف بسهولة. طلب منّي القنصل ألاّ أتوقّف. كنتُ أتبعه. فقادني إلى دربٍ مظلم وتوغّلنا عبْر باب واطئ في رواق لا ضوء فيه. كنّا مُخَاطِئَيْن لأوّل مرة بنفس القَدْر من العتمات.

ـ لا تخافي. توجد درجة.

شددتُ على ذراعه لحدّ إيلامه. وما لبثنا أن ارتقينا السُّلّم فوصلنا أمام باب مغلق. طرقَ القنصلُ مرّتَيْن ثم أضاف الثالثة. ففتحت لنا امرأةٌ، هي المعلّمة، ورحّبَتْ بالقنصل :

ـ لم نرك منذ مُدّةٍ طويلة ! صارت لك الآن مُرافِقَةٌ جديدة ؟

ـ أعِدّي لنا الشّاي، من فضلك، ولا تضعي كثيراً من السُّكّر.

أنزلتنا بغرفةٍ قذِرة كان بها مَغْسَلٌ غير نظيف. كان الصنبور يسيل. وفي طرفها كان دولابٌ عتيق تنبعثُ منه رائحة النّفتالين. جلستُ على كُرْسي. أمّا القنصل فقد أخَذَ راحته وتمدّدَ على السّرير. ثم أخرج من جيبه سَبْسِياً سبق أن حشاه بالْكِيف وأشعله. دخَّنَ بمفرده. ظللنا صامتَيْن ننتظر الشّاي. لقد فتحتُ عينيّ عن آخرهما لرؤية كلّ شيء. وكنتُ متلهّفةً. حملت لنا صبية صغيرة، لا تتجاوز العشر سنوات، صينيةً عليها برّادٌ وكؤوس، ثم اختفت دون أن تقول شيئاً. وفيما كنا مُنْهَمِكين في شرب الشّاي ـ الذي كان فيه كثير من السُّكّر ـ دخلت المعلمة متبوعةً بامرأتَيْن بين عشرين وخمس وعشرين سنة. لم تكونا جميلتين ولا ذميمتين، لكن كان واضحاً أنّه لم تكن لهما رغبة في البقاء مع القنصل. ثم طلبتْ منّي المعلمة أن أصفهما :

ـ إحداهما سمراء، موشومة الجبين والذقن. شعرها المدهون بالزّيت ملمومٌ في وشاح فاقع الألوان. الصدر ناهض ولكن مترهل. وهي بَطِنَة؛ ردفاها سمينان جِداً، وساقاها أشْعَران؛

وتلوك علكة. تنظر إليكَ مُقَطِّبةً وجهها. باختصار، ليست جميلة ولا ذميمة. وهي تقوم بعملها بدون بهجةٍ أو مرح. الثانية هيفاء. ثدياها جميلان، وقامتها مشيقة لكنّ ردفيها هـائلان. شعرها أسود وعينـاها صـافيتـان. لا تلوك علكـة، إلاّ أنّ لهـا عـادة، وهي أنها تبصق بـاستمرار. لـكَ الاختيار.

عادت المعلمة، التي كانت قد ذهبتْ :

ـ أيهما ستبقى ؟

أجاب القنصُلُ من قلب سريره :

ـ لا واحدة.

عندما غادرت النّساء الثلاث الحجرة مدّ لي القنصل يده القابضة على مبلغٍ مالي :

ـ نسيتُ أن أتْرُكَ لك المال لتسدّدي الحساب.

كان مبلغاً لا يُسْتهان به. انتظرنا قليلاً وما لبث أن دخلت شابّة جميلةٌ، مـذعورة، كمـا لو أنّها دُفِعَتْ من الجهة الأُخرى للباب من طرف المعلّمة. نظرتْ إلينـا ببلادة، غير متبيّنـة مـا ينتظره منها ذلك الرَّجُل وتلك المرأة. وقد لاحظتُ بأنّهـا كـانت ترتجف؛ فلا بُـدَّ أنّهـا كـانت جديدة في المِهْنة. عادت المعلّمة للظهور، مسرورة فيما يبدو باختيـارهـا. ومـدّت لي يـدهـا، فناولتُها المال. لقد كانت على وشـك الانصراف عنـدمـا شرعت في وَصْفِ المرأة الشّـابـة، شبـه الشقراء، التي كان لها ثديان كبيران وراسخان :

ـ إنهـا هيفـاء كثيراً، سمراء، ونهـداهـا صغيران جـداً. وهي مشيقـة القـوام، قصيرة الشَّعر، متوازنة الرّدفين، لحيمة الشَّفتين. لا تلوك علكة. وهي ترغب فيك.

أشرتُ بيدي للمعلّمة والمرأة الشّابة بالانصراف، وانتظرتُ جواب القنصل :

ـ تقولين بأنها صغيرة النّهدين ومتوازنة الرّدفَيْن ؟ إذن أريدها، وأنا أنتظرها.

كنتُ قـد خلعتُ جلاّبتي وفستـاني. فـاقتربتُ من السرير بتمهلٍ، وفككتُ أزرار سروال القنصل. تركتُ النّور الكابي مُضاءً وتخطّيتُ حوضـه. وبِبُـطءٍ تركتـه يولج عضوه فيّ، واضعـةً يديّ على كتفيه لكي أمنعه من تغيير وَضعه. وقد انتعظ بسرعة. بقيتُ فوقـه، دون أن أتحرك، أنْتَظِرُ ريثما يستردّ طاقته. وما لبث أن عاد له انتصابه، وكـان مُـدْهِشـاً. إنّ النّقص الكلّي في تجربتي قَدْ فسَّرَ بغياب الحياء أو المضايقة. فكانت الشهوة تقود جسـدي غريزيـاً وتُمْلِي عليـه

الحركات المُناسِبة. كنتُ قد صرتُ مجنونـة. كنتُ أكتشف المتعـة لأول مرّةٍ في حيـاتي داخل أحـد المـواخير مـع أحـد العميـان ! كـان نَهِمـاً. وقـد تمَّ كـلُّ شيء في صمت. إذ كنتُ أكتم حشرجاتي. لقد كان من الضّروري ألاّ ينتبه للخدعة. وفي اللحظـة التي هَمَدَ فيهـا، ارتـديتُ ملابسي بسرعة وطرقْتُ الباب.

ـ لا تدخلي الآن، إنني ألبس.

نهضَ وأخَذَ يرتدي ملابسه على مهل. كنتُ لابِدَةً في إحدى الزوايـا. وكنتُ أعرف بـأنّـه ليس مُغَفَّلاً، لكنّني آثرتُ أن أترك الشَّكَ يحوم حول مـا حـدث ذلـك المسـاء. لقـد كـان ثمّـة تواطؤ يربط جسدينـا في الصَّمْت والسِّرّ. وكان يجب بالأخص ألاّ أتكلم، ألاَّ أُحَمِّلَ الكلمـاتِ أكذوبةً ظاهريةً لم تكن في الواقع سوى حقيقةٍ لا تنبغي تَسْمِيتها.

تلك الليلة، ما إن أغمضتُ عيني، حتّى رأيتُ من جديد بِرْكةَ الماء الثقيل. لم يعـد بهـا قفصٌ. كنتُ أغطس فيهـا بنفسي وأصعـد دون مشقّـة. وعلى نحـوِ ظـاهِرٍ، كـان المحيـطُ نفسَ محيط الليلة السابقة. كان عبارة عن حديقةٍ عموميةٍ مهجورةٍ بعُشبها الأحمر وأشجارها الجرداء. وكانت هناك أرجوحة مربوطة في غصنِ تينةٍ كبيرة. كانت مكسورة ومُدَلاَّةً كشيءٍ بالٍ. ودون أن أنتبه، رفعتُ يدي إلى جبيني وأخذتُ أبحث عن نُدْبَةٍ. كـانت مختفيـةً تحت الشَّعر. كنتُ أرتاد تلك الحديقة العمومية مع أبي. ومرتديةً ملابس صَبِيٍّ، كنتُ أُضايق الصبيـات حول تلـك الأرجوحة. حتّى اليوم الذي أسقطني شقيقُ إحداهن. كان وجهي مُلَطَّخاً بالـدَّم، وكنتُ أبكي. قال لي ذلك الشقيق، الـذي كـان يكبرني، قبل أن يلوذ بـالفرار : «لو كنتَ بنْتـاً، لفعلتُ بِـكَ شيئـاً آخر !». لقـد هرع أبي، مـذعوراً، وحملني إلى المستشفى. كنتُ قـد نسيتُ تمـامـاً هـذه الذّكرى ولم أعد أذكر الظَّرْف الذي ترجع إليه النُّدْبة.

لقد اختتم حلمي بهبوب زوبعةٍ عنيفةٍ أثارت الأوراق اليـابسـة المثقلـة بـالحزاز وطَوَّحَتْ نحو أمكنةٍ أخرى بالأرجوحة الشهيرة التي لم تعد تصلح لشيء، كان حضورهـا الموحش يُحْيي ذكرياتٍ بعيدة.

في الصَّباح لم أجد في نفسي شَجـاعـة ولا قوّة الظّهور أمـام القنصل. كنتُ قـد احتفظتُ برائحته وعرقه على جسدي. كـان هو الـذي أتى يطرق بـابي ويعبّر لي عن صـداقتـه الرَّقيقـة بحَمْلِه إليَّ كوباً من عصير البرتقال كان قد أعَدَّهُ بنفسه. إحمررتُ وأحسستُ بفورةٍ من الحرارة تتصاعَدُ بداخلي جعلتني خرقـاء. جلس على طرفِ السَّرير، وأخرج منـديلاً مُطرَّزاً ومـدَّهُ لي.

فتلامستْ أصابعنا. شكرتُهُ. فلم يقل شيئاً. أحسستُ في سريرتي، على هيأةِ حقيقةٍ بديهية وطبيعية، بأنّ لذلك الرّجُل فضيلةً خاصّةً، نوعاً من اللطافة التي مُنِعَتْ من الظّهور بسبب التحكّم الفظ الذي كانت تمارسه الجلاّسَةُ فيه، والذي كان يتغلّبُ عليه لتلافي المأساة الكبرى.

لم يكن بحاجةٍ لأن يتكلّم. فقد كانت نظرتُه الزائغة تُبلْبِلُني. كانت تصير فيه أحياناً رِقّة قَلِقَة، شيء مّا آتٍ من حيوانيةٍ بحتةٍ. لقد ملأتْ حميميةٌ صامِتَةٌ تلك الغرفةَ المتعوّدة على العزلة. كنا نسمع جلبة المارّة، ولا نجرؤ على النُّطْقِ بكلمة. قَرّبتُ يدي من يده بتمهُّلٍ ثم سحبتُها. كنتُ أخافُ من تحطيم شيءٍ مّا هَشٍّ لم يكن بمقدوري أن أُسَمّيَهُ أو أنساه. كنتُ أحِسُّ بأننا انزوينا على نَحْوٍ إراديٍ في أحد الأقْبِيَة، وأنّنا بنفْسَيْنا سِرٌّ ينبغي كِتْمانه. هناك لحظاتٌ كثيفةٌ يكفي فيها حضورٌ بمفرده ولا يعرف المرء لماذا يقَعُ شيء قويّ وأحياناً حاسِمٌ. شيءٌ لا تُمكن تَسْمِيَتهُ. وحده الانفعال يفضحه لأسبابٍ غامضة فيُلْفي المرءُ نفسه ثَمِلاً وسعيداً مثل طفل تنقله البهجةُ إلى عالم عجيب. لم أكن من جهتي، أفكّر يوماً بالوصول إلى تلك الحالة التّي كان يطفو فيها كلٌّ من الجسد والمشاعر ويحملاني صوب ذُرًى من الهواء النّقي. لقد هَبّتْ ريحٌ منحدرةٌ من جبل عالٍ على أفكاري. ولم يعد شيء مّا مُلْتَبِساً. كنتُ في سلامٍ مع نفسي، وربما هذا هو ما لم يسبق لي أن عرفته أبداً.

نهض القُنْصُل. كنت رغبتُ في استبقائه، والاحتفاظ به بِقُرْبي، ولمسه، وتمرير شفتيّ على رقبته، والبقاء في حضنه. لم أتحرك، مخافة إفساد كلّ شيء. خرج من الغرفة دون أن يتفوه بكلمة واحدة. خلال تلك اللحظات من الصّمت التي قضيتها في حضوره، لم أفكّر في شيء. لم أُرِدْ أن أتخيل ردّ فعل الجلاّسة ولا الجو الجديد الذي يوشك أن يسود الدّار. كان الوقتُ لا يزال باكراً جدّاً.

كانت الجلاّسة نائمةً. والقنصل كان قد خرج. فلم أعرف ماذا أفعل في ذلك الصّباح. لقد بقيتُ أُدَوِّمُ في مكاني بعد أن قرّرتُ ألاّ أُغادِرَ الغرفة.

14

كُومِيدْيَا المَاخُور

لعبنا مع بعض، خلال ردحٍ من الزّمن، كوميديا المـاخور، رغبـةً في إخراجٍ داخل الصّمت والخفاء أكثر من خشية إثارة شكوك الجلاّسـة. وخلال أيّـامٍ قلائل، كـان دورهـا ومكـانهـا في الدّار قد تقلّصا. كانت تتحمل دون أن تقوم بردّ فعل، لكنّني كنت أعتقدُ جيّداً بـأنّهـا لن تسمح بأن تُسْتَبْعَد كُلّياً من المشهد. في تلك الفترة، كانت تعمل كثيراً. فبالإضافة إلى الحمّـام، كـان تكرّس وقتها لترتيب بعض الزّيجات.

ذات ليلةٍ، توجّهَتْ إليّ بعد أن عادتْ متأخّرةً، كما لو كنت قد طلبتُ منها أن تُقَـدّمَ لي خِدمة أو أن تزوّدني بمعلومة :

ـ تمّ الأمر ! لديّ ما يلزمك.

ـ بماذا يتعلّق الأمر ؟

ـ أخيراً، لا تكوني متجاهِلةً، يتعلّقُ بالّذي تفكّرين فيه طوال الوقت ويؤرقك.

ـ هناك كثير من الأمور تمنع من النّوم...

ـ أجل، لكنّ هذا الأمر يتآكّلك، إنّـه مثل دودة تتنقّل تحت الجِلْـد ولا يمكن للمرء أن يمسك بها لكي يحكّ نفسه نهائيا. إنّه يسبّب ا لحكّة...

كنتُ قد فهمتُ طبعاً، لكنني كنتُ أسعى إلى إثارة سوقيتها، وهو ما كان يجعلها تفقـد السيطرة على أعصابها. لا سيما وأنّه لم يكن بمقدور القنصل أن يشكّ في أن أختـه قـد غـدت خاطبةً ضمن نطاق الاحتشام. وقد أمعنتُ في ذلك.

ـ طيب، بما أنك تسخرين مني، سأكشف لك لعبتـك. لقـد عثرتُ لـكِ على رَجُل. إنّـه أرمل لكنّه لا يزال ركيناً جدّاً. وأدواته مدهشة. كـان يبحث عن يتيمـةٍ، عن امرأةٍ بلا روابـط، امرأة وحيدة في العالم... إنها حالتك تقريباً، أليس كذلك ؟

كان القنصل يُنْصِت لتلك المُلاسنة دون أن يقوم بردّ فعل.

ـ لستُ للزواج. لم أطلب منكِ شيئاً.

ـ هذا صحيح، لم تطلبي مني أي شيء. لكنني أنـا التي أقرّر في هـذه الـدّار مَنْ عليهـا أن تتزوَّج ومن عليها أن تبقى عازبة.

كانت قد رفعت صوتها وصارت دفعةً واحدةً تسلطية وشرسة، وكـان وجـه الأخ منقبضاً. وقـد انـدفعت نحوي وجـذبتني بعنفٍ حتّى المطبـخ حيث حبستني. كـانت في ذروة نـوبتهـا وكانت تحـاول إثـارة القنصل ضِـدّي. كنتُ خـائفـةً حقّاً لأنهـا كـانت تعرف بعض الأمور عن ماضيّ. فلا بُدّ أن أحدهم حكى لها. كانت تخفض صوتهـا عنـدمـا كـانت تتوجَّـه لأخيهـا. وإذْ ألصقتُ أُذُني بالباب تمكَّنْتُ من التقاط بعض الجُمل :

ـ إنَّها غاصبة، أكذوبة، خطر. لقد كذبت علينـا. وعنـدي حجج. هي أقوى ممـا تعتقـد. هـذه المرأة تحمـل معهـا حيـاةً خـدعت فيهـا الجميـع. ويبـدو أنّهـا قتلت أبـويْهـا. فقـد ماتت أمّها مجنونةً ولم يتمكّنْ أبوها حتّى من أن يمرض. إننا نأوي في هذه الدّار قاتِلةً، لِصّةً. هل تعرف بأنها فرَّتْ بإرث العـائلـة كلّـه ؟ على كلّ حـال ينبغي أن تصـدّقني، يـا أخي، يـا حياتي، ونور عينيّ...

ـ كفى ! لا أصـدّقـك. أنت غيورة، وحمقـاء. وقـد اختَلَقْتِ هـذه القِصّـة لِتُلْقي بي مرة أخرى في العزلة والعبودية. لن تنطلي الخدعةُ عليّ.

بعد أن دفعها القنصل الذي كان يُزْمِعُ حبس نفسه في غرفته، صرخت بكلّ قواها :

ـ هذه المرأة رجل ! لديّ براهين، وصور، وأوراق. لقد خدعتنا...

فـأطلق القنصـل ضحكـة متـواصلـة وعصبيـة. وقـد واصلت الجـلاّسـةُ الصُّراخ، ثُمَّ سمعتُهـا تتوسّل :

ـ كلاّ، يـا أخي، ليس هـذا، كلاّ، أنتَ تخيفني، كلاّ ليس الموسى، ستؤذي نفسـك، كـلاّ أرجوك... كلاّ، ليس صحيحاً... لقد اختلقتُ كلّ شيء. أنتَ تعرف كم أُحبّـك، وكم أنـا شقيـة. إنّني أسحبُ كلّ ما قلته.

ـ افتحي باب المطبخ إذن...

ـ حالاً.

لقد رأيتُ القنصل، بموسى الحلاقة أسفل عنقه، مُهَدَّداً، حانقاً، جَمُوحاً. فأمسكتُ بيده. مضيتُ به إلى غرفته. كان يرتجف ويتصبب عرقاً. وقد انتزعتُ الموسى من يده وجلستُ بجواره.

ـ إن عينيّ جافّتان، لكنني أبكي بغزارة في أعماقي. أبكي لأنّ أختي حمقاء. أبكي لأنّني أوشك على فقدانك. فأنا لن أتحمّل غيابك. لا أعرف اسمك. وقد ناديتُكِ منذ اليوم الأوّل بـ «المَدْعُوَة»، وكان بإمكاني أن أمنحكِ اسماً، لكن ماذا يهمُّ الاسم والقرابة. إنّ وجودَكِ في دار المجانين هذه أضاف قليلا من الحياة، وبعض الأحاسيس، والدّفء واللّطافة.

كانت الجلاّسةُ قد انصرفت. فانتهزتُ تلك اللّحظة المأزومة واعترفتُ للقنصل بكلّ شيء. حكيتُ له قصّتي منذ الولادة حتّى الهرب، والتسكع، والاغتصاب، واللّقاء مع الجلاّسة. أخبرته بحسرتي، وأساي، والأمل الذي اكتشفته من جديد بفضل صداقته الكتومة والرّقيقة. كما قلت له بأنني كنت أعرف بأنه سيتمّ العثور عليّ من يوم لآخر وسيتمّ عقابي. وأنني كنتُ أنتظر هذا اليوم برصانة، لكنني أنا أيضا لن أُطيق الانفصال عنه.

لقد جعلته قِصّتي يبتسم. كانت بالنسبة إليه حكايةً ابتكرتُها لعبور السنوات العشرين الأولى من الحياة، قصّةً تفتّقَ عنها خيال طفلٍ لا بُدَّ أنه كان ضَجِراً ففضّل الدّخول في اللعبة بين الجدّية والهزل.

وبينما كنا لا نزال تحت تأثير نوبة الجلاّسة أضاف قائلا :

ـ الضّحِك أمر هام، إنّه يدمّر جدار الخوف، والحساسية المفرطة، والتّعصب.

كانت له مقدرةٌ عظيمة على التّغيُّب عندما كان يجد أن وَضْعاً ما ثقيلٌ ودبقٌ.

ـ لستُ بحاجةٍ إلى إغماض عيني. فأنا أبقى هنا، بينما يكون ذهني فوق، في الغرفة، أو السّطح. أحبّ أن أضحك عندما لا يكون شيء على ما يُرام، لأنّه لا شيء واضِحٌ حقّاً، ولا شيء غامض بإطلاق. أودّ أن أقول بأنّ كلّ شيء معقّدٌ، وأنّ الحقيقة أقرب إلى الظّل منها إلى الشّجرة التي تعطي هذا الظّل. إذا كان ما حكيْتِه لي قد حدث حقّاً، فلا بدّ إذن أنّكِ تسلّيت كثيراً. لن أقول بأن الأمر كان مماثلاً بالنسبة لأهلك ومحيطك. إنّهُ لَحَظٌّ اللعب بمثل هذا الحِذْق على لوحتين. ليس العمى عاهة، كما قلتُ لكِ ذات يوم. طبعاً إنّه عاهة، لكنّه لا يبقى

كذلك بـالنّسبـة لمن يعرف اللّعب بـه. إنّ اللعب ليس معنـاه الخـداع، بل الكشف عن فضـائل المُعْتِم. مثله في ذلك مثل الذّكـاء، لم أعـد أذكر من عرَّفَـهُ بـاعتبـاره لا فَهْمـاً للعـالم. إنّ هـذا يقودنـا إلى شعرائنـا الصّوفيين الـذين كـانوا يعتبرون الظّـاهِرَ بمثـابـة القِنـاع الأكثر انحرافاً للحقيقة. وبما أنّكِ قد عِشْتِ ذلك في جسدكِ، فأنتِ تعلمين بأنَّ النّور خديعة. ماذا هناك من واضحٍ ومُحدَّدٍ في العلاقات بين كائِنَيْن ؟ يبدو لي بأنه كانت هناك لحظـة سهْوٍ في حيـاتـك، وأنّها طالتْ، وقد مِلْتِ إليها واستمتعتِ بها وأخذتِ تلعبين لتشويش الآثار وتحدّي النظرات.

التمس يدي بعد برهةِ صمتٍ. لم أبذل جهـداً للاقتراب منـه. كنت لا أزال أفكّر فيمـا أتى على قوله. «لحظة سهو»، هكذا كانت حياتي، خيال ظِلّ حياتي. وكنتُ مقتنعةً بأنّني لو كنتُ قد التقيتُ بهـذا الرَّجل خلال حيـاتي كولـدٍ متنكّر، لكنتُ إمّـا أحببتُـه أو كرهتـه، لأنـه كـان سيكشفني فوراً. كنتُ أعتني بالظّاهر، لكنّ العمق كان سليمـاً. وبحَقٍّ، فـإنّ ذلـك الرَّجُل غيرَ المبصر كـان يرى بكلّ حواسّـه الأخرى. فكـان سيكون من المستحيل الكـذب عليـه. لا أحـد يكذب على أعمى. يمكن أن تُحكى له أقاصيص مختلَقـة. لكنّـه يثِقُ بـالصَّوْت أكثر ممـا يثق بالجُمَل التي يتلفّظ المرء بها.

بالرّغم من أنّه كان يتظاهر بعدم تصديق قِصّتي، نَمَّتْ ابتسامتُه عن ارتيـابـه في أمْرٍ مـا. لقد أمسكَ بيدي، ورفَعَها إلى شفتيه وقَبَّلهـا وهو يُعَضْعِضُهـا قليلاً. فنـدَّتْ عنّي صرخـةٌ قصيرة. وقد قال لي بسيماء الحالِم :

- إنّ خطيئتنا، الّتي تتأكَّلُ النَّفْس وتُفْسِدُهـا، وتنتزع مِنْهـا كلّ مرةٍ بعضـاً من نقـاوتهـا، هي رفضنا للعزلة. لكن ما العمل ؟ إننا على قَدْرٍ كبيرٍ من القـابليـةِ للعطب... قـد نكون أنتِ وأنا تعلّمنا، بحكم قَدَرَيْنا الفريدَيْن، أن نكون فيما وراء هذه الهشاشة. على كلّ حالٍ هـذا مـا أحسستُ به فور دخولكِ إلى هذه الدّار. قُوَّتُنا هي كوننا غير مدينين بشيء لأحد. وبإمكـاننـا في أية لحظة مغادرة هذا العالم، بدون نَدَمٍ أو مأساة. لقد قضيتُ حياتي كُلّهـا وأنـا أتَعَوَّدُ على فكرة هذا الرحيل الإرادي. إنني أحمل موتي معي. في عُزْوَتي. والبقية، نوعٌ من الهُيـاج لكي لا نُخَيِّبَ الزّمن. لا ينبغي السَّماحُ للزّمن بأن يسأم معنا. فهنا نرتكب حماقاتٍ، ونقوم بـأمورٍ لا تليق بذكائنا. أقول «نحن»، لأنّنا متشابهان، ولأنّ ميثاقاً مختوماً بالسِّرّ يجمع بيننا.

كنتُ أفكّر من جديد في المشهد الذي كان القنصل يهدّدُ فيه بذبح نفسه إذا لم تفتح لي الجلاّسة. فلم أتمكّن من الامتناع عن سؤاله إن كان ذلك جدّياً. وقد ادّعى بأنّه لا يعرف وأنّ الجدّية على كلّ حال ليست سوى شَكْلٍ حادٍّ من اللعب. ربّما كان صادقاً. فقد اعترف لي بأنّ أخته تخيفه أحياناً وقَدَّمَ لي عنها صورةً لا وجود فيها لأدنى تسامُح :

- هي مجنونة بعض الشيء، لأنّها تعيسة. لقد كانت شُجاعَةً عندما أَلْفَيْنا نَفْسَيْنا، بين عشية وضحاها، مُعْدِمَيْن، بدون أهل، ولا دار، ولا ملجإ. كنّا وسط الخرائب. فقد كانت المدينة قد زُلْزِلَتْ، وانزلقت نحو أفقٍ أحمر. وقد احتفظتُ من تلك الفترة بهيجانٍ داخلي لم يتمكّنْ أيُّ شيء من تهدئته أو إخماده. لذا صارت خَشِنة. وبإمكانها أن تكون شريرة، جائرة؛ وبإمكانها تخريب كلّ شيء، دون وعي فيما يبدو. ولا يجعلها تُحْجِم سوى عنفٍ أقوى من عنفها. هكذا يمكن أن أجد نفسي مدفوعاً لأن أكون عنيفاً. ليس ضدّها، بل ضِدّ نفسي: بهذا، أصيبها في صميم كيانها. وهي تعلم بأنني قادرٌ على تنفيذ تهديداتي. إن ما يمكن أن أؤاخذها عليه أكثر هو النّقصُ في الأرْيَحية، واستعدادها، المبالِغ في جلائه، للكراهية والخبث. أعلم بأنّني أسيرُها. وأنا أعاني من هذا وآمل أن أتخلّص منه في يوم من الأيام. تصوّري، لقد أفْلَحْتُ في التّحرُّر من عراقيل العمى ولكنّني أخفقتُ في التخلص من الحنان الذي تكنّه لي أختي !

بينما كان يتكلّم، التصقتُ به حتّى تجمّعْتُ في حضنه وأحسستُ بجسده السّاخن.

تضاجعنا لأول مرّةٍ في الدّار. وبعدها ظللنا صامِتَيْن. كنتُ أُعاود التفكير في تهديدات ودسائس الجلاّسة. لقد كانت قادرةً على القيام بعملٍ مشؤوم مثل تدميرنا، أو على الأقلّ القضاء على سمعتي. فعندما كانت تصرخ ذلك الصّباح كان هناك لُعابٌ في ملتقى شفتيها. كان ذلك هو الدّليل الخارجي للكراهية. ولم تَعُدْ عيناها مُحمَرَّتَيْن، بل كانتا مُصفرتَيْن. لقد كان هَياجُها هياجَ حيوان جريحٍ يرفض الموت بمفرده. فلا بُدَّ أنّه كانت بحوزتها بعض القرائن أو المعلومات حَول ماضِيّ الشخصي. وبالرّغم من أنّه لم يكن هناك ما أؤاخِذُ عليه نفسي حول تلك الفترة من حياتي، فقد كنتُ أريد أن أتلافى مُواجهَةَ ذلك الرّياء في يومٍ من الأيام. عند دفني لأبي، حرصتُ على أن أدفن معه كلّ الأشياء التي استعملتها خلال تلك

الفترة. وعليه، لم يعد بمقدورها أن تشهد. طبعاً، كان لا يزال هناك الأعمام، والأخوات، وأبناء الخؤولة والجيران. وقد هربتُ ماحيةً الآثار وتوقّفتُ في الطَّرَفِ الآخر للبلاد. لقد شاءت الصُّدْفَةُ ألا يطول تسكعي. فقد قاد القدر خطواتي إلى الحمّام. وكان الاغتصابُ في الغابة هو الّذي دفعني إلى ذلك المكان. كنت أعلم بأنّني لن أَقْدِرَ على العيش، في مرحلةٍ أولى، إلاّ مع أشخاصٍ فريدين. وكنتُ سعيدةً بأن يكون أوّلَ رَجُلٍ أحَبَّ جسدي رجُلٌ أعمى، كانت عيناه في أنامله، وكانت مُدَاعباتُه المتمهّلة الرّقيقة تُعيدُ تركيب صورتي. ثمّةَ كان يكمن انتصاري؛ وكنتُ مَدِينَةً به للقنصل الذي كانت لطافته تُعَبِّرُ عن نفسها باللّمْس خصوصاً. لقد رَدَّ لكلّ واحدةٍ من حواسّي حيويتها التي كانت هاجعةً أو مُعاقة. وعندما كنّا نتضاجع كان يقضي لحظات طويلة في التّفرُّسِ بيديه في مجموع جسدي. بذلك، لم يكن يثير شهوتي فحسب، بل كان يمدُّها بكثافةٍ نادرةٍ كانَتْ تُرْضَى بعد ذلك على نحو رائع. كان كلُّ شيء يتمُّ في الصّمت والضوء الخافت. كان حريصاً جداً على الضّوء. فقد كان يحدث له أحياناً أن يكون أَخْرَق فيغضب لذلك. عندها كان يطلب منّي أن أوقد لَمْبةً أخرى أو شمعة. وكان يقول لي : «أنا بحاجة لقليلٍ من الضوء لكي أرى جسدكِ، لكي أشم عطره، ولكي تَتْبَعَ شفتاي خطوط انسجامه». فمن المرجّح أنّ تجربته مع النّساء كانت محدودةً؛ إذْ كان يدأبُ على التّركيزِ مثل فنّانٍ قبل شروعه في عملٍ مّا. وقد كان يقارنُ نفسه بنحّاتٍ فيقول لي كذلك : «لكي يغدو جسدك أليفا لدي، ويتخلّى عن التمرّد، فإنا أنحته بعنايةٍ، وصبر».

كنتُ قد قضيتُ كلَّ مراهقتي وأنا أَصُدُّ الشهوة بكلّ قواي. كنتُ مخدوعةً، لكنني كنتُ أجني من ذلك الوضع كثيراً من الفائدة. وقد انتهى بي الأمر إلى عدم التفكير في الشهوة بتاتاً. لم تكن من حقّي. كنتُ أكتفي بأحلامي الهذيانية، المأهولة بقضبانٍ ذكورية، وأجسادِ فِتيانٍ وَسيمِين، ومآدب مبتذلة. وغالباً ما كان يحدث لي أن أُهدّئ جسدي بنفسي وأخجل لذلك. كلّ ذلك كان بعيداً في الوقت الحاضر. ولم أكن أريد معاودة التفكير فيه. لقد كان للمُعْجِزة وجه القنصل وعيناه. فقد نَحَتني في تمثالٍ من اللحم، يُشْتَهَى وَيَشْتَهِي. لم أعد كائناً من الرّمل والغبار مضطربَ الهوية، مُتَفتّتاً عند أقلّ هبّةِ ريح. كنتُ أُحِسُّ بكلّ واحدٍ من أعضائي يتقوّى ويَنْجَبِر. فلم أعد ذلك الكائنَ من الرّيح الذي لم يكن كل جِلْدِهِ سوى قناع، وَهْمٍ مُعَدٌّ لخداع مجتمعٍ بلا حِشمة، مجتمعٍ قائمٍ على النّفاق وأساطير ديانةٍ حُوّل اتّجاهُها

وأفرغتْ من روحانيتها، وخديعةٍ من صُنْعِ أبٍ مهووسٍ بالعار الذي يحرّكه المحيط. كان يلزمني النسيان، والتّسكع، والنّعمة التي سكبَها الحبُّ لكي أُولَدَ ثانيةً وأعيش. يا للأسف ! لم يكن مقدوراً لهذه السعادة، وهذا الاكتمال، وهذا الاكتشاف لِلذّات في النظرة الجليلةِ لأحد العميان أن يدوم. كنتُ أعرف ذلك. كنت أستشعره. لقد كانت تلك السّعادة القصيرةُ والكثيفة معاً على وشك التّعرض لانقطاعٍ شرس. وبالرّغم من أنّني كنتُ تعيسةً، فقد كنْتُ أَقْبَلُ بالقدر. لم أكن قدريةً، لكن لم تَعُدْ لي القوّة على التّمرُّد.

15
القَتْـل

كل شيء تَمَّ بمنتهى السرعة. فقد اختفت الجلاّسة طيلة أكثر من أسبوع. كان القنصل يعتقدُ بأنّها منشغلةٌ بزيجاتها. أمّا أنا فكنتُ مقتنعةً بأنها في سَفَرٍ لتبحث عن شيءٍ مّا. وقبل أن تذهب، كانت قد أرسلتْ إلينا إحدى خادمات الحمّام لِتُخْبِرنا بأنّها منشغلةٌ كثيراً في الآونة الأخيرة، وأنّه لا داعي للقلق.

عادتْ ذات صباحٍ في ساعة مُبكّرة. كنتُ مستغرقةً في نومٍ عميقٍ في حضن القنصل. فَفَتَحَت الباب وانتزعتْني من السّرير جاذبةً إياي من شعري. وقد استيقظ القنصل مذعوراً، مندهلاً، معتقداً بأنّه في كابوس. كانت تُرْغي وتُزْبد :

ـ تعالي، يا نسل الكلاب، يا لصّة، يا قحبة، تعالي لِتَرَيْ من ينتظركِ تحت، قتلتِ الجميع ومضيتِ بالإرث...

كانت تدفعني راكلة إيّاي. وكنتُ أتشبث بأيّ شيء أطَاله. كان القنصل يرتدي ملابسه. ألْقَتْ بي في السُلّم. فسقطتُ ووجدتُني وجهاً لوجه مع عمّي، والد فاطمة، البخيل الذي حذّرني منه أبي. كان غضبه كظيماً. فكان يتبدّى في شحوبٍ لا يُنبئ بخير. كنت أعرف بأنّه كان رهيباً، وأنه إذا كانت ابنته مصروعة ومُهْمَلَةً فبسبب شراسته. كان أبي يدعوه «أخي الحقد». فهو الذي كان يستهزئ بأمّي، العاجزة عن إنجاب وَلَدٍ. كان يقوم بذلك ببرودة وصلافة. إنّ المُخاط المُدَلّى من أنفه كان سُمّاً. ولقد كرهته على الدّوام. كنتُ أقوى منه لأنني لم أكن أتيح له أبداً فرصةً للاقتراب مِنّي أو إقامة أدنى علاقةٍ معي. فقد كنتُ أعرفه مشحوناً بكراهيةٍ لا حدود لها. وإذا كنتُ قد تظاهرتُ بالزّواج من فاطمة، فذلك بالأخَصّ لإنقاذها من عائلتها التي كانت تتركها تتهزّز بمفردها خلال نوباتها. لقد قضى حياته كلّها في إظهار الحسد

لشقيقه، والسعي إلى إلحاق الضَّرَر بالجميع. كان هواه الأعظم يتمثّل في نصب أشراكٍ للنّاس، في ابتزازهم بالتّهديد، والاستفادة من ضعفهم أو شقائهم. لقد كان جيفةً. وعندما رأيتُه، فهمتُ بأنّه أوقعني في الشَّرَك. كان صامتاً ويتلذّذُ بانتصاره. وقد كان بإمكاني أن أنكر كلّ شيء وألاّ أعترف به، لكنْ صورةَ بِرْكةِ ماءٍ ثقيلٍ ولزجٍ اكتسحتني، فسبَّبتْ لي الغثيان وجعلتني أفقد رباطة جأشي. تلاقتْ نظرتانا بتركيز. في نظرته كان يستقرّ الحقد وشهوة الانتقام. وفي نظرتي كانت الشّفقة ورغبةٌ شاسِعَةٌ في إنهاء الأمر. طلبتُ منه أن ينتظرني، ريثما أذهب لأخْذِ أغراضي وأتبعه. صعدتُ إلى غرفة القنصل، الذي بدا منذهلاً، يائساً، فاقداً لردّ الفعل. وتوجَّهْتُ رأساً إلى الدّرج الأسفل. ألْقَمْتُ المُسَدَّسَ ونزلتُ دون استعجال. وعندما لم يعد يفصلني عن العمّ سوى متر واحد، أفرغتُ المشط كلّه في بطنه.

في طرفة عينٍ علمتُ بأنّ نهاية الحَلْقَة قد حانَتْ. لقد كان يتوجَّبُ عليَّ أن أختمها وأمْهرها بهذا القتل. عندما يطلقون النار على أحدهم، فهم لايفكّرون في شيء على العموم. أمّا أنا، فقد اكتُسِحْتُ بحشْدٍ من الصور والأفكار. كنتُ مأخوذَةً بمَدِّها وكنتُ أعلم بأنّ يدي قد حُرِّكَتْ بطاَقةِ فاطمة، ثم بطاقة أبي وأمّي وكلّ الّذين كانوا في يومٍ مّا ضحية خبث هذا الرَّجُل.

عند رؤيتي للدّم بلونٍ أصفر ضاربٍ إلى الخضرة، وهو يسيل من ذلك الجسد المُمَدَّد على الأرض، شعرتُ بالارتياح. كانت الجلاّسَةُ تولول وهي تخدش وجنتيها. أما القنصل الذي كان أسيرَ صمته، فكان يبدو عليه الغياب. أحسستُ بالبرد. فوضعتُ وشاحاً على كتفي وانتظرتُ بقية الأحداث. كنتُ أُمعن النظر إلى الأرض ولم أعد أسمع شيئاً. كنتُ قد غدوتُ بعيدة. وكنتُ أركض في أحد المُروج متبوعةً برهطٍ من الأطفال الذين كانوا يرشقونني بالحجارة. كنتُ في سِنّ السَّعادة، أكاد أبلغُ عاماً. ولم تَعُدْ مقولةُ الخسارة موجودةً عندي. كنتُ قد عشتُ في بضعة أَشْهُرٍ عاطفةً بمقدورها إشباعي إلى نهاية أيّامي.

لقد مَثَلْتُ أمام القضاء وتمّ الحكم علي بخمس عشرة سنة سجناً. لم أكن أرغب في محامٍ. فعيِّنَتْ لي المحكمةُ واحداً. كانت محاميةً، امرأة شابّة قامت بمرافعةٍ جميلةٍ حول وضعية المرأة في بلدٍ مُسْلِمٍ. وقد تمّ الاستماع إلى كلٍّ من الجلاّسة والقنصل كشاهِدَيْن. لم أعد أذكر ما قالتْهُ الجلاّسة، أما القنصل، بالرّغم من أنه ابْتُلِيَ بهذه القضية، فإنه لم يُظهِرْ ذلك البتّة. وقدّم تصريحاً كان قد أعَدّه :

ـ من يسعى دوماً إلى استباحة الإنسـان لا يمكن أن يحظى بتقـديرنـا. والـذي لا يُوَفِّر فضيحة أحد ليس إنسـانـاً. وحينمـا يكون المَرْءُ مـالِكـاً للفَضْل وحـائِزاً على رِفعـةٍ في النَّفْس، يحدثُ أن يصير قـاسيـاً، أي مُنْصِفـاً. إنّ المرأة التي تحـاكمون اليوم هي من هؤلاء الأشخـاص الاستثنائيين الّذين صمدوا في وجه كلّ الفضائح التي فرضها الحقد. لقد استقبلتْ ألمهـا الأكبر، وهذا أَمْلَتْهُ عليهـا رِفْعَـةُ نفسهـا. إنّني مُرْتبـطٌ مع هـذه المرأة بميثـاقٍ؛ وهو سِرُّنـا . ثمَّـةَ يكمن حُبُّنا. لم تجر العادة بسماع الحـديث عن الحب في هـذا الحَرَم. فـاعلموا هـذا : إنّ هـذا الحُبَّ الذي يربطنا يُبْعِدُ عنّي العتمات. لذلك فأنا سأنتظرها.

16

فِي العَـتَمَـات

في السّجن، سرعان ما انتظمتْ حياتي. لم أعتبر الحبس عقاباً. فبعد أن وجدتُني بين أربعة جدران تبيَّنْتُ كم كانت حياتي كرجُلٍ متنكّرٍ تُشْبِه السّجن. كنتُ محرومةً من الحرية في الحدود التي لم يكن فيها من حقّي إلاّ دورٌ واحد. خارج هذه الحدود، كانت الكارثة. في التّو، لم أنتبه كم كنتُ أتألّم. فقد تمّ تحويل مسار قَدَري، وتَمّتْ معاكسة غرائِزي، كما تمّ تغيير جسدي، وإنكار نشاطي الجنسي، والقضاء على آمالي. هل كان لي الخيار في ذلك ؟

إنّ السجن مكانٌ يتظاهر المرءُ فيه بالحياة. إنّه حظٌّ. ولونه لون الغياب، لون نهارٍ طويلٍ لا ضوء فيه. قُماشٌ، كَفَنٌ ضيق، وجهٌ محروقٌ، هجرتْهُ الحياة.

كانت زنزانتي ضيّقةً وقد افْتُتِنْتُ بها. أقصد أن أقول لكم بأنّها كانت مسبقاً تجسّد القَبْر؛ فكنتُ أعتبر تلك الإقامة جزءاً من الاستعدادات للرحيل الأكبر. لم تكن رطوبةُ الجدران تطالُني. كنتُ سعيدةً بالحصول أخيراً على حيّز في مستوى جسدي، وأحافظُ على الحد الأدنى الممكن من العلاقات مع السّجينات الأخريات. فقد كنتُ أرفض الخروج للتفسح. كما أنّني طلبتُ ورقاً وقلماً. كنتُ أريد أن أكتُب. أحسستُ بأنّ الكلمات تجتذبني من كلّ الأنحاء. كانت تَفِدُ عديدةً، في زمرةٍ، لكي ترتطم بحاجز قفصي البارد. كلماتٌ، روائحُ، صورٌ، وأصواتٌ كانت تطوف حول أَسْري. في الفترة الأولى، لم أنشغل بها؛ فقد كنتُ أتعلّمُ الانتظار. لم أكن أريد قياس الزّمن. لذلك أزَلْتُ الضَّوْءَ الخافت الذي كان يتدفّق من فتحةٍ بأعلى الجدار. ما جدوى الإيهام بالنّهار وضيائه بينما كان كلّ ذلك المكان غارقاً في ليل دامسٍ، طويلٍ وعميق. كنتُ أطلب العتمةَ وانتهيتُ بالحصول عليها. وكنتُ أفضّل العيش في مساحةٍ من نفس اللون، والتّعَوُّدَ على تلك القطعة المُسَطَّحة من الأرض، وذلك الخط المستقيم الذي

كنتُ أسير عليه؛ كنتُ أَلِجُ تدريجياً العالم اليومي للمحرومين من البصر مثلما كنتُ أنا محرومةً من الحرّية. فكنتُ أعيش مغمضة العينين. أعترف بأنّني كابدت لكي أتعوّد. وكنتُ قد عصبت عينيّ للمزيد من التّأكُّد. لم يكن هُناك فحسب شَيْءٌ يمكن أن يُرى في ذلك المكان القَذِر، ولكنّها كانت طريقتي في أن أكون قريبةً من القنصل. كنتُ أحاول دخول عتماته، آملة أن ألتقي به، وألمسه وأُكلّمه. كان يزورني كلّ جمعة، عند الظُّهيرة. فكانت حياتي تُرَقَّمُ بتلك الزِّيارات الأسبوعية. في البداية، كان ذلك يُضْحِكُ بعض الغبيات اللائي كُنَّ يتهكّمْنَ على «الأعمى الذي يأتي ليراها، نعم ليراها...». ولم أكن أردُّ أبداً على تلك السخريات. في الفترة الأولى - ولم أكن قد أغمضْتُ عينيَّ بَعْدُ - كان كلٌّ منا ينظر إلى الآخر ولم نكن نقول لبعضنا أيّ شيء. كنا نبقى، طيلة وقتِ الزّيارة، يداً في يد دون أن نتفوه بكلمة. كان يحملُ إلَيَّ كُتُباً، ودفاترَ أوراقٍ وأقلاماً. لكن حينما عصبت عينيَّ، كنتُ قد حكمتُ على نفسي بعدم الكتابة. وفي ذات الوقت، كانت الرغبة في الكتابة تتعاظم بداخلي. كان النور يُضاء في كلّ الزنازن من السّابعة إلى التاسعة مساء. فقرّرتُ أن أفتحَ عينيّ خلال هاتين الساعتين وشرعتُ أكتب بسرعة؛ كنتُ أُخَرْبِش. كانت لديَ الكثير من الأُمور التي ينبغي تدوينها بحيث لم أعرف بأيّها أبداً. عدتُ إلى عصب عينيّ وأخفيتُ رأسي تحت الوسادة. كانت العودة إلى السّواد تطمئِنُني. فقد كنتُ على هذا النّحو أتّحِدُ شعورياً بالقنصل. لم يكن يعرف ذلك ولم أكن أُريد له أن يعرف. لقد كان حُبّي له يَسْلُكُ سَبيلَ معابره الخاصّة، وتلك كانت هي الوسيلة الوحيدة بالنسبة لي لأكون معه. إنَّ العمى، حينما يُقْبَلُ برِضى، يمنح بصيرةً وشفافية فريدتَيْن فيما يخص الذّات والعلاقات مع الآخرين. وبما أنّني لم أتمكّنْ من الكتابة حقّاً، فقد أخذت أستغل تينك السّاعتين من الضوء في القراءة. لم أتمكّن من الامتناع عن القيام بإسقاطاتٍ على كلّ شخصيات الحكايات التي كنتُ أقرأ. فكنتُ أعصب لها عيونها على نحوٍ مُنَظَّمٍ وأرسلها إلى السّجن بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار. لم تكن قراءتي بريئةً أبداً. بل كان يحدث لي أنْ أقوم بترحيل شخصيةٍ من قصّةٍ لأُخْرى. كان ذلك يُسلّيني ويسمحُ لي بأن أعمل قليلاً. وكان كل ذلك يختلط برأسي ويُعمِّر بعد ذلك لياليّ التي كانت تمتزج فيها الأحلامُ والكوابيس والبياضاتُ وتُنْهِكني. كنتُ قد غدوتُ أنا نفسي، تدريجيا، واحدةً من شخصيات تلك الليالي المضطربة الخيالية، لدرجة أنني كنتُ أعجّل بالنوم لكي أعيش، أخيراً، مغامرات خارج المألوف.

هكذا وجدتُني متورطة في قصّة حُبٍّ قاسية كنتُ فيها، في نفس الوقت، سازُوك المُريد العاشق لأُستاذه، معلّم الموسيقى، والمرأة شونكين، التي صارت عمياء، لأنّ غلاّية من الماء المُحْرِق اندلقت على وجهها. كنتُ الرَّجُلَ والمرأةَ معاً، تارةً ملاكاً مأخوذاً باللطافة والحب، وتارة أخرى عاصفة انتقام لاشفقة فيها. كنتُ العلامةَ الموسيقية والأداة، أدولف وإليونور، العاطفة والمعاناة. وكانت تحدث لي الكثير من السِّيَر بحيث كنت أخلط كلّ شيء بمتعةٍ، مأخوذة بالفضول في معرفة ما ستحمله لي الليلة الجديدة من أدوار.

طبعاً قرأتُ **ألف ليلة وليلة**، بِنُتَفٍ صغيرة. كنتُ أقفز من ليلةٍ لأُخرى وكنتُ أتخيّل جيداً عواقب الفوضى التي كنتُ أثيرها.

كانت لياليّ غنية. وعوض أن أكتب، كنتُ أقرأ لكي أشحنها. أمّا النهارات فقد ألغيتُها، وأدمجتُها في السَّواد وحزمتُها في نفس الكيس. كنتُ قد قرّرتُ ألاّ أرى شيئاً من السّجْن، أو على الأقل أن أرى أقلَّ حدٍّ ممكن من الأشياء. كان ذلك من حقّي وكنتُ متمسّكةً به، رغم ما كان يصدر أحياناً عن الحارسات من تعاليق. لقد مرّتْ السَّنَةُ الأُولى حسب هذا الإيقاع المُنْتَظِم : سَوادٌ بالنهار ثم فتح العينين بين السّابعة والتّاسعة للقراءة أو الكتابة. سَواد من جديد مُضافاً إليه اللّيْلُ ومواكبه، ثم زيارة القنصل يوم الجمعة. كان ذلك يأخذُ شكلَ طقسٍ معيّن.

في يوم الجمعة ذاك، استشعرْتُ منذ الصُّبْح بأنّه لن يأتي. كان قلبي منقبضاً، ولم أكن في وَضْعٍ حسن. كنت أعرف. يستحيل عليّ أن أقول ماذا. كنتُ أعرف، هذا كل ما هنالك.

في السّاعة الخامسة حملتْ لي الحارسةُ رسالةً. كان ظرفُها مُمَزَّقاً. فنزعتُ عصابتي. كانت الغرفة معتمة جداً بحيث ما كان بإمكاني تهجّي الرّسالة. صعدتُ فوق السّرير ونزعتُ قطعة الثوب الأسود التي كنتُ قد ثَبَّتُّها في النافذة. فحصلتُ على خيط من النّور وشرعتُ أقرأ. كانت ساقاي ترتعشان، وقد صَعُبَ على عينيَّ أن تنفتحا عن آخرهما. انتظرتُ بُرْهَةً.

لقد ماتت أختي صباح الأربعاء إثر نزيف في الدماغ. وقد دفنتها بمفردي في نفس اليوم. تم الأمر بمنتهى السرعة، وهذا أفضل. كانت الحياة في الدّار لا تطاق. كنّا نتشاجر طول الوقت. كنتُ أنا تعيساً وكذلك كانت هي. لم أعد أتحمّل عاداتها، أكلها، شخيرها، رائحتها، صوتها. كنت قد صرتُ نَفُوراً من وجودها. وقد عيل صبري وأخذتُ أتصرف بعدوانية. لقد اكتشفتُ مدى العنف الذي يمكن أن يؤول إليه شخصٌ معاكَسٌ

باستدامة وإلحاح. في البدء، كان عنفي بدنياً، ثم، مع تكرار الأمور، صار داخلياً، فأخذتُ أضمر الكراهية لتلك المرأة البئيسة. لقد كانت حياتها كلّها سلسلة من الإخفاقات بعد طموحاتٍ غير معلنة، وأطماع، وسعي حثيث لعزلي والاستئثار بي. كانت تروم الْتِقامي والْتِهامي. لكنني كنتُ أقاوم. كنتُ يقظاً. بعد المأساة ثم رحيلك، كانت تقول بأنها المذنبة، وكانت تضيف متحدثة عنكِ : «على كل حال، لا يمكن أن يصدر شيء حقيقي عمَّن بنى حياته على الكذب». كنتُ أدعها تتكلم. ولم أكن أردّ عليها. فكانت تبكي وتتمنّى الموت. وقد كنتُ أتمنّاها لها في صمت. إنّ غيرتها دمّرتنا؛ وخرّبتْ كلّ شيء؛ ولم يَعُدْ من شيء حيٌّ في دارنا.

لقد كانت هي التي قامت بتحريات عنكِ في مدينتك الأصلية. كانت تقول بأنّها تروم فَضْحَكِ. وقد أفلحتْ في العثور على ذلك الرجل المُدَوَّد الذي كان عمّك، المُرابي الذي كان يجعل من متجره الذي يبيع فيه النعال مكتباً للقرض. هل تعلمين بأن موته أشاع السعادة لدى الجميع. لقد كان مُشَنّعاً عليه من طرف الناس، فقد كان متورطاً في العديد من الأمور المشبوهة، ولكنّها كلّها عديمة القيمة. كلّ هذا لكي أقول لكِ بأنّ حركتكِ كانت مشروعة. إنّني أُفكّر فيكِ، وعيناي، المغمضتان على فكرتك، راغبتان في لقياك. عليّ أن أُسوّي المشاكل الناجمة عن موت أُختي. إذ يلزمني أن أُعيد ترتيب نفسي. إنّ العزلة لا تخيفني. لكنّني لا أعرف متى سأكون قد سوّيتُ كلّ شيء. أنا بحاجةٍ لمن يعتني بالدّار وأيضاً لمن يشعل لي موقد الطبخ. حالياً يوجد برفقتي شاب من أبناء الجيران. إنّه يقرأ لي ويزعم بأنّه مُريدي. هذا يضحكني. أهلُه يرسلون لي الوجبات الثلاث. إنهم في غاية اللّطف. وأطفالهم يقرأون بكُتّابي.منذ أمس البارحة وأنا أستقبل النّاس باستمرار؛ وهم يأتون لعرض مساعدتهم عليّ أكثر مما يأتون لتعزيتي. فأختي لم تكن محبوبة. وأعتقد بأن هذا أسوأ شيء. إذ أنّ موت المرء وحيداً وعدم تأسُّفِ أحدٍ عليه أسىً لا يطاق. لقد علمتُ دوماً بأنّ المنحرفين ينهون حياتهم في عزلةٍ شرسة. إنّ أُختي لم يمهلها الزّمن لكي تَخْبَرَ هذه المعاناة، لكنها لم تكن محبوبةً وكان هذا يؤلمها باستمرار. كنتُ الشخص الوحيد الذي لها في العالم. وقد حدث أن أحببتُها ورضختُ لمطالبها. فقد كانت تلحّ على الاعتناء بكلّ شيء، حتّى بنظافتي. لكنني لم أحببها أبداً كأخت، بل كشحاذة تعطي كل ما تملك مقابل قليل من الدّفء. هذه هي

الشفقة. إنني قاسٍ، لأنني مدينٌ لها بالبقاء على قيد الحياة. لكن هل يتوجب على المرء أن يجرّ خلفه حتّى الموت أولئك الذين حكموا عليه بالحياة ؟ لن نسمح الآن لأنفسنا بإيقاظها بحُكمٍ لا رأفة فيه، ، وهي مستغرقةٌ في نوم بدون ضجيج، بدون صور، نوم ما وراء كلّ الليالي. إنّ الألم الّذي يسكنني لا يتكلّم عن نفسه بل عنكِ، بالنّهار كما باللّيل. وأفكاري تتجذّرُ في غابةٍ غسقيةٍ توجَدين بها السّاعة أسيرةً. وقلبي مَقْعد حجري مغطىً بالأوراق، وموضوعٌ في الطريق للتوقف والرّاحة. ستردُّكِ إليه الصُّدْفَةُ أو ستعيدُكِ الرّيح. أنا في انتظارك. وإلى اللقاء بعد قليل.

غالباً ما كان يقول : «إلى اللقاء بعد قليل» وهو يقصد «إلى اللقاء» أو «إلى الجمعة المقبلة». لقد أثّرَ فيّ موتُ الجلاّسة. فعدتُ أُفكّر في شقائها، في جسدها الكئيب، في خيباتها التي تركتْ آثاراً على وجهها، وحاولت أن أفهم سبب عدم امتناعها عن فعل الشر عندما لم يكن يُرْغمها شيء على ذلك. كانت تريد أن تُغَرِّمَ الجميعَ بؤس جسدها الملتبس بكرب نفسها. فثمة بعض الناس يستمدّون طاقتهم من الكراهية لكي يعيشوا. وغالباً ما يمكن رؤيتهم عند الغسق وهم يطوفون حول بركة ماء راكد، هناك حيث تسبقهم الفئران، لِسَكْبِ كلّ سُمِّهم. وعبثاً يُقالُ بأنّهمْ يُخْرِجُون الشُّؤم لكي يتطهّروا، فهم يحملون، في الحقيقة، شحنات سالبة ويبقون بحاجةٍ إلى تصريفها في آخرين قبل أن تؤدّي إلى شللهم الخاص، ثم إلى موتهم. فلا بُدَّ أن الجلاّسة ماتت ضحيةً لرغبتها الخاصّة في إلحاق الضّرر. إذْ لآبَدَّ أنّها فقدتْ رشدها بعد المأساة التي سبّبتْها، وزرعت فيها الاضطراب، فلم تعثر على أيّ مكانٍ، أو أيّ شخصٍ تُفْرِغُ فيه ضغينتها.

عصبتُ عينيّ من جديد وأخذتُ ألتمِسُ اللّيْل. لم يبق لي سوى انتظار ساعات السكينة التي سيأتي الحبُّ وحده ليُشَوِّشها. كان كياني بأكمله يتوق للهدوء، لتلك الحالة التي تتباطأ فيها الإيقاعات وتمنحُ تهدئة وعياءً بهيجاً. لم تعد لي من رغبةٍ في غير ذلك الهجوع المأهول بشخصياتٍ كانت تواصل حياتها فيّ كما لو كنتُ قد صرتُ مُسْتَوْدَعها، مَوْقدَها وقَبْوَها، حيث تَلْبدُ خلال الضوء النهاري. لكن ما إن كنتُ أُغْمِضُ العين حتّى تهرع إليّ من كلّ صوب ذاهبةً إلى حدّ معاتبتي على غيبتي الطّويلة. فكنتُ أضحك وأُتابع معها المغامرات التي تمّ الشُّروع

فيها في حِقَبٍ أخرى. ما كان يُضايقني هو أنّه لم يكن هنالِك من أثَرٍ للقُنْصُل في ذلك العالم المليء بالاهتياج والضحك والعنف. كان ينبغي العثور على الباب السّرّي الذي يمكن إدخاله منه وإشْراكه في تلك المناظر. لقد كان ثمّة رجلٌ أعمى، حارس مدخل الحديقة الأندلسية، لكنه لم يكن القنصل. فقد كانت لذلك الأعمى عصىً وكان يمنع الأطفال من الدُّخول. بل كان يضربهم أحياناً. كان شرساً، ليس من جرّاء عماه، ولكن لأنّه كان حارساً وفقيراً.

17

الرِّسَــالَــة

بالعصابة السوداء على عينيَّ كنتُ أرتاد تدريجياً عـالم العميـان. كنتُ أتعلَّمُ من جـديـدٍ حركـات الحيـاة اليوميـة، التي كـانت مقتصِرة على الضَّروري منهـا في السِّجن. ولم أكن أنـزع العصابة إلاّ عند القراءة، أو الكتابة أو الاغتسـال. كـانت طبقـةُ العتمـات التي كنتُ أستقـدمها نحوي تزداد كثافةً يومـاً عن يوم. فكـانت تسـاعـدني على الانفصـال عن جسـدي، على تركـه سليماً، محتفِظاً في ذكرى مُضْطَرِمة بآخر مداعبات الرَّجُل الذي كنتُ أُحِبّ. كـان الزَّمنُ يُلغي نفسه بنفســه. وهــذه المرَّة لم أكن أتظــاهر بشيء. كنتُ أتكيَّفُ وأتعلَّمُ التعـوُّدَ على العـزلـةِ والانتظار. رُبَّما كنتُ الوحيدة من بين جميع السجينات التي لم تكن تشتكي أبـداً من العزلـة. أمّا الانتظار، فلم أكن أُكلِّم عنه أيَّ أحد. كنتُ قد فرضتُ على زنزانتي الصَّمْتَ وحتّى النسيان. كنتُ أدفـع المـال لأظفر بـالسَّلام. فلم أكن أرغب بـالأخص في تبرير حركـاتي أو اعتـزالي الدّاخلي. وبالحَبْسِ حَدَثَ أمر غريب : لم يعد ماضيّ كرجُلٍ مُتَنكِّرٍ يحاصرني؛ كـان قـد طواه النِّسيان. إذْ بموتِ العمّ، كنت قد صَفَّيْتُ الماضي (على الأقل كنت أعتقد هذا). فضلاً عن ذلك، لم أكن أعْتبر بـأنني نزيلـة السِّجن لكي أُؤدّي ثمن تلـك الجريمـة، بل كنتُ هنـاك على نحو إرادِي تقريباً لانتظار عودة القنصل، المسافِرِ في قارةٍ نائية. الانتظـار وتعلُّم العيش في السَّواد. لقد أحسستُ بأنَّه كان يتوجَّبُ عليَّ المرور من هناك لاستحقاق ذلك الحب. هكذا كُنْتُ أتدبَّرُ حياتي الجديدة وألوذ بالصَّبْر.

أخذت زيـاراتُ القنصل تتباعَـدُ أكثر فـأكثر. كـان يفضِّل أن يكتب لي وكـان يُرَدِّدُ في كلِّ رسالةٍ تقريبا تألُّمَهُ الكبير لرؤيتي في تلك الحالـة من الانزواء والخضوع. لقـد قمتُ برفع هذا الالتباس في رسالةٍ قضيتُ وَقْتـاً طويلاً في تحريرهـا وأطول منـه في العَزْمِ على توجيههـا

له. لم أستطع أن أحشر في رأسي فكرة كون هذه الرسالة لن تُقْرَأ مباشرةً من طرفه، بل مِنْ قِبَل شخص ثالث. كنتُ آمل أن أقرأها عليه بنفسي في ردهةِ السّجن، لكنّ بعض الآذان كانت مُصَوَّبةً نحونا. وكان بودّي أن أعرف الكتابة بطريقة بْريل. وقد قدَّمتُ طلباً في الموضوع لإدارة السِّجن. فلم أتلقَّ أيَّ رَدٍّ. لابُدَّ أنهم سَخِرُوا منّي. بإمكاني اليوم أن أستعمل تلك الآلات الصغيرة للتّسجيل، لكن في ذلك العهد لم تكن أشرطة الكاسيت موجودةً بَعْدُ. فكان عليَّ أن أكْتُبَ مرّاتٍ عديدة رسالة حُبّي الأُولى :

أيها الصديق

أُكَلِّف تواضعَ الكلمات بأن يقول لك ظِلُّ الذِّكرى المترنّح، وهو ما بقي لي من قصيدتنا. ها قد انصرمت بضعة أشهر، ولربّما قرنٌ، وأنا أسير نحوك، مادَّةً ذراعيَّ مثل ذلك التمثال الذي يتقدّم في الأسطورة نحو البحر. لستُ خلفك، بل سلكتُ الطريق المقابل لألقاك، ويتلاقى وَجْهانا مضاءَيْن بنفس النُّور. أتقدّم وتحت قدميّ أحسّ بقطعةٍ منّي تتجذّرُ في الأرض. إنّ الطَّبقة الكثيفة من العتمات التي أُنظِّمها حولي هي بمثابة مَغْزَلٍ لي. إنها تغطِّيني وتحميني، تارةً لبدةً، وتارةً خِماراً مرفوعاً في وجه الضَّوء. إنّنا، أنتَ وأنا، من نفس الحلم، مثلما يكون آخرون من نفس البلد، ولن أقول أبداً من نفس العائلة. ينحني صوتُكَ عليَّ مثل صدى نشيدٍ صباحي، ويُرافقني في المسير. صوت عارٍ من غير كلماتٍ، من غير جُمَلٍ، مجرَّد دِفْءِ هَمْسٍ. وحيثما نكون، تتعاقب الفصول دون ملامستنا؛ تمضي وتعود هناك، خلف الجبال. لا أقوم من أجل صداقتنا ـ أنت تقول حبّنا ـ بأية صلاة. فهي خارج الكلمات. إنها نبتةٌ عريضة الأوراق مغروسةٌ في ضميري وقلبي. تدرأ عنّي التّفسخ والعجز عن الانتظار. ذلك أنّه يحدث لي أن يشملني الأسى؛ وهو أسىً بليدٌ وثقيلٌ يُسَرْبِلُني كمَشْلَحٍ من النُّجوم الآفلة. عندئذٍ لا أفعل شيئاً. أترك هذه اللحظات التي تفصلني عنكَ تمر. إنَّك تبتعد ونظرتك تتحوّل. أعرف هذا ولا أستطيع له دفعاً. أقتات كثيراً على هذا الانفعال الذي أحسّه لمجرَّد التفكير فيك. والزّمن الذي أسير فيه كَصَحْراء، ورملها تارة بارد وتارةً مُحْرِق. ألبس جوارب صوفية سميكة وأنتعل صندل الرُّحّل. وأنا أتعهّد قدميّ لأن الطريق طويل. أَخْبُرُ الزّمنَ كنهر عميقٍ ومتقلّب، وأنا أتبعه. إنّه الحاسّة التي تقود نحو مكان لقائنا المُقبل.

أيها الصَّديق، أرجو أن تجدك هذه الرسالة في صحة جيدة. فهنا، كما تعلم لا ينقصني سوى النَّظر في وجهك. وبين انتظاري وعودتك سَعَة بَحْرٍ أزرق. أقبّل يديك.

بعثت بهذه الرسالة وأنا أقول في نفسي بأنه سيعرف كيف يجد قارئاً كتوماً ووفياً. كان جسدي يحسّ بالبرد. فأكلتُ كسرة خبز وبضع زيتوناتٍ وتقوقعتُ في إحدى الزّوايا، مُتْعَبَةً كما لو كنتُ قد فقدتُ الشّعور بنفسي نهائياً. وقد كان نومي عميقاً فانقضى اللَّيْل دون أن ألتقي بشخوص القصص التي كنتُ أقرأها.

18

رَمَــادٌ ودَمٌ

بينما كنتُ أعتقدُ بأنّني تخلّصتُ من مـاضيّ إلى حـدّ أنّني لم أعـد أتـذكّر وجوه أنـاسـه، حلّتْ فجـأةً خَمْسٌ من أخواتي ـ كـانت إحـدى الاثنتين الغـائبتين مريضَـةً في حـالـة خطيرة ولربّما ميتة، والثانية تعيش بالخارج ـ في موكبٍ تغلّبتْ فيه البشـاعـةُ على الطـابع المُضحـك. (إنّني عاجزة اليوم عن إخْباركم فيما إذا تعلّق الأمر برؤيا، أم بكـابوس، بهلوسـةٍ أم بواقع؛ فقـد احتفظتُ من ذلك بذكرى دقيقة وحيّة في تفاصيلها، لكنني غير قـادرةٍ على تحـديـد المكـان والزّمان).

كُنّ جميعاً لابسـات بنفس الطريقـة، قميصـاً أبيض، ربطـة عنق وجلاّبـة سـوداء، غطـاء الجلاّبة فوق الرأس، شـارباً مرسومـاً بـالقلم الأسود، ونظـارات شمسيـة. تقَـدّمْنَ إليّ واحـدة تلو الأخرى. كانت كلُّ واحـدةٍ منهُنّ تحمل كيسـاً من البلاستيـك. كلّ شيء بـدا متجـانسـاً ومُعَـدّاً بعنـايـة. فظهرتْ كُبراهُنّ التي أمعنت النظر إليّ بعينيهـا الجـاحظتين، ووضعتِ الكيس فـوق الطاولة ثمّ أمرتْني بفتحه : كان يوجد بداخله فـأرٌ ميّت. صرختُ، لكنّ صوتي لم يُسْمَعْ. كانت تُمسك بيدها الأخرى موسى للحلاقة، مفتوحاً، جاهزاً لجرح وجهٍ أو عنق. كنتُ ملتصقة بالجدار البارد. وكنتُ أتحمّلُ دون أن يكون بمقدوري الإفلات من تلك التعذيبات.

وضعت التي تَلَتْها الكيس أمامي، وبسكّين قصّابٍ في يـدهـا اليُمْنَى أومـأت لي بفتحـه. كانت توجد به علبة صغيرة تحتوي عقرباً صهباء، حيّة، على أُهبة اللّدغ.

أَرَتْني الأُخرى مقصّاً ومدّتْ لي الكيس. كان فارغـاً. ومـا إنْ فتحتُـه حتّى ألْصَقَتْ رأسي بالجـدار وأخـذتْ تقصّ شعري. كـانت ركبتُهـا فوق بطني. وكنتُ أتـألّم. ضحكت الأخريـات

وقُلْن : «هذا سيعلّمك، أيتها الكذّابة، اللّصة؛ أنتِ أخذتِ منا كلّ شيء... أيتها الدّنيئة، التي كانت تذبحنا...».

انقضّت الرّابعَةُ ـ وهي قميئة، وربّما قزمة ـ عليّ وعضّتني في العنق لحدّ أنْ فار الدّم. كنتُ أتخبّط. فأمسكت الأخريات بتلابيبي. بينما جمعت القزمةُ الدّم في قارورةٍ وضعتها بعد ذلك في الكيس البلاستيكي، قائلَةً : «بهذا وبالشَّعر، سيتمّ الأمر».

أما الأخيرة ـ وهي الصّغرى فيما يبدو ـ فقد وضعت كيسها بين ساقيّ واقتربتْ منّي بسيماء التّأسّف، وألقت بنفسها بين ذراعيّ ثمّ همستْ في أُذُني : «أنا أُحبّك كثيراً؛ وما كان بودّي أن يُسَاءَ إليك، يداي،على كلّ حال، فارغتان. فأنا لستُ شريرة». ووجّهتْ لي ضربةً من رأسها على الجبين ومَضَتْ ضاحكةً. وقد كاد أن يُغْمَى عليّ لِقُوّة الضربة، عندما أحسستُ بشيء يمسّ ساقيّ. لقد كانت الأخيرة أسوأهن. إذ في الكيس الذي كانت قد تركتْهُ بلا مبالاةٍ قرب قدميّ، كانت توجد إحدى الحيّات. فصعدتُ فوق الطّاولة وأنا أصرخ. وفي الوقت الذي كنتُ أتبيّنُ فيه وضعي، كنّ قد اختفين جميعاً. على الأرض، كانت بضع خصلاتٍ من الشّعر، وقطرات من الدّم، وكومات صغيرة من الرّماد.

كنتُ أبكي، مُهْتزّةً بكلّ جسدي. كانت التعاسة قد انحنتْ عليّ مثل جَناح أحد الكواسر عند لمسه لطريدته. لقد عشتُ هذه القِصّة. متى، وأين، لا أعرف. هل كان ذلك خلال مُقامي بالسّجن، أم في فترةِ احتضار أبي ؟ عشتُها وعُدْتُ أعيشها بنوعٍ من العناد والإرهاق طَبَعا الصُّوَر المشوّشة، المجلّلة كلها بالسواد. كان الأمر يتعلّق بحَدادٍ ما، بأرملةٍ مُغْتَصَبةٍ وبانتقام.

ربّما كان كابوساً سبق أو تَلا الغزوة التّأديبية التي كنتُ ضحيتها.

ذات يومٍ، بينما كنتُ غارقةً في العتمةِ بَحْثاً عن ظلّ القنصل، أتَتْ حارسَةٌ، قوية وذميمة، وأخرجتني من زنزانتي. نزعت العُصابة عن عينيّ وأرغمتني على السير وراءها.

ـ ثمّة زيارةٌ لكِ، وليس تلك التي تنتظرين.

عوض أن تمضي بي إلى ردهة السّجن، أنزلتْني إلى قَبْوٍ، من المُرَجّح أنّه مكانٌ يُسْتَعْمَلُ للاستنطاقات والتّعذيب؛ أدخلتني إلى حجرةٍ رماديةٍ ورطبة لم تكن بها غير طاولة ومقعد ولمبة.

مكثتُ بضع دقائق بمفردي في تلك الحجرة الخالية حتّى من فُتْحةٍ صغيرةٍ للتّهوية. على الجدار، كانت هناك عِدّةُ طبقاتٍ من صباغةٍ رماديةٍ داكنةٍ تُخْفِي بُقَعاً من الدّم. انفتح الباب،

وكما في المسرح، رأيتُ خَمْسَ نساءٍ يدخُلْنَ واحدةً تلو الأخرى، لابساتٍ بنفس الطَّريقة : جلاَّبَة رمادية، وشاحاً أبيض يخفي الشَّعر ابتداءً من الحاجبين، اليدين في قُفّازين، والوجه شاحباً لا أثر فيه لأي تبرُّج. كُنَّ جميعاً دميمات، وينبعث منهنّ الضّيق. لقد فهمتُ مَنْ كانت أمامي : طائفة من الأخوات المسلمات، المتعصّبات الشّرسات. وقد شرعن يَطُفْنَ حولي. حملقْتُ فيهن فتعرَّفْتُ على أخواتي. وكانت الحارسةُ منتصبةً هناك. لقد تَمَّ شراء تواطئها وصمتها. كنَّ قد أتين لتنفيذ مُخَطَّطٍ واضح جداً، يتلَخّصُ في إيذائي، ورُبَّما تشويهي أو تهديدي وتخويفي بكل بساطةٍ. وما لبث خطابُ الكبرى أن أطلعني على نوايا تلك المجموعة من المخبولات :

ـ لقد أتينا، خمس أصابع من يدٍ واحدة، لنضع حدّاً لوضْعِيَةٍ من التّطاول والسّرقة. لم تكوني أبداً أخانا ولن تصيري أبداً أُختنا. لقد طردناكِ من العائلة بحضور فُقهاء وشهودٍ حَسَنِي النّية وفُضَلاء. اسمعيني الآن : لقد أوهمتِنا بأنّكِ تمثالٌ، نُصُبٌ يشعُّ نوراً، ويردُّ الشَّرَفَ والفخر للدّار، بينما لم تكوني غير ثقب مغطّى بجسدٍ نحيف، ثقب مماثل لثقبي وثقوب أخواتك السّتّ السّابقات. لكنّكِ سددتِ ثقبكِ بالشّمع وخدعتِنا، أهَنْتِنا؛ وكنتِ تمرّين متعاليةً ومتعجرفة. آه ! لو كان بإمكاننا، لكنّا أذْلَلْناكِ، أنتِ الصُّغرى والأخيرة... لكُنّا بكلّ بساطةٍ ذبحناك. لكن الله يُدبِّر الأمور جيّداً. عندما يَضَلُّ أحدهم عن سبيله، يُعيده إليه راكعاً، فوق صفيحةٍ من الحديد الساخن بالنّار. حالياً، ينبغي لكلّ شيء أن يعود إلى نصابه. لن تخرجي سالمةً. ستدفعين الثّمَن. بدون شفقة. وبدون تأجيل. لقد فَقَدَ أبونا رُشْدَه؛ وسقطتْ أُمّنا البئيسة في بئر الصّمت؛ فاستفدتِ أنتِ من المُصيبة وجمعتِ أغراضكِ ومضيتِ بكلّ شيء. تركْتِنا على التّبْن، في البؤس المُدْقِع، في تلك الدّار الخَرِبَة الّتي كان يتعفّنُ فيها كلّ شيء، ولم يَعُدْ بها أيُّ مكانٍ للحياة. لقد نهبتِ الدّار وأخذتِ الإرث. وإذا كنتِ اليوم في السّجْن، فلأنّكِ استحقَقْتِ ذلك جيّداً. فقد خرّبتِ العائلة. وعليه، ينبغي أن تدفعي الثَّمَن. تذكّري، لستِ سوى ثقب محاطٍ بساقَيْن نحيفتَيْن. وهذا الثقب، سنسدُّهُ لكِ نهائياً. سنُجري لكِ ختاناً صغيراً، لن تتظاهَرَ بذلك، سيكون حقيقياً، لن تكون هناك أصبع مقطوعة، كلاّ، سنقطع لك الشيء الصغير النّاتئ، وبإبرةٍ وخيطٍ سنكمّمُ هذا الثقب. سنخلّصكِ من هذا العضو الذي أخفيته. وستصير الحياةُ أكثر بساطةً. لا شهوة. ولا مُتْعة. ستصيرين شيئاً، خُضْرَةً يسيلُ لعابها حتّى الموت. يمكنكِ الشّروع في صلاتِكِ. يمكنكِ الصراخ. فلن يسمعكِ أحَد. منذ خيانتِكِ، اكتشفنا

فضائل ديننا الحنيف. وصار العدل هوانا الأعظم. والحقيقة مَثّلنا وضالّتنا. والإسْلام دليلنا. نُعيدُ للحياة ما يَرْجعُ إليها. ثمّ نُفَضّلُ التّصَرُّفَ في نطاق المحبّة والكِتْمان العائِلي. والآن، باسم الله الرَّحْمٰن الرّحيم، المُنْصِف القَدِير، نَفْتَحُ الحقيبة الصَّغيرة...

وبينما كانت تتكلّم، قامتْ اثنتان من رفيقاتها بربط يديَّ إلى الطّاولة الباردة. ثمّ مَزّقْنَ سروالي ورفعن ساقيَّ إلى أعلى. وقد دَلّتْهُنّ الحارسة، المتعوّدة على الأمكنة، على مِحْجَنَيْن في السَّقْف. وزوّدتهن بالحبال. فَتَمَّ جَذْبُ ساقيَّ المنفرجتين بحبلَيْن، كلّ واحدة من جهة. وحَشَت الكبرى فمي بخرقةٍ مُبلّلة. ثُمّ وضعت يدها المرتدية للقفاز أسْفل بطني، وضغطت بأصابعها على شفرَيْ مهبلي حتّى أخْرَجَتْ جيّداً ما كانت تدعوه بـ «الشيء الصغير»، ورشّتْهُ بمحلولٍ، وأخرجتْ من علبةٍ معدنية شفرةَ موسى نَقَعَتْها في الكحول وقطعت بها بظري. أُغْمِيَ عليّ وأنا أصرخ بدخيلتي.

أيقظتني آلام مُبرّحة في منتصف الليل. كنتُ في زنزانتي : وكان سروالي مليئاً بالدّم. كان فرجي مَخيطاً. فأخذتُ أقرع الباب لطلب النّجدة. لم يأتِ أحد. وقد انتظرتُ الصُّبح، وتوسّلْتُ إلى إحدى الحارسات بأن تقودني إلى غرفة التّمريض. نَفَحْتُها بالمال. فأعطتني الممرضة ـ التي من المُرَجّح أنها كانت متواطئةً مع الحارسة الجلاّدة ـ مُرهماً وجعلتني أُوَقّع على ورقةٍ أعترف فيها بأنّني شوّهتُ نفسي. كان المرهم مقابل التوقيع. عندئذٍ علمتُ بأنه تمّتْ رشوة الجميع من طرف أخواتي. وقد خفّف المرهم من حِدّة الألم.

خلال أكثر من شهر كنتُ ضائعةً، تائهةً، بدون مرتكزات، مجنونةً، هاذيةً باللّيل، محمومةً، على شفير كلّ المهاوي. كان القنصل قد أتى مَرّتَيْن ليراني، لكنّني لم أكن أملك الوجه أو الشّجاعة للكلام معه. لم أكن أملك بالأخَصّ القوّة لحكي ما حدث لي. ومع ذلك استحوذت عليّ فكرة الانتقام. فأخذتُ أُعِدّ في ذهني عِدّةَ سيناريوهات، وبعد ذلك أعادني الخجلُ من نفسي، والتقزّزُ من تلك العائلة، إلى حالتي البئيسة، فقدتُ الرُّشد وأصبحتُ مُدَمّرة.

لقد أمكنني، بعد زيارته الثانية، أن أخُطّ له كلمةً وأن أوجّهها له بواسطةِ سجينةٍ كانت تكنّ لي بعض الودّ. في تلك الكلمة، دوّنْتُ هذه الجملة بمفردها :

«ضاعت آثارك. أنا في السّواد ولم أعد أراك. مريضة. مريضة والجسد جريح. أ: نُوري الوَحيد. شكراً».

19

المَـنْـسِيُّـون

واصلتُ تسكّعاتي اللّيلية جريحةً، منكوبةً، بُغيةَ الإفلات من الألم أكثر من قصد إجراء لقاءات جديدة. شققتُ لنفسي سبيلاً بين أجساد شديدة النُّحول مُعلَّقة في حظيرة. كانت بجلودها على العظام، تتدلّى، عارية، وشَفّافة. كان ثمّة حَشْدٌ من الأجساد المُفْرَغَة من كلّ ماهية ينتظر بتلك الحظيرة. رأيتُ باباً في الطرف الآخر. فتقدّمت. بل كانت هناك أيضاً لوحة تدلّ على باب الخروج بلغاتٍ عديدة، مرفقة بسهامٍ خضراء. لكنني لم أبلغ المَخْرج أبداً. كان محكوماً عليّ بأن أتسكّع في ذلك المرقد الذي كان يُخَيّمُ عليه صمتٌ باردٌ ورائحةُ الخوف. لم أكن أعلم بأن الخوف يمكن أن تكون له رائحة. كان هواء خفيف يهبّ من طرفٍ إلى آخر وكان يُحرّكُ الأجساد بصعوبة. كانت العظام تَصْطَكُّ أحياناً، فكان يصدر عن ذلك ضجيجُ ارتطامٍ يحوّله الصَّدَى. وقد سمعتُ صوتاً ينبعث خلفي مباشرة :

ـ اقتربي، ليس لديّ من الوقت سوى ما يكفي للكشفِ لكِ عن سِرّ الحياة وإخْبارك بوجه الموت... لا تخافي. لقد اعتقدوا بأنني مِتّ. أنا جريحٌ، لكنني أرى منذ السّاعة مشهد ما بعد الحياة. هل أنتِ جريحة ؟ على كل حال، لم يعد هناك ما أخشاه : لابُدّ أن تعلمي، لابُدّ للعالم أن يعلم... انتظري، لا تنصرفي...

التفتُّ فرأيتُ رَجُلاً دَامِيَ الرُّكْبَتين، مُخْضَرَّ الوجه. لم يكن شبحاً. كان محتضراً؛ وكان يبذل قصارى جهده لكي يبوح لي بِسِرٍّ ما. فاقتربتُ :

ـ كلّ الذين ترينهم هنا كانوا أُناساً فقراء، متسوّلين، متسكّعين، مَرْضَى. هنا، أنتِ في القاعة الكبيرة لمعرض الحيوانات. ذات يومٍ، أُعْطِيَ الأمر بتنظيف المدينة، لأن زائراً مُهِمّاً، أجنبياً، كان سيخطو بضع خطواتٍ في الشوارع. كنّا نحن وَجْهَ البلاد القَذِرَ، ذلك الوجه غير

المرغوب فيه. فكان لابدّ من محو هذه الصورة، ونفي هؤلاء السّكان، أي إخفائهم، مؤقتاً على الأقل، فقط خلال الأيام القلائل لزيارة الأجنبي. وتم تنفيذ الأمر. فتمّ القيامُ بحملةٍ تلو أخرى. وكدّسونا هنا ونسوْنَا. كُلّياً. لقد نُسينَا. فتقاتَلْنا فيما بيننا. وآخر باقٍ على قيد الحياة ملزم بأن يختفي لأنّ شهادته رهيبة. ارْوِي هذه الأقوال. واحْكِي ما رأيتهِ هنا للجميع. إنّه ليس كابوساً. وما نحن بأشباح. نحن رجال صرنا حثالات ومنسيين إلى الأبد. لا أحد أتى ليطالب بنا. وأنت أوّل كائنٍ بَشَري يدخل هذه الحظيرة...

من المرجّح أنني دخلتُ ذلك المكان تائهةً. وقد ساقتني إليه آلامي الحادّة. كنت يَقِظة، وكانت تلك عبارة عن رؤيا. كان كل ما فيها حقيقياً. فقد وقعت هذه الواقعةُ في الشتاء. ولايزال أهل المدينة يَتَحدّثون عنها. لقد تم اكتشاف كلّ تلك الأجساد يوم فُتِحَ المعرض لإعداد عرضٍ جديد. كان الخوف أشدّ وطأةً من الألم. الخوف والتقزّز. جَسَسْتُ جسدي. كانت به رضوضٌ في اللحم والعظام. وقد حبستُ طويلاً رغبةً في التبوّل. فقد كنتُ أعرف بأنّني سأتألّم كثيراً. لكنّ مثانتي كانت منتفخة. وعندما تبوّلت حبستُ تنفّسي. كنتُ أتصبّبُ عرقاً. كان صوت الرجل المحتضر قد تغلغل بداخلي إلى حدّ أنّه امتزج بصوتي وصار صوتاً خاصاً لي. فلم أعد أسمع المُحتَضَر بل صرتُ أتكلّم داخلياً، مردّدةً بلا توقّف ما أَسَرّهُ لي. وقد قام هذا التّملُّك، على نحوٍ غريبٍ، بالتخفيف من حدّة آلامي.

هكذا قضيتُ ليلتين بين الحمّى والألم والخوف.

لقد كان تشويهي تعبيراً عن انتقام. لكن من أين أتت لأخواتي هذه الفكرة الوحشية ؟ علمتُ لاحقاً بأنّ التّنكيل الذي أُلحِقَ بي عملية شائعة في إفريقيا السّوداء، وفي بعض مناطق مصر والسُّودان. وهي تؤدّي إلى إلغاء شهوة ومتعة الحياة لدى الشابات النّشِطات. علمتُ أيضاً بأن الإسلام، أو أيّ دين آخر، لم يسمح أبداً بهذا النوع من التّشويه.

صار صوت المُحْتَضَر الذي كان يسكنني جلياً وبَيِّناً :

ـ إن الحارسة أَمَةٌ تَمّ جَلْبُها منذ أَمَدٍ طويلٍ من السودان... إنها ساحرة، وخبيرةٌ في طُرُق التعذيب...

أكيدٌ أنّها هي التي أوْحَتْ لأخواتي بأن يُحِلْنَني إلى عاجزةٍ ويحرمنني من الحياة نهائياً.

كان استمرارُ الحمّى راجعاً إلى الالتهاب. وكان الألَمُ يسري في دمي، ويشوّش كلَّ شيء في ذهني. غدت رؤاي مُخيفة أكثر فأكثر. ولحق التّغيُّر بصوتي. لقد وقر في نفسي بأنّ الموت تملّكني. ولكي أتحرّر منه كان عليّ أن أحكي ما رأيتُه في الحظيرة. كنتُ أبحثُ عن شخصٍ مّا لأُحادثه. ولم تكن هناك حارسة أو ممرضة. لقد كان من حُسْنِ حظّي، وأنا أُجَرْجِرُ نفسي للذّهاب إلى غرفة التّمريض، أنِ سقطتُ في الرّواق في اللحظة بالضبط التي كان يمرّ فيها أحد الأطباء. كنتُ يَقِظةً قليلاً. وكان هو حانِقاً. كان يصرخ وينعت الجميع بالوحشية والهمجية. وقد أطلعه أحد العاملين بالإدارة على الشهادة التي أعترف فيها بأنّني شوّهتُ نفسي. فاستشاط غضبه. لقد أُدْخِلْتُ المستشفى في الحال. وعالج الالتهاب وانْتَظَرَ بضعة أيام قَبْلَ أن يُزيل، وأنا تحت مفعول البنج، تلك الخيوط التي كانت تخيط شفرَيْ مهبلي. وعندما حكيتُ له كيف تمّت الأمور، صَعُبَ عليه أن يصدّقني. أراد استقدام الشرطة، ثمّ بعد برهةٍ رفع ذراعيه تعبيراً عن عجزه :

ـ الجميع مُرتَشى هنا. لن يُصَدّق أحدٌ قصتك. ولن تضع الشرطةُ أقوال الحارسات موضع شك. ثمّ هناك هذه الورقة المُوَقّعة من طرفكِ. لكن لماذا ؟ ماذا فعلتِ لهؤلاء النّساء ؟

طَمْأنَني على حالتي العامّة وَوَعدني بأن يبذل قُصارى جهده لاستبقائي بالمستشفى أطول مُدّةٍ ممكنة ثم قال لي :

ـ هذا ما يتمّ رِبْحُه دائِماً على حساب السّجن !

كنتُ لا أزال أحِسُّ بالألم رغم الأدوية. كنتُ مقتنعةً بأنّني إن أنا لم أكشف عما رأيته في الحظيرة ـ رأيتُه أو تخيّلتُه ـ فسيظلُّ الألَمُ لي مُلازِماً. فقد كانت تلك الصُّوَر وكذا أقوال المُحْتَضَر تُنيخ بثقلها على ذهني وجسدي. وكانت كلُّ كلمةٍ بمثابةِ بلّورٍ حادٍّ يخرق المواضع الحسّاسة من جسدي.

طلبتُ من الطّبيب إنْ كان بإمكانه، بعد العمل، أن يمنحني بعض الوقت. تردَّدَ برهةً ثمّ قَبِل. فبدأتُ بتحذيره من الطابع الخارق لرؤاي، ومن أنّه حتّى في حالة عدم وجود هذه الأخيرة، فإنّ آثارها تطالني. قلتُ له :

ـ لستُ مجنونة، لكنني أعيش في عالمٍ ينقصه المنطق. صدّقني؛ فكلّ ما أطلبه منك هو أن تسمعني.

حكيتُ له تسكّعي الليلي بالتفصيل. فلم يَبْدُ عليه الاندهاش. كان يهزّ رأسه كما لو أنّ تلك الواقعة لم تكن خارقةً في شيء. وعندما انتهيتُ نهضَ وقال لي :

ـ رُبّما لم تعيشي هذه الواقعة، لكنّها حقيقية. فقد حبست الشرطةُ بعض المُتَسوّلين ثُمّ نَسِيَتْهُم. ولم تذكر الصحافةُ شيئاً عن الأمر. لكن للإشاعة هنا منزلة مصدرٍ للخبر موثوقٍ به. كان الجميع على عِلْمٍ بذلك، لكن لم يذهب أحَدٌ ليتَحقّق. وعليه فقد صارت واقعةً لا تُصَدَّق. ما يُدْهِشُنِي هو العلاقة بين آلامكِ وهذه الواقعة...

ـ لِنَقُلْ بأنَّ ألماً كبيراً يخوّلُ لي وضوحاً على عتبة العرافة !

بعد تلك الجلسة، أحسستُ بِتَحَسُّنٍ كبير. خلال تلك الأيام، لم أكن أفكّر في القنصل. لم أكن قد نسيتُه، لكنّني كنتُ حريصةً على عدم إشراكه في وقائع الدّم والموت تلك. لم يكن على عِلْمٍ بدخولي المستشفى. وعندما كان يأتي إلى السّجن، كانوا يقولون له بأنّني لا أرغب في رؤيته. كان يرتابُ في الأمر. كان يعتقد بأنّني مريضة، مُحْبَطَة، وأنّني لا أجرؤ على مقابلته بوجهٍ كامد لا بهجة فيه. كان شديد التمسك بهذا التأويل للأمور. فبالنسبة إليه، هناك ما يمكن إظهاره ورؤيته وهناك ما ليس ممكناً كذلك. وعندما جاء إلى المستشفى، كان أوّل ما قاله لي :

ـ هل أنتِ الآن مستعدّةٌ لتُظْهِري لي وَجْهَكِ ؟

كان أبعد ما يكونَ عن الارتياب في المحنة الدّامية الّتي تعرّضتُ لها.

كان أوّل ما قام به هو رؤيته لوجهي. جلس على طرف السّرير، وبرقة يديه لامَسَ الجبينَ، والوجنَتَيْن، والأنف، والفم، والذّقْن.

ـ بكيتِ كثيراً، ثُمَّ إنّكِ هَزَلْتِ ! لا ينبغي أن تهملي نفسك ! فهذا لا يَجْمُلُ بك.

كان الطّبيبُ هو الذي اختلى به وكشف له عن عِلّة استشفائي. لم يقل لي شيئاً بهذا الصّدَد. أمسك بيدي وشَدَّ عليها بقوّة. وعندما انصرف، مرّرتُ أصابعي على وجنتيّ فأحسستُ بوجود زِئْبَر. كنتُ قد أهملتُ نفسي. وكان وجهي حزيناً. كانت قد انصرمتْ عدّةُ أيامٍ لمْ أعْتَنِ فيها بنظافتي الخاصّة. وفي اللّيْل، اختليتُ بنفسي في غرفة الحمّام واعتنيتُ بمظهري.

كثيراً ما كان القنصل يأتي ليراني. كان يحمل إليّ الزّهور، والفواكـه، والعطر. لم يكن يأتي أبدا فارغ اليدين. ولم يَحْدُثْ أبداً أن أثَارَ معي ما حدث. لقد تَمَّنْتُ ذلك الكتمـان؛ وفي نفس الوقت أَقْلَقَني. كيف يمكن تأويل ذلك الصَّمْت ؟ هل كان تعبيراً عن تواطئه وتضـامنـه، أم كان دليلَ ضيقٍ يحفر بتمهُّلٍ أخـدوداً بيننـا ؟ كـان يصعبُ عليّ أن أعرض لهـذا الموضوع. فعندما كان يأتي، كـان يستفسر عن نومي ثم ينتقل إلى شيء آخر. كـان يتنـاقش أحيـانـاً مع الطّبيب، لكن ليس بحضـوري. وقـد علمتُ لاحقـاً بـأنّ من بين المسـائـل التي كـانت تقضّ مضجعه مسألة إمكانية إنجابي الأطفال أو تعذُّرها. كانت تُعَذّبه ولم يكن يُبينُ عنها. وكنتُ أنا أيضاً أفكّر فيها. في السابق، كنتُ أستبعـد كلّ فكرةٍ تتعلّق بـالحَمْل، والإنجـاب، والتربيـة. لم يكن لـديّ الوقت للتفكير لا في إنجـاب طِفْلٍ بل حتّى في أن أكون أُمّاً في يوم من الأيـام. وأعترف بأنّني لم أفكّر في هذا مطلقاً في المرّات القلائل التي تضاجَعْنا فيها أنـا والقنصل. إنّ هذا يدلُّ على مـدى الجِـدّة التي كـان يكتسيهـا هـذا الأمر بـالنّسبـة إليَّ وعلى استمراري في اعتبار جسدي كيساً من الرّمل. وبكلّ شكوكي، كنتُ أرى نفسي أيضـاً فزّاعـةً محشوة بـالقش، وبدل أن تفزع الغربـان تجـذبهـا، فكـان بعضهـا يكتفي بـالتّعْشيش فوق كتفيّ، بينمـا يـذهب بعضها الآخر إلى حدّ إحداث ثقبَيْن مكان العينين. كنت أفقد معنى وجودي في العـالم. كنتُ أتفتّتُ. وكنتُ أحسّ بأنّني أتهدّمُ وأنْبَني من جـديـدٍ على نحوٍ لا نهـائي. كـان كلُّ شيءٍ يعود بعنفِ زوبعةٍ في الرأس. كلُّ شيء يختلـط. كنتُ أبحثُ عن وسيلـةٍ أتخفّفُ بهـا من الألم، ليس فقط الألم الذي كان يسري كالسُّم في دمي، بل أيضاً الألم الـذي بـدأتُ أشعر بـه إثْرَ زيـارات القنصل. كان يأتي ويظلُّ صامتاً. فكان حضوره بمثابة عبءٍ ثقيل. كانت سِمَةُ الإرهاق بـاديـةً عليه. والتّعاسة تسكنه. كنتُ أزدادُ تشوُّشـاً واختلالاً، غـارقـةً في الالتبـاس والرؤى الكـابوسيـة. ومن جديدٍ وجدتُني وحيدةً، أُجابِهُ بـدون بنْجٍ هـذه الضربـات الأخيرة لقَـدَرٍ كـان مـا فيـه من شقاء، وأسى، وعنفٍ يَرُدُّ كلُّ رأفة. فقرّرتُ أن أعود إلى السّجن. ذلك أنّ تلك الحرّية الجزئِيـة، المُحاطة ببياضٍ شـديـدِ الإيلام لعينيّ، لم تعمل سوى على مُفـاقمـة اضطرابي. وكـان عليّ أن أتوسّل إلى الطبيب لكي يُرجعني إلى زنزانتي.

كنتُ أستعدّ للانصراف عندمـا دخل القنصل الغرفـة. كـان يبـدو أقلّ حُزْنـاً من المعتـاد. وقد حمل إليّ ربطةً من النعناع وقال لي :

ـ لنقُمْ بإعداد الشاي، كما في السّابق.

أحسستُ بحدّةٍ لا تدع مجالاً لأيّ شك بأن شيئاً ما تحطّمَ نهائياً بيننا. لا أعرف لذلك تعليلاً. فقد أحسستُ به دون اندهاش.

لم نقم بإعداد الشّاي. أخبرتُه بأنّني عائدةٌ إلى السّجن. لم ينبس بكلمة. ومع ذلك كان قد أتى ليكلّمني. جلس على كرسيٍ، بينما كنت أنا على طرف السّرير. بعد برهةٍ من الصمت، رأيتُ وجهه يحمرُّ :

- توقّفي عن التحرك، من فضلك.

- لكنني لا أتحرك...

كلاّ، أعرف، لكنْ هناك حركةٌ جيئةٍ وذهابٍ دائبةٌ في رأسك ...فأنا أسمع أفكارك وهي تتصادم.

ثم، بلهجةٍ أكثر هدوءاً، قال لي :

- لا تَقْوَى يداي اليوم على النَّظَر إليك. إنّهما مُتْعَبتان. تُحِسّانِ بنَفْسَيْهما عديمتَي الجدوى وجانِيَتَيْن. إنّني أعرف أنّهُما سالبتان. إن ضميري يُكَبِّتُني لأنني لم أكن في مستوى حماسك وشجاعتك. فأنا محكومٌ عليّ بألاّ أعرف الحماس أبداً. منذ الطفولة وأنا في قَلْبِ المأساة، وكان الأمر الذي تلقّيتُه من السماء أوْ من الحياة يُرْغمني على المثابرة، على ألاّ أقطع خيط الحياة، وعلى تقوية كياني، لكي أجعل منه لا كائناً استثنائياً، بل عادياً. إنّني لا أتمكّنُ من التعبير لكِ بانسجامٍ عن كلّ ما أفكّر فيه وأعتقد به. لقد تقبَّلْتُ موت الجلاّسة، لكنني لم أتقبّل رحيلك وحبسك. وعليه، منذ ذلك الوقت وأنا لا أكفُّ عن البحث عن ملاذٍ، عن مكانِ راحةٍ لأفكاري وجسدي المُنْهَك. لقد حاولتُ أن أجعل شفتَيْ أمّي المزمومتَيْن تحت الأرض تنفرجان. وذلك حتّى أسمع صوتها، ولو مرّة واحدة، صوتها... أسمعه يُباركني أو يلعنني... المهم أن أسمعه. أعرف بأنّ عليّ القيام بسَفَر العتمات، بعيداً عن كلّ شيء، في الصحراء، في الجنوب الأقصى. لكنني حالياً أكتبُ، وعليّ أن أعترف لك بأنّني أقوم بذلك تحت إملائك. ما أكتبه يُفْزِعُني وَيَتَمَلَّكُني. من أين تستمدّين هذه القدرة على عبور الحياة مُرْبِكةً إياها بكبرياء، أعني بشجاعة ؟ فيما مضى، عندما كنتُ أكتبُ لنفسي، كنتُ أمارسُ ذلك باللَّيْل. حالياً يصلُني صوتُكِ المشحون في الصّباح. إن أفكاركِ تَعْبُرُ اللَّيْلَ وتصل عند الفجر. ودوري يتمثَّلُ في تنظيمها وتدوينها. قلّما أتدخّل. إنَّ قصّتك رهيبة. لا أعرف في

العمق، إن كانت قصّتك أم قصّة التقاءٍ يتجاوزنا جميعاً، قصّة أمْرٍ مّا ينبع في حُزَمٍ ضوئية من المجرة، لأنّ الأمر يتعلّق فيه بالقمر، والقَدَر، وتمزّق السّماء. إنني أقول لكِ، بأنّكِ أنتِ السّر الذي يتملّكُني. ولا يمكنني التخلّص منه إلاّ بالمُضِيّ حتّى نهاية هذه القِصّة. لكن ماذا عساي أن أجدهُ في نهاية المطاف ؟ لستِ من اللواتي يختمن قِصّةً ما. إنّكِ بالأحرى من اللّواتي يتركْنَها مفتوحةً بُغْيَةَ تحويلها إلى حكايةٍ لا نهائية. قِصّتكِ سلسلةٌ من الأبواب التي تنفتح على مجالاتٍ بيضاء ومتاهاتٍ تدور؛ فأحياناً تُفْضي بالمرء إلى أحَدِ المُرُوج، وأحياناً أُخْرَى إلى دارٍ خَرِبَةٍ، دارٍ مُغْلَقَةٍ على سُكّانها، بعد أن ماتوا جميعاً منذ أمدٍ بعيد. من المُرَجّحِ أنّ هذا المكان اللعين، الواقع تحت طائلة قانون الغياب والنّسْيان، هو مسقط رأسكِ. يا أيتها الصديقة ! منذ اقتفائي لصوتك، منذ اقتياده إياي صَوْبَ ليالٍ مُسَرْبلةٍ بالحرير ومُلَطّخَةٍ بالدّم، وأنا في قلب الغرابة. متأكّدٌ أنا من أنّني لا أتوهّم... بل أُحاذي مَلَكَتكِ في العرافة. كيف أُبَلّغَكِ بأنني مُضْطَرٌّ للعبور من باب ضيّق لكي أصل إليكِ ؟ أَسْمَعُكِ ويداي تلتمسانك. لكنّني أعرف بأنّك نائية، في قارّةٍ أخرى، أقرب إلى بَدْرِ التّمّ منكِ إلى بصري. وأنا أراك تارةً رَجُلاً، وتارةً أخرى امرأةً، مخلوقة بهية للطفولة، منفلتة من الصّداقة، ومن الحب. إنّكِ في مَنْجَى، يا كائناً لِلْمُعتم، وظِلاً في ليل آلامي. أصرخ أحياناً دون أن أنتبه : «من أنتِ» ؟ وأحياناً يغمرني إحْساسٌ بأنني، منذ المأساة، حبيس أذىً من السّحْر أَلْقَتْهُ عليّ عائلتك، ودَبّرَتْهُ أيادي شِرّيرة. أودّ أن أقول لكِ، بل أن أتوسّل إليكِ، بأن تظلّي على ما أنتِ عليه، وأن تُتابعي طريقكِ، لأنّهُ لن يُوقِفَكِ السّجن ولا دموع الآخرين. لقد انتظرتُكِ طويلاً. دخلتِ حياتي باللّطافَةِ الغريبة لحيوانٍ ضالٍّ. فَمَعَكِ غَدَا قلبي مَسْكَناً. ومنذ رحيلكِ لم أَعُدْ أعيش به. إنّ عُزْلتي عارية؛ فهي لم تَعُدْ مشمولةً برعايتك. وحده صوتك يُحرّك جسدي وأكْتُب. إذْ لا زلتُ أُدوّن حتّى مُرْتاعاً ما تحكينه لي. لقد جئتُ للوداع والمغفرة. فقد غَدَتْ قِصّتُنا مستحيلة. سأُواصِلُ عيشها في مكانٍ آخر وبطريقةٍ أُخرى... إنني راحِلٌ إلى حيث سيعود عَمَاي عاهةً كاملة، قَدَراً مشؤوماً لم أتمكّن من الإفْلات منه رغم زيارتك. اعلمي في الأخير بأنّني خَبَرْتُ جمالك بيَدَيّ وأنّ ذلك مَنَحَني انفعالاً شبيهاً بانفعال طِفْلٍ يكتشف البحر. إنّي أصون هاتَيْن اليَدَيْن، وأُغَطّيهما بثوب رقيق لأنهما تحتفظان بما يُشْبِهُ السّرّ، الذي هو بصمة جمالك. أقول لكِ هذا لأنّني أيضاً خَبَرْتُ الفرادة الخاصّة لذلك الانفعال. وعلَيْه، سَأُغْمِضُ عينيّ وأُطْبِقُ بيَدَيّ إلى الأبَد . وداعاً، أيتها الصديقة !

20

قِصَّتِـي، سِجْنِـي

تركني اعترافُ القنصل مرتبكةً، ولكن مع يقينٍ مفاده أنَّ قِصَّتي، تلك التي جَعَلَتْ منّي طِفْلاً من الرّمال والرّيح، ستلاحقني طيلة حياتي. ستكون هي كلّ حياتي، ولن تدع مكاناً لشيءٍ آخر. وكلّ ما كنتُ سأعرفه لاحقاً سيكون بطريقةٍ أو بأخرى أحد امتداداتها، أحد تجلياتها المباشرة أو المتنكّرة.

كانت قِصَّتي هي سجني؛ وكان إلقائي لنفسي حبيسة زنزانةٍ رماديةٍ لأنّني قتلتُ رَجُلاً، أمْراً ثانوياً. حيثما ذهبتُ، كنتُ أحمل سجني معي كقفصٍ فوق الظَّهر. كنتُ أسكنه ولم يتبقّ لي غير أن أتعوّد على سكناه. ربَّما كان ذلك الاعتزال سيساعدني على قطع الخيوط الّتي حاكها حولي ذلك القَدَرُ المُحَوِّلُ المسارِ، واحداً واحداً. كنتُ كيساً مسدوداً وموضوعاً في حظيرةٍ ضيّقة ومختومة. عندئذٍ كنتُ واقعةً تحت خَدَرٍ خانقٍ بعيدِ المَصْدَر، بعيد جِدّاً بحيثُ أحسستُ بِعُمُري معبوراً ومُمْتَحَناً بقرونٍ عديدة.

ترك لي القنصل، قبل أن يغادرني، ورقةً مطويةً على أربع. فتحتُها. كان بها رَسْمٌ، أو بالأحرى خطاطة إحدى الطُّرُق. كان هناك سَهْمٌ يُشير على نَحْوٍ مُعْوَجٍّ إلى الجنوب، وَسَهْمٌ آخر يشير إلى الشمال. وفي الوسط، كانت هناك نخلة، وعلى كثب منها رُسِمَتْ أمواجٌ على هيأة طيورٍ مشرعة الأجنحة. في ظهر الورقة، كتب ما يلي :

«وحدها الصداقة، هذه الهِبَة الكلّية للنّفس، نورٌ مطلقٌ، نورٌ على نورٍ يبدو فيه الجسدُ مرئياً بصعوبة. الصداقة نعمة؛ إنَّها ديانتي، ومملكتنا؛ وحدها الصّداقة سَتردّ لجسدكِ نَفَسَهُ الّتي أُهِينَتْ. فاتْبَعي قلبكِ. واتبعي الانفعال الذي يَعْبُرُ دَمَكِ. وداعاً، أيتها الصديقة».

إثْر ذلك، تخلّيتُ عن العصّابة التي كانت فوق عينيّ وعن تسكّعاتي في العتمات. لقد بدأتْ تستحوذ عليّ فكرة نورٍ وهّاجٍ قد يأتي من السماء أو من الحُبّ، وهّاج جداً بحيث يجعل جسدي شفّافاً، يغسله ويردُّ إليه سعادة الاندهاش، وسذاجة معرفة الأشياء في بداياتها. كانت هذه الفكرة تستثيرني. فوقفتُ نفسي كُلّياً على التحضير لها، إلى حدّ أنّ صورة القنصل كانت تضيع، متحولةً إلى صورة مهتزَّةٍ ومتعذّرة الإمساك. كنتُ قد فقدتُ آثاره. وكنتُ أعرف بأنّهُ يجوبُ الطُّرُقات، وربّما كان بإحدى الجُزُر أو حتّى تحت الأرض.

في السّجن ألْفَيْتُ الحياة طبيعية. لقد نسيتُ الحاجة إلى الحُرّية. ولم يكن الحبس يُعذّبُني. كنتُ أُحِسُّ بنفسي مُهَيَّأةً. كانت النساء يأتين لرؤيتي، ويطلبن منّي دائماً كتابة رسائلهن، للآخرين. كنتُ سعيدةً بتقديم خدمةٍ ما، وبأنْ أكون نافعةً. أعطوني مكتباً صغيراً، وورقاً وأقلاماً. كنتُ قد صرتُ المؤتمنةَ على الأسرار كما صرتُ المستشارة. والفائدة الوحيدة التي كنتُ أجنيها من وراء ذلك كانت تتمثَّلُ في ارتياحٍ داخلي، في انشغالٍ كان يُبْعِدُني عن سجني الخاص. في نفس الوقت، أخذت ليالّي تُشْبِهُ أكثر فأكثر انتقالاً ما؛ إذ كانت تخلو تدريجياً من مستأجريها المشبوهين، المخيفين في الغالب. لقد كان على جميع الشخوص التي راكمتُها طوال حياتي أن تُغادِر الأمكنة. كنت أطردها بمنتهى القسوة. وبمجرّد إغماضي لعينيّ، كنتُ أراها تُغادرُ على هيأة أشباحٍ وتنزل من أحد القطارات في قلب الضّباب. كانت سيئة المزاج. فكان بعضها يحتجّ، وبعضها الآخر يهدّدُ بالعودة للانتقام. لقد فاجأها ذلك الإخلالُ المباغِت بالضّيافة. وقد لاحظتُ بأنّها كانت جميعاً مُشَوَّهَةً، مستيقظة بشكلٍ سيّء، ومحتارة. كانت تجرجر أرجلها. بل كان من بينها مُقْعَدٌ يتنقَّلُ بسرعةٍ كبيرة، مُسَدِّداً في طريقه لكماتٍ للمتأخّرين. في العمق، لابُدّ أنّها كانت سعيدة لمغادرة هذا الهيكل الذي كان يتهدَّمُ فيه كلُّ شيء. لقد صارتْ ليالّي تُشْبِه أكثر فأكثر رصيف محطة تمّ تحْويلها لغرضٍ آخر. وكانت

في النّهار، كان يحتكرني عملي ككاتبةٍ عمومية. بينما كنتُ أقضي الليل في التّنظيف. وذلك لكون تلك الشخوص تركتْ، بعد رحيلها، ركاماً من الأشياء، وهي أشياء بالية كانت تَنحبِسُ في ذاكرتي ولا تَدَعُني أرتاح.

لقد قضيتُ وقتاً طويلاً في تنظيف ما بداخل رأسي. فقد دام ذلك شهوراً عديدة. ومن بين الصور التي فقدتُ كانت تُوجَدُ صورة القنصل. مع ذلك، لم أكن قد رأيتُه ينزل. كلّ ما كنتُ أعرفه هو أنه لم يَعُدْ بداخلي. وحدها ذكرى جَسَدَيْنا المتحاضِنَيْن كانتِ تعود من وقتٍ لآخر للظُّهور بحدّة. فبالإمكان نسيان وَجْهٍ ما، ولكنْ لا يمكن أن نمحو تماماً من الذّاكرة دفء انفعال، رِقّةَ حركةٍ، وصدى صوتِ حنون.

لقد جعلتني مرحلتي النشيطة أستحقُّ أن أُعَيَّنَ رسمياً، من طرف مصلحة السجون، «كاتبة عمومية وسكرتيرة». وكان عليّ أيضا أن أُحرِّرَ مراسلات المدير الذي لم يكن يعرف كتابة غير نمطٍ واحدٍ من الرّسائل. وكموظَّفةٍ في السّجن، ورغم أنني سجينة، كان عليّ أن أَرْتَديَ الزّي الرّسمي : سترة وسروالاً رماديين، قميصاً أزرق، ربطة عنق سوداء، عمرة كُحلية اللون، وحذاء أسود.

في البداية، كان ذلك الزّيُّ المضحك يضايقني. لكن لم يكن لي الخيار. فقد كان حظوةً شبيهةً بالأمْر. وكان العمل، خاصّةً بالزّي الرسمي، يُعِينني على الابتعاد عن نفسي. كانت صورة القنصل لاتَنِي تتلاشى إلى حدّ أنها صارتْ نقطةً متحرّكةً في قلب لسانٍ من اللّهب. وكانت ذكرياتي تتساقط؛ كنتُ أفقدها على نحوٍ تدريجي مثلما يفقد البعض شَعرهم. كان رأسي خالياً ولم تعد أيّة ذِكْرى عالقةً به.

عندما كنتُ أرتدي زيّي الرّسمي في الصباح، كنتُ أنظُر إلى نفسي في المرآة. وأبتسم. فمن جديدٍ كنتُ في زيّ الرجال. لكن ذلك لم يعد تنكُّراً. كان زيّاً للوظيفة. إن النساء يلبسن مثل الرجال ليظهرن بمظهر الصرامة ويفرضن سلطتهن. أمّا أنا فلم أكن أتحكّم في أحد، ومع ذلك كانت السّجينات يُحَيِّينني كما لو كنتُ رئيستهن. كان ذلك مُضْحِكاً. وكان البعض ينادونني، ربّما دون قصدٍ، بـ «سيدي». فلم أكن أُصَحّح. كنت أَدَعُ ذلك اللّبس قائماً، لكن ضميري كان مرتاحاً. فلم أكن أخدع أحداً. كنتُ أعتني بوجهي. وكنتُ أتبرّجَ أكثر من ذي قبل. صرتُ مغناجة. ففي السّجن، يستمر المرء رغم كل شيء في اللّعِبِ بالمظهر. لكن الرغبة في اللعب لم تعد لديّ.

كان وضعي قد تحسَّنَ تدريجياً. فقد منحوني بعض الامتيازات. لم أكن أُعتبر سجينةً بالمعنى الكامل، ولا كنتُ موظَّفة بالإدارة كالآخرين. كنتُ مغبوطةً من طرف البعض، ومَصْدَرَ خشيةِ البعض الآخر. كنتُ أتنقّلُ بين المعسكريْن كما لو كنتُ بين لُغَتَيْن.

عندما كانت المراسلات تَقِلّ، كنتُ أجمع السجينات الراغبات في ذلك واللائي كان لا يزال لديهن اهتمامٌ بالحياة الخارجية وأقرأ عليهن الجرائد التي انقضت على صدورها بضعة أيام. لم تكن الأحداث التي كانت تهزّ العالَم من حروب وانقلابات تؤثّر فيهن. كُنَّ يطالبن بالوقائع العامّة. «نريد الدم ! نريد الحب !»، كنّ يَصِحْن. يرغبن في الجرائم العاطفية. وقد تحولت جلسات القراءة إلى سهراتٍ كنتُ أحكي فيها بعض القصص. وبقدر ما كنتُ أتقدّم كنتَ أخْتَلِق. كانت هناك دائما نفس الخُطاطة : حبّ مستحيل يُخْتَتَمُ بالدَّم. أستمتع بخلق وتخيُّل بعض الشخوص والأوضاع. وكنتُ أُطنب أحياناً في بعض الاستطرادات إلى حين التّدخل الجماعي للمستمعات اللائي كنّ يسخرن من تعاليقي. كنّ يُعِدْنَني إلى الوقائع في شكلها الخام. وعندما كانت جَلَبةٌ مّا تتصاعد، كنتُ أوقِف الحكي. كانت موهبتي كراوية تنفذ بسرعة. فكنتُ أحكي دائماً نفس القِصّة، قصّة شخصين يتحابّان على شفير خطر السِّرِّية. ثم تحل المأساة باكتشاف الممنوع، ثم العقاب والانتقام.

كانت بعض النساء يأتين لرؤيتي على انفراد ويحكين لي حياتهن. كُنَّ يختلقن كثيراً؛ إذ يعتقدن بأنّ حياتهن كانت روايةٌ، وأن قَدَرهن قَدَر بَطَلاتٍ مجهولات. ففي السّجن، لم تعد لديهن سوى الكلمات كمَصْدَرٍ للحياة. لذا كُنَّ يَسْتَعْمِلْنها خبط عشواء. يختلقن لأنفسهن حكايةً مليئةً بالمغامرات. وكنتُ أُنصت إليهن بأناة. فقليلة كانت تجاربي في الحياة. وعبر تلك الحكايات، كنتُ أتعلّم الكثير عن عادات مجتمعي، عن دناءة الرجال، ورفعة النَّفْس وضعفها. لقد تبيّنتُ مقدار الوقاية التي تمتّعتُ بها في الطفولة والشباب، وكيف كنتُ مصونةً من الرّيح والبرد والجوع. كما لو أنّ أبي وضعني تحت الزّجاج، في منأى عن الغبار واللّمس. كنتُ أتنفّس بصعوبةٍ لأنني كنتُ أحمل قِنَاعاً فولاذيا، وكنتُ حبيسة عائلة هي بدورها حبيسة المرض والخوف والعته. كانت حياتي كرجُلٍ مُتَنكّرٍ أكثر من خطيئة، كانت نَفْياً، غلطةً. لو كنتُ فتاةً بين الفتيات، لكان قَدَري سيكون ربّما عنيفاً، ولكن ليس بئيساً، ملطّخاً بالعار والسّرقة والكذب.

بين الجدران الرّمادية لم يكن بمقدوري سوى أن أجْتَرَّ هذه اللأّزمات المُملّة. لقد فَقَدَت نظرتي انسجامها. فصارت تقع حيثما اتّفق. كانت قد غدتْ لامُبالية. وأحسستُ أحياناً باللأجدوى. وهو ما كان يجعلني بعد ذلك أستشيطُ غَضَباً. لقد أَلْفَيْتُني مرّة أخرى في المكان

اللعين الـذي دُفِنَ بـه أبي. وصرتُ شبحاً شرِّيراً. فـأخرجتـه من قَبْرِه ووطـأتُـه بقـدميّ. كنت مجنونة وعندما كنتُ أفكّر في الحرِّية، كانت حالتي تسوء، ويتَصبَّبُ عرقي.

بتعـاقب الـزَّمن والعـادات الصّغيرة، التَفَت الأشيـاء بـداخلي : اختفتْ نـوبـات غضبي، وصارت مشاعري بيضاء، بذلك البياض المُفْضِي إلى العدم والموت البطيء. كانت انفعالاتي قد تحلَّلتْ في بركة ماء راكد؛ وكان جسدي قد توقَّف عن تطوّره؛ فلم يعد يتغيَّر، كـان ينطفىء حتَّى لا يعود يتحرك ويحس؛ وما هو بجسـدِ امرأةٍ مُفْعَمٍ ومتلهّفٍ، ولا هو بجسـد رَجُلٍ رصينٍ وقوي؛ كنتُ بين الإثْنَيْن، أي في الجحيم.

21

الجَحِيم

كُنَّ قد مَشَيْن لوقتٍ طويل. في صمت. منذ شروق الشمس. كان يمكن لَمْحهن من بعيد. كنَّ يتقدَّمن زرافاتٍ. آتياتٍ من أمكنةٍ نائية؛ بعضهنَّ من الشمال، وأخريات من جهة الشَّرق. لم تكن الرّغبةَ في الوصول إلى هذا التَّل الرَّملي ودخول هذا المكان الأسطوري، منبع كلِّ ضياء، تُبينُ عن الجوع والعطش والعياء على وجوههن. كانت شفاههن مُشَقَّقةً بالحرارة والرّيح؛ وكانت بعضهن يرعفن؛ وجميعاً كنَّ يَقْبَلْنَ بهذه المَضايقات. بدون كلل أو ندم. كنَّ يمشين على الرمل إلى حدّ الاختلاط بتحركاته، حاملات ظلالهن كأعلامٍ لتحية التّلّ الأخير، لنسيان الرّيح الجاف وبرد الصُّبح، للوصول بالضبط في اللحظة التي يخْفُقُ فيها الضوء ويلتبس، في اللحظة التي يَبْعِدُ فيها الشمس ويلتحق بالسماء عند عتبة الليل. كان لابُدَّ من الوصول في تلك اللحظة بالضَّبط التي كانت مدَّتُها غير مُحدَّدة. ففي عزلتي، كنتُ قد قرَّرتُ بأن يبدأ الخلود من هنا. كان على كلّ مسيرةٍ أن تُختتم وتغوص في ذلك الضوء. فللصَّحراء قوانينها ونعمة أسرارها.

إنَّ المسافرات لم يكُنَّ يطرحن أسْئِلَةً. كنَّ يعلمن بأنَّ عليهن الوصول في اللَّحْظَةِ التي كان الضوء يُشرِف فيها على العبور من النَّهار إلى اللَّيْل. كان ذلك أحد شروط قَبول مسعاهُنَّ لدى الوَلِيَّة.

كنتُ وَلِيةً وعديمة الرأفة. كنتُ أَسْوَدَ، تارة تمثالاً، وتارة أخرى مومياء. لم أعد أملك ذاكرة، وكنتُ آتيةً من لا مكان. لابدَّ أن دمي كان أبيض. أما عيناي، فكان لونهما يتغيّر حسب الشمس.

كُنَّ في غالبيتهنَّ شابّات. ومصحوبات من طرف أُمهاتهن أو خالاتهن، لم يكُنّ يَجْرُؤْن على التحديق في الشّمس. كان على أعينهن أن تظَلَّ مخفوضَةً، محدّقةً في الرّمل الذي كانت أقدامهن، الملفوفة في جوارب سميكةٍ من الصّوف، تحفره وتدمغه في صمت.

كنّ قد سمعن عن وَلِيَّة الرّمال، ابنة الضوء، التي كانت لديها النّعمةُ والقدرة على وقف كلّ أمرٍ عُضال، والحيلولة دون وقوع الشّؤم، بل ربّما حتى إبعاد العُقْم نهائيا عن أجساد النّساء الشّابّات. كُنَّ يأتين إلى هناك بعد أن أعيتْهُنّ جميع الحِيَل. كنتُ ملاذَهُنَّ الأخير.

كان على كلّ شيءٍ أن يتم في صمتٍ. وكان للصمت في ذلك المكان لون البرد الجاف، لون شبيه بالأزرق. كان يفرض نفسه مثل ضوءٍ متسلِّلٍ من بين الأحجار. ووحده صدى بعيد، لصرخة طِفْلٍ، كان يسكن أذهانهن على الدّوام.

كنتُ جالسةً على عرش، يداي مغطّاتان بقُفّازين أبْيَضَيْن، ووجهي مُلَثَّمٌ. وكانت النّساء يَعْبُرْنَ الغرفة، واحدة تلو الأخرى، جاثيات ورؤوسهنّ مطأطأة. كان يفصلني عنهن حوالي نصف مِتْرٍ. كنَّ يُقَبِّلْن يدي ويرفعن فساتينهن. وكان عليّ أنْ أمرّر يدي بِرِفْقٍ على بُطونهن المستوية وألامِس عاناتهن.

كنتُ أخلع القُفّاز وأنقل إليهن الدّفء الذي كان عليه من حيث المبدأ أن يضمن لهن الخصب. كانت أصابعي تحرث أحياناً أسفل البطن بقوة، كما لو كان الأمر يتعلّق بأرضٍ رخوةٍ ورطبة. وكانت النساء سعيدات؛ فكانت بعضهن يستبقين يدي فوق بطونهنّ ويَدْسُسنها في مهابلهن. كن يعتقدن بأنّ الملامسات لا تكفي. وزيادةً في اليقين، كنَّ يرغمن أصابعي على دَعْكِ جلودهن، على دَمْغِها لحدِّ جُرْحها. لم أكن أحس بالكلل. وكانت النساء يتقاطرن طوال اللّيل. فقد كان القانون ـ قانون ذلك المكان وقانون سَيِّدٍ كُلّي الوجود ولكنّه محجوب ـ يفرض عليهن الانصراف ابتداءً من الفجر، مع أشعّة الشمس الأُولى. وكنت أحتار أمام النّساء المُفْرطات الشباب. فقد كُنَّ أحياناً من اليَفَاع بحيث لم أكن أجرؤ على لمسهنّ. فكنتُ أكتفي بغمس أصابعي في قدح من زيت آركان وأضعها بالكاد على شفاهن. وكانت بعضهن يلعقنها، بينما كانت أخريات يُشِحْنَ بوجوههن متضايقاتٍ رُبّما من الرّائحة القوية لتلك الزّيت. في الغالب، كانت أُمّهاتهن يضربنهُنَّ على رقابِهِنَّ مرغماتٍ إياهن على تلطيخ وجوههنَّ في يدي.

لقد عرفتُ الجحيم لاحقاً. كان ذلك في ليلةٍ من تلك اللَّيالي النَّيِّرة التي كان فيها كلُّ شيءٍ مُفْرِطاً : كان الضَّجيج يتعاظم، وكانت الأشياء تتحرَّك، والوجوه تتغيَّر، وكنتُ أنا ضائِعَةً ومُهانة.

كنتُ جالسةً كالمعتاد، ويدي مستعدَّة للطُّقْس. كنتُ أقوم بالحركاتِ آلياً. وكان كلُّ شيء يبدو لي مُشَوَّشاً، مغلوطاً، خليعاً ومُضْحِكاً. فجأةً، خَيَّمَ الصَّمتُ في المَزار. كانت النساء واقفاتٍ في الصَّف، لِتَلقّي مفتاح خلاصهن من يدي.

كان الجحيم بِداخلي، بفوضاه، وهلوساته، وعتهه.

لم أكن أعرف ماذا أفعل. كان البطنُ العاري المتقدّم إليَّ أشعراً. وقد اندسَّتْ يدي قليلاً فلاَقَتْ عضواً مُنْتَصِباً. سحبتُها ونظرتُ إلى الوجه الذي كان يحاول إخفاء نفسه. فقال لي بصوتٍ خفيض :

ـ طويل هو الوقت الذي انقضى على رحيلك. لماذا غادرتنا بتلك القسوة ؟ لم تتركي لنا سوى ظلّك فجفاني النوم. وقد بحثتُ عنكِ في كلّ مكانٍ. فسلّمي نفسكِ الآن ! أعيدي إليَّ نَفَسي، حياتي، ورُدّي إليَّ قُوَّةَ أن أكون رَجُلاً. إن قدرتك هائلة. والبلاد كلها تعرف هذا. طويل هو الوقت الذي انقضى على رحيلك. ضعي يدك من جديدٍ على بطني. ولا تتردّدي في تمزيقه بأظافرك. فإذا كان لابدّ لي من الألم، لِيَكُنْ إذنْ بيديك. أنتِ جميلةٌ ومتعذِّرةُ المنال. لماذا ابتعدتِ عن الحياة، لماذا تعتمرين في ظِلّ الموت..؟

كان يضع غطاء جلأبته على رأسه. وكنتُ خائفَةً مما كان يمكن أن أكتشفه. فربُّما كان ذلك الصَّوتُ معروفاً لديَّ. لم أحتج إلى رفع غطاء الرأس. فقد فعل ذلك بنفسه. كان لونُ الوجه وشكلُه يتغيَّران. وكانت ثمة صُوَرٌ تتراكم بَعْضُها فوق البعض الآخر، مكوِّنةً تارةً صورة أبي، وتارة أخرى صورة العمّ الذي قَتَلْتُ. بغتةً لاحَتْ لي فوق هذين الوجْهَيْن العتيقَيْن صورة القنصل، وعيناه مفتوحتان، متألّقتان، ضاحكتان، عينان صافيتان، ورُبَّما زرقاوان. لم يعد الرَّجُلُ يحادِثُني. كان ينظر إليَّ، ويتفحّصني. فخفضتُ بصري. ثم انحنيتُ وقبَّلْتُ يديه. لم تكن لديَّ رغبةٌ في الكلام. فقد أحسستُ بكلّ حرارة جسده تتصاعد بداخلي، حرارة آتية من نظرته المفتوحة، من عينيه المُحَرَّرتَيْن من العتمات. وكانت فورةُ الحرارة تلك تنتزع حاجبيّ في خصلاتٍ صغيرة، ثم أهدابي، ثُمَّ بعض القِطَع من جلد الجبين.

أحسستُ بمغصٍ في بطني، ثُمَّ بالخواء، خواء مستديم كـان ينحفر بـداخلي. كـان رأسي عارياً. وكان كتفاي ممروقَيْن، ويداي مشلولتي الحركة، وبلا معرفةٍ من بقيـة العـالم، كمـا لو كنا، ذلك الرَّجُل وأنا، محبوسَيْن في قفصٍ زجاجي، كنتُ أُكابدُ الزَّمن وتقلُّباتـه. كنتُ بمثـابـةِ هزيمةٍ، وكنتُ أمشي وحيدةً على طريق مُبلَّطٍ بـالرخـام، حيث كنتُ مُهَـدَّدةً بـالسقوط. لقـد تبيَّنْتُ بـأنَّني كنتُ أخرجُ من نفسي، وأنَّ على ذلـك المَشْهَـد أن يُـؤدِّيَ إلى هـذا الرحيـل في جسدٍ مهزوم. كنتُ مليئةً بخرَقٍ بالية، ومُعَرَّضةً لذلك الضوء الذي لابُدَّ أنَّـه كـان رائعـاً، لكنني كنتُ خائرة القوى، عديمة الشعور، محروقـةً من الـدَّاخل، مُلقـاةً في دوامـة الفراغ، ومحـاطـةً بالبيـاض. فقلتُ لنفسي متردّدة بعض الشيء : «إذن فهـذا هو الموت ! السَّفَرُ بقـدمَيْنِ عـاريتَيْن على رخامٍ باردٍ، ونحن ملفوفون بغطاء من البخار أو بِسُحُبٍ بيضاء. ليس في هـذا مـا يُزعج... لكن أين المَخْرَج، أين النهـايـة ؟ هل سـأظلُّ أَبَـدَ الـدَّهْرِ تحت هـذا الضوء الـذي يُحْرِقُني ولا يمنحني الظّل ؟ إذن، ليس هذا بالموت، إنَّهُ الجحيم..!».

لقد كلَّمَنِي صوتٌ مجهولٌ، ولكنه واضحٌ، قـائلاً : «ذات يوم، وليس ذات ليلـةٍ، فـالليـالي في الجهةِ الأخرى، ذات يومٍ ستلدين طائراً كاسِراً، سيجثم على كتفكِ ويَـدُلُّـكِ على الطريق. ذات يومٍ ستنحـدرُ الشمس قليلاً نحوكِ. وستتركُ جسـدكِ سليمـاً لكنهـا سَتُحْرِقُ كُلَّ مـا يضمّـه. ذات يومٍ سينفتح الجَبَلُ؛ وسيمضي بك. إن كنت رجُلاً سيحتفظ بك؛ وإن كنت امرأة سيهَبُـكِ زينةً من النجوم ويُرسلكِ إلى بلد الحُبّ اللانهائي... ذات يومٍ... ذات يوم...».

تلاشى الصوت. ربَّما كان صوتي الخاص الذي صُودِرَ مِنِّي. لابُـدَّ أنَّهم أخـذوا مني صوتي وتركوه يتيه بين السُّحب. وإذن فقد كان يقول نفسـه بمفرده. لم أكن أتمكَّنُ من صيـاغـة أيـة كلمةٍ. كنتُ محرومةً من الصوت، لكنني كنتُ أسمعه، بعيداً عنّي، صادراً من جهةٍ أُخرى، عابراً لجبالٍ أُخرى. كان صوتي طليقاً. بينما ظللتُ أنا سجينة.

كانت ليالي أرَقي مأْهولـةً بصورة تلـك النّسـاء اللابسـات للأبيض، السـائرات بمشقّـةٍ في الرِّمال. كُنَّ مُتَّجهاتٍ نحو نقطةٍ بيضاء في الأُفق. تُرى هل سيصلن يوماً إلى ذلك المكان الذي لا يُوجَـدُ إلاّ داخل حُمْقِي ؟ وحتّى إذا تَفَضَّلَتْ يَـدٌ سعيـدةٌ ووجَّهَتْهُنَّ بمعجزةٍ نحو قبر إحـدى الوليّـات، سَيُلْفِينَ أَنْفُسَهُنَّ أمـام التّضْليل. إنّني أعرف هـذا الآن ولا يمكنني إخبـارهنّ بـذلـك. على كلّ حال لن يُصَدِّقْنَني. فلستُ سوى مجرمةٍ عليها أن تقضيَ مُدّة عقوبتها، وتلجأ إلى هـذه

التخيُّلات لخداع الملل ! ربَّما ! لكن الألم، الألم الذي يُحْدِثُ ثُقُوباً في الرأس وفي القَلْب، هذا الألم لا يُمكن قوله ولا إظهاره. إنَّهُ داخِليٌّ، حبيسٌ، محجوب.

لم أكن بحاجةٍ إلى هذه الرؤى الجديدة المنسوجة بالحرائق والحُمَّى، لتحطيم الباب السَّميك للقَدَر. كنتُ على وشكِ الخروج. كان لديّ حَدْسٌ بذلك، لكنني لم أكن أرغب في الانصراف من السّجْن مُثْقَلَةً بكلّ تلك الصُّوَر التي كانت تُنْهِكُني. ما العمل للتخلّص منها ؟ كيف يمكن إيداعها على الأحجار الرّمادية لزنزانتي ؟

وضعتُ العصابة السوداء من جديدٍ على عينيّ، وتعرّيتُ، ورقدتُ على الأرض مُباشرةً. كنتُ عاريةً تماماً. وكان بلاط الإسمنت بارداً. فكان جسدي يُدْفِئُه.

كنتُ أرتعد. وقد أقسمتُ بأن أصمد للبرد. كان لامندوحة لي عن المرور بهذه التجربة لكي أتخلَّص من تلك الصُّوَر. كان لابُدَّ من تذكير جسدي وحواسي بمكان حَبْسِي وبأنّه من الوهم الإفلات منه بأحلامٍ تتحوَّل إلى كوابيس.

إذا كانت النّفس مسلوخةً، فإنّ الجسد لم يعد بمقدوره أن يكذب. لقد نمت رغم الرطوبة والبَرْد اللّذَيْن كانا ينخران جسدي. وكانت ليلتي طويلةً ورائعةً. إذْ لم تأتِ أيةُ صورةٍ لِتَخَلُّلِها. في الصباح كنتُ أسعل، لكنني أحسستُ ببعض التّحَسُّن.

22

الـوَلِـــيُّ

كنتُ أبْكِي عنـد خروجي من السّجن وقـد تمتّعتُ بتخفيفٍ للعقـوبـة. لقــد فرحتُ لأن عينيّ كانتا مغرورقتين بالدموع. فذلـك لم يحـدث لي منـذ أمـدٍ طويلٍ جـداً. كـانت دموعي سعيدة لأنها كانت تنذرفُ من جَسَدٍ كان يُولَدُ من جديدٍ، جسـدٍ كـان قـادراً من جـديـدٍ على امتلاك شعورٍ وانفعالٍ. كنتُ أبكي لأنّني كنتُ أُغَادِرُ عالَماً أفلحتُ في العثور على مكانٍ فيه. وكنتُ أبكي لأنّه لم يكن هناك أحَدٌ ينتظرني، كنت حُرَّةً. ووحيدةً. لقد فكّرْتُ في القنصل، لكنّني كنتُ أَعْلَمُ بأنّه غادر المدينة، مَضَى بعيداً إلى هناك حيث قد يتحرَّرُ من قِصَّتنا.

أحسستُ برغبـةٍ عـارمـةٍ في رؤيـة البحر، في شَمِّ عطره، ورؤيـة لـونـه، ولَمْسِ زَبَـدِه. فركبتُ حـافلـةً كبيرةً كـانت متوجّهـة نحو الجنوب. سِرْنـا طوال الليل. كـان النـاس يُـدَخِّنون ويشربون اللّيمونـاد. لم يكونوا يُضـايقُـونني. ظللتُ مفتّحـة العينين، أنتظر ظهـور البحر. وفي الصّباح الباكر رأيتُ في بادئ الأمر ضباباً خفيفاً يتصاعَدُ من الأرض. كـان مثل غطـاءٍ شـاسع فوق سطحها، غطاء أو حقل من الثّلج. وقـد تبيّنْتُ بعض القوارب والمراكب الشّراعيـة. كـانت مُعَلَّقة تقريباً، على كلّ حال مرفوعة فوق سماطٍ من الضّباب. وكان عُمْقُ الفضاء أبيض وناعمـاً. كان يُوجَدُ فيِ الأشياء ما يُشْبِه البراءة، نوع من السِّحْر يجعلها قريبةً ومُسالِمة. كانت الأشْيَـاءُ مهتزَّةً، وغامضةً. ربّما كـان بصري هو الـذي يُرَتِّبُهـا بشكلٍ سَيِّءٍ. ولابُـدَّ أنّ الحلم كـان يستقي صوره من تلك الطَّبقَة المُبْيَضَّة المعبورةِ بأشعَّةٍ زرقاء.

كان الفصل خريفاً. كنتُ أرتدي جلاَّبَـةً رجَـالِيَـةً. كـان صوفُهـا سميكـاً وخَشِنـاً، وشعري معقـوداً في وشــاحٍ جميـلٍ فــاقـع الألـوان. وضعتُ الأحمر على شفتَيّ والكُحْـلَ حـول عينيّ. ونظرتُ إلى نفسي في مرآةٍ صغيرة. كان ماء الحياة يسري ببطء في وجهي من جـديـدٍ. كـان

يُشرِقَ من الدّاخل. كنتُ سعيدةً وخلية البال. وكـان مظهري غريبـاً ومُضحكـاً بجلاّبـة سـائقي الشاحنات التي كنتُ أرتديهـا. فقـد صَوَّبَ إليّ المُسـافرون الـذين كـانوا لايزالون بين اليقظـة والنَّوم نظراتٍ قَلِقَةً. وقد ابتسمتُ لهم. فَغَضُّوا أبصارهم. لأنّ الرّجال عنـدنـا لا يطيقون أن تَنْظُرَ إليهم امرأةٌ. أمّا هم، فيحبُّون النّظَرَ والتَّفَحُّص، ولكن بطريقةٍ مواربة دائماً.

في تلك المدينة، كانت المحطّةُ الطُّرُقيةُ تُواجه البحر. يكفي تخطّي حائـطٍ قصير لكي يُلْفِيَ المَرْءُ نَفْسَهُ على الرّمل. سِرْتُ بتمهُّلٍ بمحاذاة الشـاطئ المُقْفِر. كنتُ أتقـدّمُ في الضّبـاب. ولم أكن أرى أبْعَد من بضعة أمتار. حينما نظرتُ خَلْفِي، أحسستُ كمـا لو كنتُ مُطَوَّقَـةً بحزامٍ من الضّباب، كما لو كنتُ مَلْفُوفَةً في برقعٍ أبْيَض كان يفصلُنِي عن بقية العـالم. كنتُ وحيـدةً، منفردةً في تلك العزلة الرَّضِيَّة التي تسبق حدثا كبيراً. خلعتُ بابوجي. كان الرمل رَطْباً. وقـد أحسستُ بهواءٍ مُنْعِشٍ يهبُّ من بعيدٍ ويدفعني. فاستسلمتُ له كورقةٍ ترتفع بخِفَّـة. بَغْتَـةً، هبـط من السَّماء نورٌ ساطِعٌ، نورٌ يكاد لا يُطاقُ. كان من العُنْف بحيث رأيتُ كُرَةً مُعَلَّقَـةً، هي منبع ذلـك النـور. وقـد شَـقَّ سجف الضَّبـاب. كنتُ كـالعـاريـة. لم يَعُـدْ شيءٌ يغلّفني أو يحميني. وأمامي مباشرة، كانت هناك، في الأُفُقِ الذي اقتربَ بأعجوبة، دارٌ كلّية البياض. كانت قـائمـةً فوق صَخْرٍ عالٍ. فتسلّقْتُ الأحجـار، ووصلتُ إلى القمّـة. أمـامي، كـان البحر. وخَلْفي الرّمـال. كانت الدّارُ مفتوحةً. ولم تَعُـدْ لهـا أبواب. عبـارةً عن غرفـةٍ واسعـةٍ جـدّاً. ولم يكن بهـا أثـاث. أرضها مُغَطّاة بحُصُرٍ باليةٍ. وهناك مصابيح غازية مُعَلَّقةٌ تنشُرُ ضوءاً كابيـاً. في إحـدى الزوايـا، كان هناك بعض الرّجال. كان بعضهم نائمين، وآخرون يُصَلُّون في صمت. وفي الجهـة الأخرى، كانت هناك بعض النّساء والأطفال. وحدها سَيّدةٌ عجوز كانت تُصَلِّي. اقتربتُ منها وتفحّصْتُها. لم تكن تراني. كانت مستغرقةً في صلواتها. فجلستُ بقُرْبِها. وتظاهرتُ بالصّلاة. وقـد أخطـأتُ إحدى الحركات. فلفت ذلك انتباهها. كانت تشبه الجلاّسَةَ على نحوٍ غريب. كانت أقلّ بـدانـةً منها، إلاّ أنّها كانت تقوم بنفس حركاتها، ولهـا نفس الطّريقـة في الجلوس. توقّفْتُ عن الصّلاة وأخذتُ أنْظُرُ إليها بقلق. كانت أصابعها تفرط حبّـاتِ مِسْبَحَـةٍ؛ وشفتـاهـا تتحركـان بصعوبـة. التقتْ نَظْرتانا، ثم بعد بُرْهَةٍ انحنتْ عليَّ وقالت لي وهي تُواصِلُ التّسبيح :

ـ ها أنتِ أخيراً !

كانت هي دون ريب ! الجلاّسة ! لم يتغيّر صوتُهـا. أمّـا وجههـا فقـد تغضّنَ قليلاً لكنّـه كان قد صار أكثر هدوءاً، أكثر إنسانيةً.

تراجعتُ لحظةً، ثمَّ، دون أن أُفكِّر، قُلْتُ :

- نعم، ها أنذي !

كنتُ تحت سطوة سِحْرٍ ما. وكنتُ سأقول شيئاً عندما أَمْسَكَتْ بذراعي :

- تكلّمي بصوتٍ منخفض، وإلاّ ستوقظين الوليّ.

غدًا كلُّ شيءٍ جلياً في ذِهْني. كنتُ أُفكِّر في أنه لا يوجد بين الحياة والموت سوى طبقةٍ رفيعةٍ جداً مكوَّنةٍ من الضَّباب أو العتمات، وأنَّ الكذب ينسج خيوطه بين الواقع والمَظْهَر، لأنَّ الزَّمَنَ ليس سوى تَوَهُّمٍ لِكُروبنا.

نَهَضَ الولي بعد أن نهض الجميع. وخَرَجَ من بابٍ قصي. كان يرتدي الأبيض من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، كان مُلَثَّماً ويحملُ نظَارَةً سوداء، وقد اصطفَّ الرّجالُ والنّساء لتقبيل يده باحترام. كان أَحَدُ الرِّجال يتريّثُ أحياناً أمامه؛ فلابُدَّ أنَّه كان يُفْضِي له بِسِرٍّ في أُذنه. كان الوليُّ يهزّ رأسه، ثم يُطَمْئِنُهُ كما لو كانَ يُبارِكُه.

نهضتُ بدوري ووقفتُ في صَفِّ النّساء. ثُمَّ رغبتُ في المزاح، فالتحقتُ بصفِّ الرِّجال. فبجلاّبتي كان يُمْكِنُ أنْ أُعْتَبَرَ رَجُلاً. وعندما صرتُ أمام الولي، جثوتُ وأمسكتُ بيده الممدودة، وعوض أنْ أُقَبِّلَها أَخَذْتُ أَلْحَسُها، مَاصَّةً أصابعه واحدةً واحدةً. وقد حاول الوليُّ أن يجذبها لكنّني كنتُ أمسكها بكلتا يديّ. كان الرَّجُل مُضْطَرِباً. فنهضتُ وقلتُ له في أُذنه :

- لقد انصرم أَمَدٌ طويلٌ لم يُدَاعِبْ فيه أيُّ رَجُلٍ وجهي... هيّا، أُنْظُرْ برفقٍ إليَّ بأصابعك، براحة يدك.

فانحنى عليّ وقال لي :

- ها أنت، أخيراً !